

1995

اسم الكتاب: 1995 - رواية
اسم الكاتب: هيثم العوضي
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفني: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى - 2020 م
رقم الإيداع: 20996 / 2020
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 6852 - 10 - 5



arabiclibrary2017@gmail.com

almaktaba79@gmail.com



Facebook.com/arabiclibrary2017



01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كلياً أو جزئياً، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

1995

رواية

هيثم العوضي



الإهداء

إلى أخي ...

التمهيد

ضرب مصر سنة 1992م. زلزال قوي، بلغت قوته ما يفوق الست درجات على مقياس ريختر، ولم تكن مصر في ذلك الوقت، بمن فيها من أجيال، قد عاصرت شيئاً شبيهاً بهذا من قبل، بالطبع، كان هناك بعض الزلازل التي ضربت مصر، وربما فيهم ما هو أقوى. ولكن بالتأكيد، لم تكن تلك الأجيال الحالية متواجدة، لذلك فلقد حدثت كثيرٌ من التغيرات، في تكوين الإنسان، وكل ما يحيط به. أولاً، تقرب المواطن من الله في كلتا الديانتين المسلمة والمسيحية. وحاول كثيرون أن يبدوا مثاليين في تلك الأوقات الصعبة التي أعقبت الزلزال مباشرة. ومن ثم اعتادوا الأمر، فتراجعت معدلات التزامهم الديني إلى المستوى الأدنى، وكأنهم كانوا يتقنون من شخص غدر بهم وأرشدتهم إلى طريق خاطئ. فقد كانوا يظنون جميعاً أنهم ملاقو ربهم، وفجأة وصلتهم معلومة أن الزلازل تحدث، وأنها شيء موجود، وكثير من الدول تتعايش معه وكأنه روتين يومي.

تسبب هذا في أن معظم الناس قد تناست، أو حاولوا نسيان الأمر. حتى إن بعضهم قد قوي قلبه لدرجة أنه بدأ يستغل أزمة الزلزال ويتربح منها. بدون أي مبادئ.

وانشغلت الدولة بتلك الكارثة. المئات والمئات من المنازل انهارت، الضحايا ليس لهم حصر، والمعجزات بالألوف. بين من خرج من بين الأنقاض، وبين من ترك منزله صدفة قبلها بعشر دقائق، ومن كان يزور أحد أقربائه من أصحاب المنازل المسلحة القوية، وعلم بما حدث لمنزله، وأنه قد نجى هو وأسرته. كما كان هناك من له منزل قوي، ولكن سقط عليه جدار عقار قديم في أثناء مروره من أمامه في أحد

الطرقات. لكن المنازل التي أصبحت على وشك السقوط صارت بالألوف والألوف. ملايين الأسر المهددة، ومثلهم من المشردين.

وأخذت الدولة في الاستيلاء على المشاريع التي كانت قد أعدت مسبقاً لأغراض أخرى، وشرعت في العمل بكل قوتها لبناء أكثر من مدينة سكنية موحدة التصميم لمنكوبي الزلزال وضحاياهم. بالفعل كان اختباراً حقيقياً، برهن من خلاله جميع الناس على أن المصري قادر على التحديات الكبرى بشكل جيد، وأن هناك تكاتف حقيقي داخل معدنهم لا يظهر سوى في الأزمات.

لكن الأزمة قد طالت أشياء أخرى أيضاً من الإنسان المصري نفسه، وجعلت منه تحت ضغط أكبر من كافة الأنحاء. هناك من كان معدماً ولا يملك من الدنيا سوى كوب بلاستيكي يشرب منه، وزير يخزن به الماء، وينظر إلى حال جاره ويتحسر على حاله، وجاره هذا كان ينظر إليه باستعلاء وشفقة. أصبح هذا المعدم بعد الزلزال يمتلك مسكناً أفضل من كل مساكن جيرانه السابقين، والذين كانوا يتعالون عليه، والآن أصبح هو من يتكبر، وهم من يتنمروا.

بقدر ما كان الزلزال بمثابة كارثة كبرى على البلاد.. إلا أنه أيضاً كان فاتحة خير على بعضهم. حتى إن عداوة رهيبة قد ظهرت على النجاح والناجحين، وقد أصبح داخل بعض المجتمعات القديمة جداً داخل أحياء القاهرة، والتي كانت الأكثر نكبة في الكارثة، منغلقة على بعضها بعضاً، تعانين الأضرار وتغلق أكثر. لم يمر الأمر دون أن يستفيد منه أصحاب تلك المنازل الأكثر نكبة، والتي انتقل منها أهلها إلى أماكن أخرى صالحة للحياة، بعد أن عانوا لسنوات وسنوات من الخوف من تكوم أنقاض منازلهم كل يوم فوق رؤوسهم. انتظر أصحاب تلك المنازل قليلاً فوجدوا أنها لا تزال قائمة، ولن تسقط كما قال مهندسي الحي، وهناك في الشوارع، لا يزال كثير من المشردين. يحتاجون إلى أية أربع جدران تلملمهم من الشوارع، وقسوة الطقس في

الشوارع، ومنهم من ينتظر دوره للحصول على بديل لمنزله في إحدى المدن الجديدة. مما دعا أصحاب تلك المنازل لعرضها للإيجار. وهنا نزل كثيرٌ من الأغراب على تلك الأحياء القديمة المغلقة، ذات المجتمعات المغلقة، والتي أخذت، وكالعادة، في محاولة الانخراط الميئوس منه. فمهما فعل فسيظل غريباً.

فكل من هجر منزله ومنطقته أخذ يبحث داخل المنازل الفارغة في المناطق المحيطة به، وبمنطقته القديمة، حتى يظل بين أهله. لكن في الحقيقة أيضاً أن تلك المجتمعات المغلقة لا تكون على علاقة حسنة بحيرانها أبداً، فربما قامت المنطقتين بالكامل بعركة يسقط لها الضحايا بسبب طفل صغير أو كوب شاي على مقهى.

فكثرت المشكلات والعراك بعد الزلزال، حتى أصبحت السمة الشائعة بين الناس، وكأنهم جميعاً يبحثون عن بطولة بالبلطجة وفرض السطوة، وساعد في ذلك انشغال الحكومة بكامل وزرائها بكارثة الزلزال كأولوية ينتظرها أي شيء آخر. فكثرت المواد المخدرة أيضاً، وانتشرت بين الشباب بشكل مروع، لم يكن أحد يتوقعه. ربما يعود ذلك إلى هذا الخوف الذي ظهر يومها عندما اهتزت الأرض بشكل عنيف، وحاولوا جميعاً إخفاءه ومواراة خوفهم بداخلهم؛ متصنعاً كل منهم قوة ليست له، فليس هناك من هو أقوى من الطبيعة. لكن الشباب كان بداخلهم خوف من تلك، إن من بينهم شباب لم يقابلوا اختبارات بعد في حياتهم، وكان ذلك أول اختبار لهم، ويا لقسوته من اختبار. ربما كانت المخدرات عاملاً مساعداً قوياً لتدارك خوفهم، والسيطرة على تلك الرهبة الكبيرة داخل قلوبهم.

تمضي الأيام فتتفاقم الأمور وتكثر المشكلات وتتراكم. من الدولة إلى المحافظات فالمدن. من المدن إلى القرى والمناطق والدوائر والحواري. ظلت الأماكن الشعبية، بمجتمعاتها المغلقة؛ ذات العادات والتقاليد الخاصة، تواجه أعاصير من

المشكلات اليومية، ومن تلك الحوارية كانت حارتنا. بأهلها الطيبين، والذين استيقظوا لأربع ليالٍ كاملة لم ينعموا فيها بنوم. من السبب؟ لا ندري. هل يستحق السبب؟ أيضا لا ندري. ولكن الأكيد أن هناك سببا، والأكيد أن بعد تلك الليال الأربعة لم تعد الأمور كما كانت على الإطلاق، ولم يعد الناس كما كانوا أيضا. لقد غيرت تلك الليال الأربعة عقلية ومفهوم وحتى تضاريس الحارة فيما بعد. مما جعل اختياري لان تكون تلك الليال الأربعة هي موضوع بحثي الخاص بالمأجستير أن تقبل سيادتكم بهذا. وهذه هي حكاية الليال الأربعة كما عايشتها، وكما رواها أصحابها.

إمضاء

أمين مباحث أيمن علي حسين
مأمور نقطة ارتكاز منطقة المعزولة حينذاك.
والرائد بمديرية الأمن حاليا



مديح

الظلام..

إنه صديقي الحميم، يخيم على الغرفة بالكامل، لا أثر لضوء سوى ذلك الخط الرفيع القادم من أسفل باب الغرفة، ليخبرني بأن هناك ردهة مضاءة من خلفه. منعْتُ ضوءها من العبور حينما أغلقت الباب بنفسي من قبل، تلك طريقتي حينما أنوي النوم. كنت قادرا على السيطرة على الضوء بالفعل، ولكن في الوقت نفسه فشلت في السيطرة على الضوضاء من حولي. فالأصوات القادمة من الخارج لا تنقطع أبدا.. مهما فعلت. هي من أيقظتني، وقد كنت أحتاج إلى اليقظة حقا. لست نادما على كل حال، فأنا غارقٌ في الوحدة داخل ذلك الصندوق الصغير المسمى شقتي منذ عامين. ليس لدي به من ونيس، ولا جليس. تستعيد ذاكرتي هذا في أثناء انفلات الضوء من خلف الباب وأنا أجذبه. لقد ولدت في تلك الشقة الصغيرة، وتربيت بها، حتى فرغت من حولي، وأصبحت بها وحدي. حتى إن موقعها داخل حارة صغيرة مثلها، في أحد ضواحي القاهرة القديمة، بمنطقة يسمونها جميعهم بـ "المعزولة".

أنظر إلى الساعة المستديرة المعلقة بجدار الردهة؛ فإذا بها السابعة مساء. أنتفض مستيقظا وقتها؛ فلقد اقترب موعد الطبيب. أنتبه إلى هذا، لقد شدد عليّ قائدي بالجيش ألا يفوت هذا الموعد مهما حدث.. إنه أمر.

تعلو الصيحات مرة أخرى؛ قادمة من الحارة، أشعر وكأنها موجودة معي داخل الردهة، والتي يتفرع منها مطبخ صغير بعرض متر وطول متر ونصف، ومن داخل

هذا المطبخ حمام أصغر منه في المساحة كثيرا. به "خزان ماء بلاستيكي" كبير أزرق يتلصق المكان بالكامل، مليء بالمياه التي تنقطع طوال اليوم ولا تأتي سوى مع منتصف الليل؛ وعندما تأتي على الفور أقوم بتعبئة ما فرغ من ذلك البرميل، حتى أكمل به يومي القادم.

مددت رأسي أسفل صنوبر الماء النافذ من ذلك البرميل الأزرق، وأخذت أغسل شعري بقطعة من الصابون الرخيص، وانتفضت للحظة حينما اصطدمت يدي برسغي وأنا أغسل وجهي؛ فلقد كان ضرسى متورما وملتهبا، ولذلك فأنا على موعد مع الطبيب. ولولا ذلك الألم لما فكرت أبدا في زيارة طبيب، وخاصة "طبيب أسنان". لولا ذلك الورم أيضا لما أخذت عطلة من الوحدة التي أنا تابع لها مجتهدا في الجيش الوطني. وما فكر القائد في أن يعطيها لي، خاصة أن القائد يعلم مدى مقتني للعطلات.

أقطع الصلاة وأعود إلى الغرفة التي كنت راقدا بها منذ قليل؛ في ثلاث خطوات تقريبا. أقف أمام خزانة ملابس قديمة تتوسطها مرآة، وبعد أن أفتح ضلفتها، التقطت مشطا وأخذت أمشط شعري.

من النافذة تأتيني الصيحات مرة أخرى. سيدة كبيرة لها صوت مرتفع ويشبه الصياح:

- وائل.. ولد يا وائل.. هل محمد ابني يقف وسط ذلك الجمع؟
- لا يا خالة. إنه على المقهى لقد رأيته وأنا آتٍ إلى هنا الآن.
- حسنا يا حبيبي. تحياي لوالدتك.
- ثم يعلو صوت وائل بعد أن خطأ عدة خطوات تاركا المرأة أم شياء بصوتها شبيه بوق السيارة الحرب. وهو يتجه إلى آخر في الحارة سائلا:
- من مع من يا شقيق؟

- هذا جمعة يا سيدي إنه كالعادة؛ يهلل مع والدته.
- هذا هو عماد، أحد الجيران أيضا، تعرفت على صوته كما أعرف جميع أصوات من يسكنون الحارة.
- فأهمس إلى نفسي في مقت:
- كل هذا من أجل جمعة وأمه.. أستيقظ أنا من أعماق نومي "يا ولاد الهرمة" من أجل جمعة وأمه!
- ثم أعود لأصبر نفسي قائلا في نصح وصبر:
- على الأقل جمعة وأمه لهم الفضل في أنى ذاهب للطبيب في الموعد. ربما ارتحت من هذا الألم. ولم أتلَقَ جزءا عدم ذهابي من القائد. لكنني في داخلي أتفهم مثل تلك الأمور، فكل من يسكن هنا هو في الأساس لا ينتمي إلى هنا بالطبع. هذا في اعتقاده هو فقط -أي الساكن بصفة عامة- ويتصور أيضا أنه قد أتى في غلطة ما إلى هذا الحي، مع أن أغلبهم قد ولد به؛ لكن أحدهم لم يرَضَ به. دائما ما يتعاملون مع الأمر على أنهم أكبر مقاما من أن يتواجدوا في مثل هذا الحي، ويتفاخر كل منهم بأصله وفصله، ومن أين كان أهلهم، وكيف كانوا يعيشون قبل أن تدفعهم الظروف إلى هنا. لهذا فإن تلك العجرفة التي تسيطر على أسلوبهم وحديثهم تعتبر جزءا من تكوينهم، ولا تسبب لي الضيق بعد هذا العمر، لقد اعتدت الأمر، واعتدت التعامل معه؛ فلطالما سمعت من أحد الكبار أنه من أوائل من سكن المنطقة، وقد كان ذلك مع مطلع الثمانينات، وآخر يقول إنه متواجد منذ السبعينيات، ويصف كل منهم المنطقة كما يشاء وقت رآها، وتتضارب أقوالهم طبعاً..
- لكن لا شيء من هذا يهم الآن، فها أنا هنا، وجميعهم هنا أيضا.

أُغلق باب الغرفة، وأنتزع سروالا من فوق مسمار مثبت بظهر الباب. بعدها أخذ قميصا مكويا وأضعه على جسدي، وأربط حزامه فوق السروال الذي احتوى ذيل القميص داخله، وأكمل أناقتي وأنطلق نحو باب الشقة.

أهبط ثلاثة طوابق مسرعا فوق السلم الضيق، والذي لا يملك كل طابق منهم سوى باب واحد، كمدخل إلى "علبة" أخرى تشبه شقتي. ولم يختلف المدخل عن باقي المنزل الذي كان هو أضيّق منزل في الدنيا كلها من وجهة نظري. لكنني مع ذلك أحبه، كما أحب أيًّا من مقتنياتي القليلة، والتي لن يرى بعض الناس أنها مقتنيات قط. لكنني أعتبرها الدنيا بالكامل.

إنها تلك الشقة الصغيرة المكونة من غرفة واحدة وردهة، وتلك الردهة قُسمت إلى ثلاث قطع مستخدمة، وضرورية؛ صالة ومطبخ وحمام حتى أصبحت لا تحمل الصالة؛ سوى كنبه بصحارة صغيرة، وأمامها تلفاز صغير لونه أحمر وله شاشة أربعة عشر إنشًا. وداخل الغرفة هناك فراش كبير يصلح لنام فوّه ثلاثة أشخاص بالغين، إنه عمولة من خشب حقيقي، صنعة زمان، وإرث عائلي عن جدي، ولطالما تفاخرت به أُمّي قائلة: "وهل يوجد خشب مثل هذا الآن؟". هناك أيضا ثلاثة صُغيرة عند مدخل الحجرة. تلك هي كل مقتنياتي، لا يمكن أن أضيف لهذه القائمة تلك الحُصيرة الزرقاء المهلهلة في الصالة، وذلك البساط الصوفي العتيق في الغرفة؛ فأنا نفسي لا أعتبرهم مقتنيات.

من باب المدخل الذي وضع بين الجدارين تماما تاركا مسافة خمسة سنتيمتر فقط بين الجدار وقائم الباب، فمن صمم المنزل كان خبيرًا اقتصاديًا وليس هندسيًا؛ لقد استغل كل شبر به. فوضع غرفتين ليؤجرهم؛ واحدة أسفل بئر السلم، والأخرى بجوار مدخل المنزل. وتلك التي بجوار السلم لديها نافذة صغيرة تطل على دورة

المياه المشتركة للغرفتين. كما لو كانت تطل على حديقة عامرة بالروائح المكمكة. أعبر كل هذا دون أن أبالي، كما المعتاد.

إذا أحاطت تلك الظروف بأي إنسان في الدنيا لكان الآن يلعن الدنيا وما فيها، وبالأخص حينما عبرت من مدخل المنزل إلى الحارة؛ التي تظهر وكأنها أضيق من منزلي، وألح ذلك الجمع الغفير عند ناصية الحارة الضيقة الأخرى في مقابل حارتي، والتي جمعت بينهما ساحة مربعة واسعة في المنتصف. يطلق عليها أهل الحارة لقب "الوسعاية".

وذلك الجمع بالطبع يحيط بجمعة وأمه، تلك المسكينة.. لا يمضي عليها يومين آخرين حتى يكون الجمع نفسه يحيط بها مرة أخرى. فجمعة لن يتركها حالها إلا عند موتها. ذلك الشاب الذي لا يملك أي معنى. إنه لا يفعل شيئاً سوى تجرع المخدرات مع مجموعة من الشباب الذين لا يتخرون عنه في شيء.

منهم ذلك الشاب عماد الذي كان يتحدث في ظهر صديقه للتو كالعادة. بل إن بعضهم قد تخطى قلة أدب جمعة كثيراً، وأصبح الآن يشتبك مع والديه بالأيدي. لعل جمعة ذلك أرحم منهم. فهو على الأقل لا يفعل شيئاً سوى بعض الصياح والسباب فقط.. تُسَوِّل لي نفسي قائلة: إن كنت أنا أحد هؤلاء الذين انعدم منهم الأدب والحياء. لقتلت والداي على أقل تقدير.. والاثنين معا، في وقت واحد، وأمام بعضهما وأنا أشرب كوباً من الشاي.

أمضي من الشارع، وأنا لا أنظر تجاههم، بل أسترق بعض النظرات فقط، وأعبر نحو الخارج؛ فأمامي ما يقارب الخمسمائة متر سيرا على الأقدام حتى أصبح خارج المنطقة في الوسعاية الخارجية، ومنها إلى محطة الحافلة العامة. فلقد جعلني الألم أختار طبيب أسنان ذا سيطٍ عالٍ نصحني به القائد بعد بحث وتدقيق، في منطقة الحلمية، بالقرب من وسط البلد. كم أحترم هذا القائد أحمد.. إنه كالأخ بالنسبة لي حقاً.

أسمع صوتًا يقول صائحا:

- ماذا بك يا "مديح"؟ من أعطاك يعطي لنا يا سيدي.

تعرفت على الصوت فور سماعه.. إنه محمود الصعيدي. -الله يحرقه- لم يكن هذا وقته على الإطلاق. لن يتركني سوى بألم رهيب في الرأس، ورأسي به ألم بالفعل من جراء ذلك الضرر الخرب. فلا أولي له أي اهتمام خاصة عندما أراه وهو يمشي برفقة ذلك الفتى التافه المسمى بـ"عجينة"، إنه صبي السمكري، مراهق صغير آخر يريد أن يصبح رجلا، اضطررت لقول شيء فليس هناك مفر:

- أهلا "حوده".

- إلى أين.. يا صاحبي؟

- إلى الطبيب.

- كفى الله الشر.. خيرا.

أتعجب منه، هل أصابه العمي؟ حتى إن وجهي قد أصابه العوج من شدة التورم. كيف لم يره؟ فأجيبه دون أن أستطيع منع تقززي منه:

- ألم بسيط في المعدة.. ادع لي.

- ربي يشفيك يا صاحبي.

لم تكن عبارته قد تمت حتى كنت قد مرقت من أمامه دون سلام حتى. "وهل ينقصني ورم.. ألا يكفي ذلك الضرر الملعون؟!". أقولها لنفسي، وأتجه مباشرة إلى طريق مختصر يؤدي بي إلى تلك المحطة، من بعيد عن الساحة الواسعة التي تتوسط المنطقة، والتي بها اثنان من المقاهي التي يجلس عليها معظم شباب المنطقة ورجالها، يلعبوا الدومينو والطاولة فقط. أما البقية المثقفة التي تحتاج إلى لعب الشطرنج فتتخذ طريقًا إلى منطقة مجاورة، ولأن الطريق إليها كما لو يكون صاعدا قليلا، فكل من يذهب إلى هناك لا يقول أنا ذاهب، بل يقول: (أنا طالع).

ويُتفهم من يحدثه على الفور أنه ذاهب نحو المنطقة المجاورة لمنطقتهم، وفي الأغلب، يكون ذاهبا باتجاه ذلك المقهى "مقهى المثقفين".

عندما كنت أذهب إلى بيت خالتي في حي السيدة زينب، كانوا يقولون على الاتجاهات نفسها أسماء أخرى، فكان اليمين الذي يعني لي أنا الطلوع، كان بالنسبة لهم نزولا، واليسار طلوعا، وفي مناطق أخرى يقولون عكس ذلك، فلم أكن أدري لم تلك (الخريطة) في الاتجاهات؟ كما أطلقت عليها.

أمام بناية قديمة تصطف أسفلها الأعمدة القديمة، على طراز (الخدوية)، وعلى وجه الدقة الطراز الإسماعيلي. إنها فترة العمارة الأفضل التي تزين وسط المدينة العتيقة منذ زمن. لقد بُنيت في عهد الملكية، ولا أفهم أصل موضوع الملكية هذا، فكل ما أعرفه عنهم أنهم قوم زناة، ومخمورين. نهبوا البلاد، ونشروا فيها الفساد، وها قد أذهم الله في الأخير. _ صحيح يؤتي الملك لمن يشاء._

لكن كيف كانوا بهذه الأوصاف؟ وكيف شيدوا كل هذه الأشياء الجميلة؟ أكيد كان من أجلهم يتم تشيدها، وليس لعامة الناس، تلك الأفكار ملت إليها أكثر من غيرها. معلوم. لقد شاهدت ظلم هؤلاء في فيلم "رد قلبي" .. منهم لله؛ ناهبي البلد ومستعبدى الناس. أختتم أفكارى تلك وأنا أعبر فوق السلم الفسيح بعد أن قطعت مساحة كبيرة لكي أصل إليه من مدخل المنزل، وكان هناك مصعد كبير له باب حديدي بداخل بئر السلم، ولكن هناك لافتة معلقة عليه كتب عليها:

- لا يستخدمه سوى سكان العمارة -

لذلك فلقد اتخذت طريقي إلى السلم مباشرة مستسلماً، وفي الطابق الثاني توقفت أمام لافتة أخرى كتب عليها:

علي عبد الحميد الورداني

- استشاري جراحة الفم والأسنان بالقصر العيني -.

أعبر من الباب إلى مكتب صغير، يشبه الطاولة أكثر منه مكتب، وجلست فوقه امرأة في الأربعين من عمرها، ذات بشرة سوداء، وأسنان بيضاء بارزة، وشفاه ممدودة وممتلئة، ولها عين جاحظة. وجه آخر دميم من وجوه الدنيا المتقلبة.. فقلت لها بتهذيب:

- مساء الخير

- مساء النور.

- لقد حجزت بالأمس عن طريق الهاتف.. تحدث إليكم الرائد أحمد العيسوي.

- أتشرف بالاسم.

- مديح مدحت مداح.

رمقتني بنظرة مرتابة، فتفهمت سببها على الفور، وعلمت أنها تتصور أنني أنتمي إلى الديانة المسيحية. لا أعلم لماذا تكون هذه النظرة عندما يجدون أحد المسيحيين لأول مرة، مع أنهم يكون لهم أصدقاء مسيحيين أو جيران، يحبهم ويقدرهم. لكنه حينما يرى أحد المسيحيين للمرة الأولى يشعر بالمفاجأة لا أفهم لماذا، فأقول وأنا أدارك خطئي وألمس الورم في ألم:

- يا رسول الله.. الألم فظيع، وغير محتمل.

فتبتسم لي المرأة وكأنها قد ارتاحت من تعب ما، وبشفقة كبيرة من جراء آلامي. حتى إنها كادت تهم لمساعدتي، فأعلم أنني كنت مصيباً في حديثي، وأستغل الأمر في سرعة وأقول: هل لا يزال أمامي كثير؟

- تتبدل ملامحها إلى صرامتها الأولى وتعود بمقعدها على الفور وهي تجيب:
- لا يزال أمامك تسع.. وهناك أيضا سيدة ربما تحضر على موعد دخولها، لكن إن لم تحضر فستدخل أنت بعد هؤلاء التسع.
- أشكرك يا سيدة السيدات.

أجلس فوق مقعد مكون من أعمدة معدنية ووسادة جلدية، وليس له مسند ظهر، فلقد لمحت ذلك المسند مرتكزا على أحد الجدران هناك عند المدخل. على كل حال، ليس هناك خيار آخر، لقد تركه من في الغرفة لكونه بهذا الخلل. كما يقول المثل الشعبي "إذا كان به الخير فلما ألقى به الطير؟".

أنظر إلى تلك المرأة السمراء، وأتذكر كيف رمقتني عندما سمعت اسمي، وقلت بداخلي: "ملعون ذلك الوالد ألف مرة، لم أحصل منه سوى على الأوجاع فقط. حتى الاسم، لم يستطيع اختيار اسم جيد لي.. "محمد" أو أحمد أو محمود.. أليس كافيا له؛ هو ووالده أسماؤهم أيضا غير مسلمة." اللعنة على كليهما؟ كما كان يقول الشيخ حسنين "الأسماء عنوان صاحبها".

ثم تأخذني ذكرياتي إلى كيف ترك والدي المنزل عندما كنت صغيرا، وكيف تعرف إلى امرأة أخرى غير والدتي، وكيف فضلها عليّ وعلى إخوتي وأمي، وتركنا جميعا من أجلها. حتى إن والدتي لم تكن هي الأخرى ملاكًا، لقد تزوجت هي أيضا في العام قبل الماضي بعدة شهور، لقد كانت صدمة لم أحتملها. إنني لا أراها أو تراني منذ ذلك الحين سوى مرات معدودة بعد عدة أشهر لتحديث بيننا معركة كلامية تنتهي ببعض دموعها وتركها المكان لعدة شهور أخرى.

لكن عن أية دموع أتحدث؟ دمعي أم دموعها.. أهني تدري بما أراه داخل العيون. هل تدرك مدى قسوة النظرات عليّ من جميع الناس؟ ترى ماذا يقولون عنها الآن؟ ترى هم يقولون الآن أن الوحدة مستها؟ أهني الوحدة حقا من أفقدها ذكرى رجلاً

أنجبتة من رحمها، ترى هل كان هذا الرحم طهوراً أم مسه الدنس أيضاً؟ أكان عليها الانتظار حتى ينبت شاربى ويشد عودي؛ فمالت لاستثناس سقف رجل آخر؟ هل يقولون إن هذا من أجل عشقٍ أصابها، أم حاجة لم يدركها عقلي بعد؟ ترى هل كان يستحق أن تدهس ابنها تحت أقدامها، وتجعل من رقبتة بساطاً تدعسه نعال أنصاف الرجال؟ تلك الفاجرة اللعينة، أكان انتقاماً مني سعت إليه جاهدة؟ أكانت خطة رسمتها داخل جدران عقلها المريض.. أم إنها صدفة لم تدرك أن نهايتها شقائي؟ أم كان قدراً وعليّ تحمل قسوته دون غضب.. "القدر".. بداخلي ضحكة ساخرة من هذا القدر، لكم تمنيت رؤيته لكي أطلّقها في وجهه. تعود بي الأفكار يائسة، فإن كان قدراً فستظل تلك الضحكة حبيسة بداخلي، ولن ترى النور أبداً، إلى أن ألتقي مع القدر. آه من تلك الأفكار القاتلة.. كالسم تسري في دمائي دون إذن. وتنهش نسيج عقلي بأسئلتها اللعينة.

لقد كان عمري وقتها لا يتخطى التاسعة عشرة بعد، ومع ذلك، فلكي أغلب على تلك الأزمة، ولا أشاهد تلك النظرات في عيون الجيران، وأصدقائي.. قررت أن أترك لهم الدنيا كلها وأن أتجه إلى التجنيد. لم يكن وقتها قد أصابني الدور بعد، فالتجنيد يستلزم سن العشرين، ولم أكن قد أكملت التاسعة عشرة بعد. مع ذلك فلم يتركني الله وحيداً، ووضع في طريقي أبناء الحلال، واستطعت أن أحصل على مكان في الدفعة التي قبلت سنة ألف وتسعمائة وثلاث وتسعون. لقد كان لزاماً عليّ وعلى جميع من قُبِل أن يقضي في مراكز التدريب الحربية فترة خمسة وأربعين يوماً بمجرد أن يسلموا أنفسهم إلى وحداتهم، ولقد كنت على عكس جميع ممن قبلوا معي -سعيد جداً بذلك- مع إنني قد لمحت كل تلك النظرات الحزينة والسائمة التي ارتسمت على الوجوه التي بدأت تشعر بملل، كما لو كانوا في سجن منذ الوهلة الأولى.

على أن الحال قد تبدلت بعد ذلك، فعندما أكملنا تلك الفترة كانوا جميعهم حَزَائِي لفراق بعضهم بعضاً؛ حينما توزعت علينا الأدوار والأسلحة.
أما أنا، فقد كان كل شيء بالنسبة لي على السواء، الأهم هو أنني قد ابتعدت عن العيون لفترة طويلة، أتمنى حينما تنتهي؛ أن تكون تلك القصة قد هدأ صداها، ولم يعد هناك من يتحدث عن زواج تلك الفاجرة، أتمنى أن تكون ذكراها قد توارت عن عقولهم.

لكن هذا لم يحدث، لقد حصلت على أكثر من أربع عطلات قضيت أغلبها داخل تلك الشقة الضيقة اللعينة دون أن أخرج منها إلا للضرورة القصوى، بل إنني كنت أحصي تلك الأيام التي أعود بعدها إلى الجيش. من داخلي تمنيت أن أكون قد تخلصت من ذلك الأمر وإلى الأبد. لكنني أدرك تماماً أن ذلك لن يكون بتلك السهولة. ثم ظفرت قائلاً في همس داخلي: "لا أحد يختار والديه".

أسمع صوت تلك المرأة تقول بصوت قوي:

- تفضل يا أستاذ

- أشكرك.

أقولها وأنا أنهض -بوجه بللته الدموع دون أن أدري- من أعلى ذلك المقعد الخرب، وأتجه نحو باب أبيض كأغلب الأشياء المتواجدة داخل العيادة، وأنا أجفف وجهي بيدي، وأدلف نحو الداخل. وبدخلي هناك قليلاً من الدهشة سرعان ما نفضتها عن رأسي، وذلك لأنني قد اتخذت دوراً في الترتيب؛ أقرب كثيراً مما كانت تخبرني به المرأة، فأنا لم أر سوى ثلاثة أشخاص فقط قد دلفوا إلى الطبيب من قبلي، أو أنا من فقد الإحساس بالوقت لفترة.

الطبيب جالس خلف مكتبه، وعلى عينيه نظارة طبية قد وضعها عند طرف أنفه الكبير، وينظر نحوي من أسفلها بنظرة متعالية، في حين وقف رجل آخر أقل عمراً،

عند الزاوية الداخلية للغرفة، دون أن يتحدث أو يصدر عنه أي حراك، يتطلع الطبيب إليّ بشكل جعلني أفهم أنه ليس معجبا بهيئتي، ولكنه يتغلب على تكبره قائلاً:

تفضل هنا.. نعم، هنا فوق هذا المقعد.

توجهت حيث أشار لي الطبيب بسبابته إلى مقعد ضخم له مخدع منفرج كأنه فراش؛ يشبه كثيرا مقعد "المزين"، وفوقه مصباح كبير محاط بإطار معدني لامع. جلست فوق المقعد وألقيت بجسدي نحو الخلف، وسمعت صوت مقعد الطبيب وهو يحتك بالأرض، تفهمت أن الطبيب قد نهض من فوق المقعد أخيرا، وتفضل عليّ، وسوف يتفحصني مشكورا.

لقد تفهمت لماذا الطبيب ليس معجبا بي، شردت في هذا في أثناء فحصه لي، على أنني أثق بكوني أنتقي ملابسني بعناية لتلائمني تماما، وأحاول جاهدا أن أتقلد بنجوم السينما والتلفاز في انتقاء ذوق تلك الملابس. وأعتني جدا بتناسق الألوان، وكئيّ الملابس وتعطيرها. لكنني مع ذلك أحيانا أقف أمام طبقة معينة من الناس وأشعر أن تلك الثقة قد تلاشت، وأنني لا أفعل كل ذلك بالشكل المطلوب الذي يجعل من مظهري (ابن ناس) كما يقولون. على الرغم من أن العائلة بالكامل كانت تقول إنني من أفضل نسلها، وإن لي بشرة بيضاء ناصعة، وعيون عسلية متناسقة. باختصار، إن جميع الناس قد شهدوا لي بالوسامة داخل عائلتي وربما بين الجيران أيضا. فأنا أتذكر أنني حتى بلغت المرحلة الابتدائية، كانت جميع السيدات من الجيران أو من أصدقاء والدي يجلسنني فوق سيقانهن ويقبلنني في إعجاب بطفولتي. وكنت دائما أعتقد أن هيئتي إذا ارتديت الملابس الصحيحة والجيدة فلن يقول لي أحد سوى يا "باشا"، ولن يعتقد أحد بأنني من منطقة شعبية فقيرة، بل سيتصورون أنني سليل عائلة معظمها أثرياء من علية القوم.

بعد أن تفحص الطبيب فمي متقززا قال وكأنه يعنفني:

لماذا تركت فمك يصل إلى تلك الحالة؟

للطبيب أسلوب سيء، يجعلني أتعجب "أية حالة تلك التي يقصد، أنا لا أشكو سوى من ذلك الضرر فقط، أنا أعلم أن الضرر قد وصل إلى حالة سيئة جدا، وأن يكون لي ضرر به فجوة بعمق بحيرة وأنا في تلك السن الصغيرة، فتلك معجزة. لكن الطبيب يتحدث وكأنني أحتاج إلى طقم أسنان بديل." يقاطع الطبيب أفكاري قائلا:

كان يجب أن تهتم بصحتك أكثر من ذلك.. بالطبع أنت لا ترحمها، تدخين "التبغ" وغيرها بالطبع، وطبعا هذه الأشياء تجعلك تحتاج إلى الحلويات والمسكرات. النتيجة دائما تكون هي هذه الحالة المتأخرة التي عليها أسنانك.

لم ترقني طريقة الطبيب، إنه يلوح لي بأنني أتعاطى المخدرات، هذا سبب ذكره للسكريات. وعلى الرغم من ذلك الاحترام المبالغ به الذي تتمتع به تلك المهنة في منطقتنا، والتي لا أعلم إن كانت تقديرا لتعب ومجهود ومثابرة ذلك الطالب خمس أو ست سنوات قبل أن يحصل على هذا اللقب، والتي تجعل أغلبهم يحتاج إلى نظارة طبية للرؤية بعدما فقد نصف بصره في رؤية الكلمات الدقيقة بالكتب الضخمة، أم أن هذا ليس احتراما وهو مجرد توسل من مريض خائف نحو الشخص الوحيد القادر على مساعدته. أما أنا فقد كان لي عقل يصلح لأن يكون لعالم في الكيمياء العضوية وليس طبيا فقط إن أردت، وساعدتني على هذا الظروف، وكل ما أشكو منه هو مجرد ضرر خرب، لا أحتاج إلى نجاة من الموت حتى أضطر إلى احترامه كما يفعل عامة الناس فقلت بغضب وسأم:

- اسمع يا (دكتور)، أنا لا أريد سوى التخلص من هذا الورم في الفك فقط.. احتفظ بنصائحك لنفسك، ثم إنني لا أتعاطى شيئاً مما قلت، أنا لا أدخن المخدر، ولا أكل حلو كما تقول.
- اهدأ. أنا لا أريد سوى صالحك.
- اترك لي أنا التفكير من أجل صالحني.
- أحياناً يتهاذى الأطباء وكأنهم منزليين من السماء ولن يراجعهم أحد، ولكن لماذا؟ ماذا بهم من خير ليس موجوداً بجموع الناس. همست بها بأقوى عزيمتي في نفسي ورمقت الطبيب في مقت في أثناء انكفاء الرجل على دفتر صغير يضع فوقه بعض الكلمات باللغة الإنجليزية.
- رفع الطبيب يده بورقة قد كتب بها نوعين من الأدوية وتبدلت نظرته لي وهو يقول متصنعاً الابتسام:
- هذا الدواء سيجعلك تتحسن مع مطلع الأسبوع القادم على الأكثر، ولكن آخر نصائحي لك هي أن تهتم فيما بعد بأن تعالج ذلك الضرر أو تقتلعه.
- إن شاء الله يا دكتور.. هل به مسكن؟
- أقولها وأنا أربت له فوق الورقة التي بها وصف الدواء بيدي، ففهم الطبيب وأجاب:
- بالطبع.. لكن لا أعتقد أنه سيأتي بمفعول كبير في حالتك هذه في البداية، فحالة الالتهاب شديدة القوة في اللثة ويجب أن يسيطر عليها المضاد الحيوي أولاً.
- أخذت الورقة من يد الرجل بقوة، فأنا أشعر نحوه بكره من أول نظرة، وأقول بحدة:
- سوف أجد أنا مُسكناً بطريقتي.

"رجل أرعن.. ويقولون عليه من أكبر الأطباء.. على أنه ليس سوى رجل فحج."

أقولها لنفسي في أثناء هبوط درجات السلم، ومع كل درجة ينغزني ضربي بألم عميق وقوي. فأقول: لولا ذلك الألم لما احتجت لأمثالك من المتكبرين، لا أدري يا سيدي لماذا كل هذه النفخة الكاذبة.. في النهاية كلنا بنو آدم.

وصلت إلى مدخل العمارة القديمة، ولمحت الحافلة العائدة إلى منزلي تعبر من أمام العمارة، فركضت وكأني لمحت كنزا من الذهب إلى أن تعلق باب الحافلة التي لا تزال تسير بتلك السرعة الهادئة نسبيا. ولكنها كانت سريعة بالنسبة لي، حتى إنني اضطررت لقطع ما يقارب التسعين مترا حتى أمسك ببابها، وتزايدت سرعتها في أثناء قطعي تلك المسافة إلى أن فاقت قوة احتمال جسدي. فوقفت بجوار باب الحافلة ألتقط أنفاسي وأنا ألث في تعب واضح. لكنني نسيت كل هذا التعب حينما وجدت أن المكان فارغ من الركاب، وبه مقعدين فارغين وليس مقعد واحد فقط، وتلك كانت بمثابة إحدى النواذر التي لا يصادفها المرء سوى مرة واحدة أو اثنتين في العمر. وما أن جلست فوق مقعد منها، حتى أخذ الألم ينفجر بغتة بطني، حتى كدت أصرخ.. ولذلك أخرجت عملة ورقية ودسستها بين أصابعي موجهة إياها إلى قاطع التذاكر دون أن أتعب نفسي لأخرج هويتي العسكرية والتي تعفيني من نصف ثمن التذكرة.

أهرب من الألم بتذكر ذلك الموقف عندما حدث الزلزال، لقد كنت وقتها لا أزال في الثانوية التجارية، وكنت في المدرسة ومعني صديقي "مندو" رحمه الله. لقد توفي "مندو" في أحد توابع الزلزال بعد تلك القصة بأيام فقط، عندما سقط به سلم منزله في أثناء محاولة هروبه، وكان لديه شقيق توأم أصبح يُنادى باسم "مندو"، ويعامل على أنه هو.. لكنني أعلم تماما أنه ليس هو، فلقد كان "مندو" هذا أعز

أصدقائي بالحق، وأنا أكثر الناس معرفة به، وأعرف جيدا أن صديقي الحقيقي وشقيقه المزيف شتان الفارق بينهما.

يبنى وبين "مندو" رحمه الله كثيرٌ من المواقف. كنتك التي أتذكرها في أثناء الزلزال.. حينما اهتزت المدرسة وحدث ذلك الهرج والمرج، وأخذ الطلبة كل منهم يركض مخلوع القلب في اتجاه، دون أن يعلم أين هو ذاهب. استطعت أنا و"مندو" وقتها أن نظل معا حتى عبرنا إلى الشارع العمومي، وقفزنا معا إلى حافلة نقل عام، وحينما صعدنا أخذ "مندو" يقص تلك التذاكر من قاطع التذاكر بالحافلة، فسأل قاطع التذاكر "مندو" قبل أن يقص التذكرة، وذلك لأن كل منطقة كانت لها سعر بتذكرة مختلفة:

- إلى أين أنت ذاهب؟

قال "مندو":

- المعزولة.

قال الرجل نافيا برأسه:

- هذه الحافلة لا تذهب إلى المعزولة.

- لكن أنا ذاهب إليها.

- إذن يجب أن تهبط من الحافلة وتأخذ أخرى.

- الأرض تهتز بالأسفل ولا يسعني الوقوف عليها.. يجب أن أظل في تلك الحافلة، وأن أذهب إلى المعزولة أيضا.

لم أكد أنذكر إصرار ماندو على تلك الكلمات، وفشل قاطع التذاكر في إقناعه بذلك؛ حتى أمسكت برسغي على الفور، فلقد آلني ضربي بقوة حينما حاولت أن أضحك مرغما. عندما تذكرت تلك النظرة الحائرة بعيون قاطع التذاكر. وفي عيني نظرة دامعة مصحوبة بابتسامة كالمهرج الضاحك الباكي.

عندما أكون عائدا من الخارج متجها إلى حارتي الصغيرة، فعليّ أن أعبر من الساحة الفسيحة التي تتوسط المنطقة، عبر شارع ضيق إلى تلك الساحة المربعة التي تتفرع منها الحارة. ويقابلني بمجرد أن أصبح أمام تلك الوسعاية "البيت الأصفر". أبتسم حينما أتذكر ذلك الاسم، وأسأل نفسي أما زلت أحتفظ بذلك الاسم داخل عقلي. لقد كان ذلك الاسم هو المتعارف عليه بيني وبين والدتي عندما كنت أهبط إلى الشارع لكي ألعب مع الصغار وأنا طفل، وكانت دائما تقول لي: لا تبتعد عن البيت الأصفر. ولقد ظل ذلك الاسم عالقا في ذهني دائما عن ذلك المبنى.

صوت خطوات تقترب من خلفي، اسمعها وأنا افكر في البيت الأصفر؛ هو منزل قديم جدا، ربما هو الأقدم بين منازل الشارع والشوارع المحيطة به أيضا، على أن هناك عدة منازل قديمة في جميع أركان المنطقة، وأنا لا أعلم كيف يعيش بداخلها بشر. إنني أحيانا قبل أن أنام بمنزلي الذي يعتبر حديثا جدا بالنسبة لتلك المنازل العتيقة، وأفكر أن سقف المنزل سوف يطبق على أرضية الشقة وعلى صدري معها، ثم يساوي بنا الأرض.

عندما حدث زلزال أكتوبر في عام 1992م، كان أول المنازل التي حصلت على قرار الإزالة من الحي هو "البيت الأصفر"، ولقد تم تسكين معظم سكانه في المساكن التي صرفتها الدولة كتعويض للمنكوبين. إلا إنني، ولا أعرف كيف حدث ذلك؟ لقد أصبح هناك سكان جدد للبيت الأصفر بديلا عن القدامى!

تلك الشرفة التي تكشف الوسعاية كلها، والتي أراها أنا منذ أن دلفت إلى الشارع، اعتدت أن أنظر إلى زخرفة زائلة كانت تحيط بالنافذة، وبعض أحجار كانت تشكل قديما رأسي أسدين على الأركان، أصبحت ملاستهم الآن تتسبب في كثير من الغبار الذي يفر من موقعه مندثرا في الهواء. كانت تسكن بها امرأة تُسمى "منى"، لقد كانت لديها أبناء في عمري نفسه، أتذكرهما جيدا زياد وإياد. لقد كانا توأمان. إنها الآن في مساكن الزلزال بمنطقة النهضة. أما الآن فيسكن تلك الشقة الآيلة للسقوط ذلك الرجل "الطويل الأهل" أو "أبو طويلة" كما يجب أن يسميه الناس دون أن يعرف، مع إنها الحقيقة، ولكن الحقيقة كعادتها لا تصل إلى صاحبها سوى في النهاية. إنه يتخطى المترين طولاً، ولكن لديه زوجة جميلة كما لم أرَ مثلها من قبل. لا أعرف كيف تزوجت من هذا الأهل؟ كما إنني لم أكن أعرف أنه صاحب تلك الخطوات التي أصبحت تعبر بجواري "وكانه حضر على ذكر اسمه". أقولها وأنا أطلع إلى "أشرف" زوج الجميلة "سماح". وهو يمشي بطريقته المميزة متميلا برأسه يمينا ويسارا، ورقبته الطويلة وكأنها لا تكف عن الحركة أبداً، وذلك المداس الذي يضرب في كعب قدمه مع كل خطوة مصدرا صوت صفعة.

يعبر "أشرف" من خلفي ويتخطاني بخطواته الواسعة وساقيه الطويلتين، ويمر برقبته الراقصة كما لو كانت لا تستطيع حمل رأسه فوقها، ويصل إلى المنزل الأصفر الذي أصبح مدفونا تحت الأرض بحوالي مترين، عوضهم مالكة بثلاث من الأحجار البيضاء، لتكون درجات من السلم، وكان المنزل من الداخل من الأرضية نفسها التي يتكون منها الشارع بالضبط.

لم أدخل إلى ذلك المنزل الأصفر سوى عدة مرات معدودة على الأصابع، بعضها عندما كنت في الإعدادية، وكان أحد الجيران القدامى يناقش لي بعض دروسي الصعبة عندما كنت أطلب منه هذا، كان شابا جيدا وملتدنا. تلك الحجرة

التي كان يسكن بها لا تزال فارغة بالمنزل الأصفر، وتسكن "سماح" الغرفة المقابلة لها، ذلك التقسيم نفسه كان بالأسفل أيضا. كانت هناك غرفتان متقابلتان، إحداها استأجرها (منجد أفرنكي) ليجعلها مخزناً. والأخرى أيضا فارغة.

مدخل المنزل ليس به بلاط، وكأن الشارع قد اتخذ انحرافا إلى الداخل. كأنه مدق من الطريق نفسه. إنه المنزل الوحيد الذي أعرفه في حياتي كلها الذي لا تكسو أرضيته البلاط. حتى إنني أعرف منازل أقدم من ذلك المنزل وكانت بأرضيته بلاط أيضا. حتى إن عم عرابي الحداد، وقد كان أحد السكان القدامى قبل الزلزال أيضا، عندما كان يغرق الشارع بالمياه، كان يغرق مدخل المنزل معه أيضا.. على أنه كان هابطا إلى الأرض وستصل إليه المياه وحدها، وهذا ما كان يجعل لذلك المنزل رائحة غريبة كلما دخلت إليه.. ربما هي بفعل تلك المياه الراكدة في مدخله دائما. ثم أبتسم بعدما تذكرت عم عرابي وأجديني أقول بداخلي: ترى أين هي أراضيكم الآن يا عم عرابي!

لم أكد أصل إلى الحارة التي يحتل ناصيتها البيت الأصفر، حتى كانت الشرفة تفتح، وتظهر "سماح" وهي تسحب من فوق الأحبال منشفة، وتعود في سرعة إلى الداخل مغلقة النافذة خلفها. أسمع صوت النافذة فقط وهي تنغلق، بعدما أشحت بنظري قبل أن تلتقط نظراتي إلى نافذتها، لا أعلم إن كانت ستفهم إنني أنظر إلى الشرفة أم أنظر إليها.

أهي حقا جميلة كما يقول الناس من حولي، أم أن تلك ليست سوى مبالغة فقط. في مكنون نفسي أعلم السبب ولكنني لا أريد أن أطرحه على عقلي، هناك شيء بداخلي لا أريد أن أتقبله، على أن الفكرة حينما تخطر على بالي من بعيد، قبل أن أطردها من خاطري، أشعر أن عقلي يرجحها أكثر من أية فكرة أخرى، لكنني لم أخبر بها سرور حينما سألني ذات مرة. إنني أشعر أحيانا أن هؤلاء يتحدثون عن تلك المرأة كثيرا،

ويقولون عنها إنها جميلة وكذا.. لأن تلك المرأة لا تملك زوجا له هيبة بينهم. إن استخفافهم به هو ما يجعلهم يشعرون بأنها سهلة. على أنني أنا نفسي كنت أشعر عندما كنت مراهقا أنني أحبها وكنت أحلم بها، ولكن هذا لم يمنع أنها سهلة. سهلة في كل شيء.

أن يحاول بعضهم أن يشاغلها، أو يرمي أحدهم بكلمات غزل وهي تمر من أمامه، وأحيانا تكون كلمات غزل قبيحة. غيرهم يفضل تلك النظرات الجائعة، والتي تنضح بشهوة العين، والجدس. هناك أيضا من يحاول إظهار صورة الطيب المحترم، الذي لا تخشى امرأة مثلها أن تتحدث معه. وهذا هو أخطرهم، فهو ليس محترماً إلا لكي يتحدث مع النساء، وليس حسنا إلا لكي تطمئن له النساء. وهؤلاء ما أكثرهم تلك الأيام! تجرأ كل هؤلاء فقط لأن فعلتهم سوف تمر.. كل الأمور سوف تمر، من سيقف لهم مانعا هذا مثلا.. هذا "الطويل الأهل"؟!

تلك تصرفات الناس، وهي ليست بغريبة، ولكن ما أتعجب منه حقا هو تصرف "سماح". التي لم أشاهدها أبدا تطاوع أحدهم أو تعطي أحدهم سببا لكي يتهادى، وتبدو كمن اكتفت بذلك "الأشرف" إلى الأبد. هي حقا سيدة شريفة، كما أراها أنا، ولكنها مع ذلك لم تنج من الألسنة، إنني أسمع عنها كثيرا، ومن رجال كثير.. حتى إنني سمعت جمعة يقول ذات يوم إنها تشاغله من نافذة غرفتها، وأنها أحيانا تتعري له من داخل الشرفة التي تجعل بابها مائلا حتى لا يراها سواه. لكن هل عليّ أن أصدق جمعة؟! أم عليّ أن أصدق كل ما يقوله معظم شباب الحارة عنها؟! أبتمس وأقول لنفسي: بالطبع لا.. معظمهم لديه خيلة خصبة بعد تجرع المخدرات، والتي تنحصر فقط في إظهار رجولته وسرد القصص عن مدى قوتها.

أسفل شرفة "سماح"، هناك منزل آخر من صناديق المياه الغازية الفارغة. شيدته عم "سرور" الذي يمسك بيده خرطومًا ويغرق الشارع بالمياه كالعادة. ذلك الرجل

الملعون، لقد استأجر الخانوت القديم الذي كان يملكه عم عرابي الحداد، ووضع به بعض ثلاثيات المياه الغازية، وغزا الشارع بكمية رهيبة من تلك الصناديق التي لم تترك جدًّا بالحارة لم تصطف أمامه كأنها حائط صد وضع أمام خندق. ماذا يفعل عم "سرور" بتلك الصناديق أو تلك الزجاجات الفارغة بداخلها؟ أنا لا أعرف، كل ما أعرفه أن ذلك الرجل في الأساس عرجي، ولديه كثيرٌ من عربات الكرو، وبعض الخيول المنتهية الصلاحية، لكنه صديق جيد بالنسبة لي، أحب الخروج من المنطقة مع هذا الرجل، والسهر معه.. إن لديه ذوق عجيب في السهر. أما عن عمله، فكنت أشاهد بعضًا يستخدمه دائماً في رفع الهدم والأحجار من المنازل القديمة التي يتم هدمها، ولكن فجأة بعد الزلزال احتل عم "سرور" الشارع، وفي المساء من كل يوم يخرج أمام المحل تلفاز ضخّم يضع فوقه جهازاً آخر للفيديو، ويبدأ عرض أحد الأفلام الهندية التي يميل لها الشباب الصغير، وتستهوهم مشاهدتها -أميتابتشان ودارمن دار، وميسون شاكور-. تهتف على بالي أسماؤهم ولكني لا أدري مدى صحتها، ولكني أسمعها هكذا من هؤلاء الأولاد. ويبدأ "سرور" ببيع الشاي والقهوة وحمص الشام في الشتاء، واللب والسوداني في الصيف، ودائماً ما يكون هناك ترمس ولا يفوته المياه الغازية بالطبع. كل ما يسلي هؤلاء الأولاد وهم يشاهدون الأفلام، يستطيع عم "سرور" بيعه لهم. حتى أصبح جميع شباب المنطقة تقريباً مدينون لعم "سرور" بمبلغ من المال. أظفر مرة أخرى لأطرد الألم الذي أشعر به، وأطرد أيضاً عم "سرور" معه قائلاً لنفسه:

- الله يسهل لعبيده.

من ثم أرفع صوتي:

- أهلاً يا عم سرور.

- عم؟! أنت هو العم يا عم الناس.. أين أنت يا رجل، لم تعد تمر بي طوال إجازتك، ولو حتى ساعة تسأل خلالها عن صديقك؟
- إنني متعب، سوف نتحدث فيما بعد.
- لماذا أغلقتها في وجهي هكذا يا عمنا.. إنني فقط أطمئن عليك.
- متعب يا رجل ليس إلا.. سوف نلتقي بعد أن أرتاح قليلا ونتحدث.
- أمام منزلي كان عم حسين يضع فوق "الدراجة النصر" (صواني الحلويات) التي صنعها في حجرته بالمنزل المقابل، وطاسة سوداء كبيرة تلونت بفعل النيران النيئة "لوابور الجاز ذو الشرائط". الذي يقيده الآن بحمالة حديدية خلف الدراجة. مع بعض من زجاجات الزيت قد وجدت لها مكاناً فوق الدراجة أيضاً، إنها بطريقة ما أصبحت تستوعب كل ما يحتاجه عم حسين. إنها عشرة السنين بينهما ما جعلتهم متفاهمين إلى هذه الدرجة.
- أقول في أثناء مروري أمام الدراجة بالتحية المعروفة:
- مرحبا عم حسين.
- يجيب حسين دون أن ينظر من الذي يحيه لانشغاله بتثبيت معداته:
- تفضل.
- كما لو كنت أعلم ماذا سيقول الرجل مسبقا فلم أعطِ بالا، وكنت قد عبرت المدخل نحو منزلي بالفعل. لأختفي خلفه فلا يعلم أبدا عم حسين من كان يسلم عليه عندما بحث قليلا بعينه.

سماح

يتساءل جميع الناس لماذا تظهر ملامح الزمن على الرجل أولاً؟ ولكن أنا لم أعترف يوماً بهذا. ليس تمرّداً مني، أو محاولة لقلب الحقائق، وإنما حقيقة الحياة التي أعيشها في هذا المنزل العتيق. حيث أحتاج يوماً إلى التوغل داخل أعماق منطقة المقابر يوماً ما يقارب الست مرات حيث صنبور المياه العمومي، وأعود من هناك وأنا أحمل فوق رأسي قدرًا به أربعون لتراً من الماء، يُسكب منهم فوق رأسي وملابسي ما يقارب الثلاثة لتر مع كل مرة. حتى أكفي حاجة منزلي اليومية من المياه، ومن ثم أذهب إلى السوق لإحضار الطعام، وأطيبه، وأرعى طفلي الرضيعة في أثناء الاعتناء بتلك الحجرة التي نعيش بها كامل حياتنا، من نوم وجلوس وطبخ. كيف لا تجعل هذه الحياة الطريق إلى الكهولة أسرع، وكيف لا يمضي العمر دون أن أشعر به.. لقد مرت ثلاث سنوات على زواجي، ولا أدري ما الذي تغير.

"هيا يا سماح.. سيقتلني الجوع".

وسط صقيع وقسوة العالم والحياة على الجميع، وعلى الرغم من هذا الشتاء البارد على غير العادة هذا العام، إلا أن المكان الدافئ المريح الذي أستمتع به إلى درجة نسيان همومي ونفسي.. كان "الحمام". أجمل شيء في ذلك المنزل القديم "تصميمه القديم"، وقتما كانت الناس تحيا في وسع ورخاء، وقد صمم له غرفة كبيرة ربما تساوي مساحة الغرفة التي أعيش أنا بها، على هيئة "حمام"، أو مكان للاستحمام فقط.. لا يصلح لاستعماله بأي غرض آخر. عندما أقمت في ذلك المنزل كانت تلك الحجرة كما المغارة المهجورة التي يسكنها المطاردون والخارجون عن القانون. لكنني

استطعت أن أجعل منها أجمل مكان بالمنزل، كما أنني لم أسعَ لتكوين بعض الأسلاك والمصابيح لكي أضيئها عندما علمت أن الكهرباء لا تصل إليها، بل إنني أخذت أضيئها بالشمع الذي كنت أشتريه له برائحة الورد، لتختلط رائحته برائحة المسك والياسمين النافذة من أعواد البخور المرشقة بالجدران من حولي. مما كان يساعدني على الاسترخاء ونسيان الهموم. أملاً تلك الغرفة بالبخار الناتج عن الماء الساخن حتى تكاد تضيق بداخلها الرؤية وتنطفئ نيران الشموع، وتنقطع الأنفاس. لكن الشيء السيئ الوحيد في هذا الأمر هو أنني أقوم بمغامرة كبيرة جداً عندما أعبّر من أمام تلك الغرفة التي تقابل غرفتي مباشرة في وسط هذا الظلام، وإلى أن أصل إلى الحمام. لقد تذكرت تلك اللحظات التي تسمرت بها أمام تلك الغرفة المظلمة، والتي تظهر من تلك الفتحة الصغيرة التي تكشف الغرفة من باب ليس مغلقاً بشكل تام. كان يظهر لي الظلام أكثر سواداً وظلمة، لدرجة أنني شعرت كما لو أنني أرتجف، وأن جسدي خالٍ من أي دماء، لدرجة أنه اقترب من التجمد. تلك الأفكار التي تجعل الخوف يتسلل إلى قلبي. أُنْتَبِهْ إلى نفسي، ومن أنني في الحمام وليس أمام الغرفة، وأستدرك ما كنت أفعل من صب الماء فوق رأسي، وأنا أسْمِي الله في همس داخلي، وأتذكر كلمات أُمِّي عن الحمام وما به من شرور دفينَة فيرتجف جسدي الصغير، فتلك الأماكن تجعل الشيطان نفسه يُخْتَبِئ بداخلها، فلفظت بكلمة دستور، وعدت أهمس باسم الله في نفسي.

يتكرر النداء وقد كنت أسمع كما لو في حلم:

هيا "سمّاح" .. أنا جوعان.

أسمع صوت "أشرف" زوجي في أثناء تواجدي بتلك الغرفة القديمة التي تضئها الشموع على استحياء، وأزيد من سرعة يدي وهي تدلك جسدي بلقافة متكورة مصنوعة من شعيرات القش، وأمسك بها كعش عصفور مستدير. على أن

هذا ما لم أكن أتمناه من داخلي. كنت قد خططت قبل الاستحمام لأخذ حمام طويل بدون مقاطعة أحد، وأن أستمتع بحرارة المياه قدر الإمكان في ذلك الشتاء القوي من هذا العام. لكن أمنياتي قد تلاشت مع تلك الأبخرة الكثيفة التي تملأ الحمام من حولي. وتلك النداءات المتتابعة من الخارج.

يتطرق إلى مسامعي أصوات متداخلة وجميعها تصيح، وأنفهم أنها معركة أخرى سوف تدور في الحارة، ويطلقون عليها اسم "خناقة" وتلك هي الخناقة الثالثة في هذا اليوم التي أسمع بها. لا أفهم لماذا يهتم أهل المنطقة بخناق بعضهم بعضًا كما يهتمون بالطعام والشراب. إنهم يتعاركون على أنفه الأسباب، ويتصالحون قبل أن تنتهي المعركة، لماذا لا يوفرون أصواتهم ومجهودهم العظيم في نزاع من يحول بين الطرفين. وتسديد بعض اللكمات في الهواء أو في الوجه.

تنقطع أفكاري مرة أخرى وأنا أسمع بكاء طفل صغير، إنها هالة. ابنتي الجميلة ذات العامين. تلك الفتاة المسكينة. إنها أجمل شيء في حياتي، وأتحمل من أجلها كل شيء، ولذلك فهذه المرة ألقيت من يدي "الليفة" وألقيت بعض المياه على عجل فوق جسدي الذي أخذت مفاته تهتز وأنا أعدو نحو المنشفة التي وضعتها معلقة خلف الباب المغلق القديم قبل الاستحمام، والذي كانت له ضبة خشبية قديمة لدرجة أنها ربما عاصرت عهد الممالك؛ وهي الشيء الوحيد بالباب الذي يحتفظ بهيئته كاملة. أخذت أمر المنشفة فوق جسدي على عجل حتى إنه لم يحف نصفه على الأكثر، عندما كانت تدثرن بعض تيارات الهواء العابرة من بين فتحات وتصدعات الباب المهترئ. ثم ارتديت ملابسني وأنا أفتح الباب فتزلق الملابس فوق جسدي الذي زادت من نعومته تلك "الليفة"، وأعدو نحو الغرفة داعية الله ألا يراني أحد في تلك الساحة الخارجية الكبيرة ذات النافذة الكبيرة المفتوحة. التي كانت يوما ما ردهة كبيرة. لقد كان الطابق بالكامل في الأساس شقة سكنية واحدة، وكانت

تلك البقعة الفسيحة هي صالة الشقة، ولكن المالك قسمها إلى عدة غرف. وهذا مساحة الغرف الكبيرة وعرضها على حالها هذا للإيجار، ولقد استأجرها الناس بالفعل، حتى إن البيت ليس خالياً وهو عرضة للسقوط بين لحظة والثانية.

أدفع باب الغرفة بقوة وأتجه نحو زوجي الذي كان جالسا فوق وسادة بالأرض ومتكئاً بظهره على الجدار ذو اللون الأزرق الجيري، ويحمل ابنته بين يديه، ولكن هالة لم تكن لتكتفي بذلك، فهي بحاجة للطعام مثلما هي بحاجة إلى الدلال. لذلك فقد أخذت تنظر إلى والدتها بعيون تملؤها البراءة والسحر. وهي تبكي وكأنها تشكو شيئاً ما تفهمه الأم جيداً. فقلت وأنا أمسك بها:

- تعالي يا قلبي.. لا.. لا تبكي يا روح ماما.

يقول أشرف وأنا أدفع بصدري داخل فم الطفلة، التي التقطته على الفور وأخذت تعتصره بين يديها وفمها في نهم:

- ألم تنو على فطام هذه الطفلة أبداً؟

- لم العجلة.. اترك الطفلة تشبع من صدر أمها، ليس لدي سبب يجعلني أحرمها.

- ليس حرماناً يا عاقلة.. ولكن كل شيء يزيد عن الحدود ينقلب بالضد.

- ولماذا يزيد عن الحدود.. الطفلة لم تتم العام الثاني بعد.. لا يزال هناك شهران، وسوف أطعمها حتى ينقضي.

- أنت حرة.. "نسوان" ناقصات عقل.

- ماذا بك أنت، ولماذا عدت مبكراً؟

- لا شيء.. أنا لم أذهب اليوم إلى العمل.

- أين كنت إذن؟

- ذهبت لأقضي بعض "المأموريات" المهمة، لقد أجلتها بسبب العمل كثيراً، ومن ثم عدت.

- أعلم أنك جائع.. بضع دقائق أخرى فقط من أجل حبيبتي هالة، ومن ثم يكون الطعام حاضرا.

- من أجل خاطر هالة فقط.

لا بأس من بعض الدلال في نبرتي معه، أنا أعرف كم هو جائع. هذا الرجل لم يأكل خارج المنزل ولو مرة واحدة منذ أن تزوجنا، وحتى عندما تضطره الظروف كان يأخذ معه بعض الطعام من المنزل. هذا اليوم، صباحا شعرت به وقد كان متعجلا على الرغم من أنه كان مبكرا عن الموعد الذي اعتدت أنه يستيقظ به. لكنه مع ذلك كان يرتدي ملابسه وكأن أحد الأشباح سوف يمسك به. وحتى وهو يعدو نحو الباب اهتزت الأرضية أسفل قدمه، حتى إن السرير تراقص بنا وأنا فوقه مع ابنتي، لذلك هو لم يأخذ طعاما أو شيئا من المنزل قبل أن يذهب. وأنا على يقين تام أنه لم يجرب حتى شيئا من خارج البيت. إنها إحدى الخصال الحميدة التي أحبها أنا به. إنه على كل حال رجل طيب، ولديه كثير من الصفات الحميدة. حتى إن تلك الطيبة لديه تصبح أحيانا ضعفا، والضعف كثيرا ما يضيع حقوقنا بين الناس. لكنني مع ذلك أحب تلك الطيبة فيه.

عندما كنت فتاة صغيرة كانت لدي أحلام برجل آخر، ليس له أية صلة بهذا الرجل لا من بعيد ولا من قريب. لقد كنت أحلم بشاب أبيض ذو ملامح وسمية، ويملك جاذبية، كما ذلك الفتى "مديح" جارنا، ابن تلك السيدة أم "مديح" كما عُرفت في الحارة بهذا الاسم، ولا اسم سواه، وتزوجت من بائع الخضار؛ ذلك في العام قبل الماضي. "هل يترك أحد ذلك الشاب ويذهب إلى منزل آخر؟ إن كنت أنا والدته لظلمت إلى جواره لأتطلع بوجهه فقط. نساء ناقصات عقل حقا كما يقول أشرف."، أقولها لنفسي دون أن أدري ذلك وأنا أؤنب نفسي من بعد على أفكارى الشيطانية التي تحتل عقلي عنوة، وأنا لا أريد أن أفكر في رجل آخر مهما كان، أنا حقا

أحترم "أشرف" ولم أفعل أبدا أن نظرت في وجه آخر وأنا أفضله عليه، ولن أفعل ذلك مهما طال بي الزمن أو ضاق بي الحال. ثم أهمس لنفسي قائلة: "لكن ذلك الولد ملفتٌ حقاً، ولا يعجبه أحد ابن اللذين. إنه لا ينظر لي حتى عندما يراني. تقريباً هو الرجل الوحيد الذي لا يفعل ذلك". على أنني واقعة في حبه منذ أن كان طفلاً ذو تسع سنوات فقط، وكنت أكبره بما يقارب الثلاث سنوات أو أكثر قليلاً، ومع ذلك لم يمنعني هذا من أن أسقط في غرامه.

أضع الفتاة بجواري على تلك الأريكة البلدي ذات الوسائد القطنية نصف المستديرة، وأتجه نحو زاوية بالحجرة بها وابور جاز وبعض الأواني المعدنية والبلابستيكية. أضع قدراً فوق الوابور الذي كان مشتعلًا مسبقاً للتدفئة، وأنا فقط لم أفعل له سوى أنني حركت ذراعاً صغيراً بجانبه وكبسته داخله عدة مرات فتوهجت نيرانه وانتفضت.

لم تمض سوى دقائق وكان أمام "أشرف" عدة صحون بها طعام انتهى رائحته قبل أن يذوقه بلسانه، وبالأخص ذلك الطاجن الفخاري الذي يحوي "البامية" التي يعشقها مع نصف كيلو من اللحم الذي أحضره بنفسه بالأمس وهو قادم من العمل، وبالطبع أرسلته أنا لكي يطيب في الفرن "الأفرنكي" القريب في الوسعاية الخارجية كالعادة، فقال وهو يحرك لعبه:

سلمت يدالكِ.. أتعلمين.. تقريباً لم أذهب اليوم إلى العمل من كثرة التفكير في هذه اللحظة.

أبتسم له وأنا أمضغ لقمة من الخبز مغمسة بالبامية وأقذف خلفها بقطعة من الجزر المخلل. لكم كنت أحب هذه اللحظات الحميمة، كم أشعر معها بدفء الوابور يملأ الحجرة، وحب زوجي يحيط بي، وباب حجرتنا مغلق علينا ويحجب عنا شر كل من خارجه، وبالأخص تلك الحجرة المخيفة التي تقابل باب غرفتي، باب

حجرتها مباشرة. كل هذه الأشياء كانت من أولويات أحلامي، حتى إنني كنت من أجلها أتغاضى عن هيئة أو وسامة ذلك العريس المنتظر. لذلك فأنا أحب "أشرف" كجزء من هذا العالم الذي أحبه ككل. إنه أمني واستقراري.

هو ليس سوى حارس أمن على بوابة أحد البنوك الفخمة بالزمالك، وأنا أعرف أن لا مستقبل له، وربما لن يصبح شيئاً أفضل من ذلك مهما مر الزمن، ولكني راضية عن تلك الحياة مع ذلك، ولا أريد سوى أن أربي هالة في جو جيد، وأن أعلمها تعليماً جيداً حتى تكون أفضل مني، وتحظى بفرصة أفضل مما حصلت أنا عليها، ولكن مع ذلك، أنا أبغض تلك الخصلة في زوجي، هو لا يملك أية معلومة عن ذلك الشيء المسمى "الطموح". لقد دفعته كثيراً لكي يتحرك ويبحث عن عمل جيد، ويجني من خلفه أموالاً أفضل، ولو قليلاً. ولكنه كان دائماً رافضاً تلك الفكرة. حتى سئمت الحديث عن الأمر معه. لقد كانت والدتي على حق في تلك النقطة، عندما تقدم لخطبتي منذ ثلاث سنوات، ولقد نصحتني والدتي أن أتروى قليلاً ولا أتعجل الزواج، وأن "أشرف" ليس الرجل المناسب لي، وأن مستقبله يكاد يكون منعدماً، وهو ليس من هؤلاء الرجال الذين يسعون خلف هدف أو ثروة. لكنني مع ذلك استطعت أن أجعل "أشرف" يتحرك في هذا الاتجاه من أجلي، وأقنعت منذ ما يقرب من العام بأن يعمل مع بعض أصدقائه "نقاشاً"، وما يأتي من هنا على ما يأتي من هنا أدبر أنا به شؤون الحياة، وأبذل أقصى جهدي في أن أستطيع الادخار من هذه الأموال القليلة لكي أؤمن به مصاريف دراسة ابنتي. أنا أعلم أن تلك الفتاة ستزيد مصروفاتها كلما سيزيد عمرها. لقد ادخرت إلى الآن ما يقارب الثلاثمائة جنيهها. فتدفعني الأفكار لأن أسأله:

- هل تحدثت إلى أسامة؟

- لقد مر هو بالأمس عليّ عندما كنت بالمقهى.

- هل هناك عمل قريب؟
- بالفعل.. سوف أبدأ معه بعد الغد.
- ربك كريم.
- يشيح لي بوجهه وهو يغرس قطعة كبيرة من الخبز داخل طاجن البامية. فأقول
أنا وقد تذكرت هذا الشيء:
- لكن لم تقل لي ما تلك المأموريات المتأخرة التي ذهبت إليها اليوم؟
- بعض الأشياء التابعة للعمل.
- أندھش وأسأل:
- العمل؟! كنت تقول إن العمل هو من عطلك عنها، إن كانت للعمل فلم لم يتركوا لك
بعض الوقت دون أن يعطوك عطلة مدفوعة من مرتبك.
- لا لا.. لن يخصصوا شيئاً.. إنها كما تقولين، هم من أعطوني العطلة لكي أنجز تلك
الأشياء التي كانت تستحق يوماً وليس بضعة ساعات.
- يبدو كمن يسايرني في الحديث فقط، حتى لا أطيل في الأسئلة عن الأمر، فأومئ
متفهمة، لقد اطمأننت الآن، ولكن قلبي لسبب ما لم يطمئن، وأنا لا أعرف إن كان
هذا الشعور هو إحساس بالقلق، أم أنه إحساس بشؤم قادم. حتى إنني لا أعتقد في
تلك الأشياء كالشؤم والتفاؤل. لكن أحياناً يجبرني الإحساس على ذلك.. حتى وإن
كان على عكس رغبتني.

الباب نصف مفتوح، يحتل جسدي الجزء المفتوح منه وأنا أتحدث إلى "أشرف" الذي أصبح عند السلم في آخر الصالة الواسعة، وأزيد من صوتي على أمل وأنا أقول:

يا بني انتظر..

يقاطعني على الفور دون أن يتوقف وهو يقول:

لا يا سيدتي إنه "مندو" .. أنا لن أتركه اليوم.

أقول في نفسي، هذا ما أخشاه.. إنه "مندو"، ولقد كان "مندو" صديقه الذي يلتقي به ليلعبا معا الدومينو على المقهى، وبالأمس فقط ربح "مندو" وخسر "أشرف" ما يقرب من العشرين جنيها ثمننا لمشروبات المشاهدين. حتى وإن ربح "أشرف" اليوم فماذا سأربح أنا، هل ستعود لي العشرون جنيها مرة أخرى، بالطبع لا. كل ما هنالك أن "مندو" سوف يدفع ثمن مشروبات أخرى قد شررها المتفرجون أيضا. ربما أربح أنا أن ينام "أشرف" وهو سعيد فقط.

لن أترك الفرصة لعقلي لكي يكبر لي الموضوع أكثر من ذلك، وأنا أقنع نفسي بأن ذلك هو الشيء الوحيد المسلي الذي يحصل عليه الرجل في تلك الحياة التي نحياها.

أهم لكي أغلق الباب لولا أن بصري تعلق بتلك الحجرة المقابلة لي، والتي كان بابها مفتوحا على الدوام، فتحة صغيرة لم يستطع أحدهم غلقها، وهي فارغة، وخالية من كل شيء عدا بعض الكراكيب المدفونة أسفل الأتربة. كانت تلك الغرفة تثير في نفسي الخوف، وبالأخص حينما أكون بمفردي، وأنا أتذكر جيدا الأيام التي كان "أشرف" يبيت فيها بالعمل. وبالأخص حينما كنت عروسًا جديدة. كنت أبيت ليالٍ طوال جالسة فوق الفراش أحتضن ركبتي بين ذراعي وصدري وأنا أرتعد. لا أعلم لماذا تلك الغرفة بالمنزل المكون من طابق أرضي، به غرفتان وطابق علوي له، لا

يسكنها سوى غرفة بالأسفل كمخزن وغرفتنا كمسكن. على أن تلك الحجرة الخالية، مساحتها أكبر من غرفتي التي على ما أتصور قد قطعت من مساحتها، مساحة دورة المياه وذلك الحمام الكبير، أما تلك الغرفة على الجهة الأخرى فهي تأخذ مساحة المنزل بالكامل.

أغلق الباب وأعود نحو الداخل لأجد هالة في سبات عميق وملاصحتها الملائكية تبسم. فأبتسم أنا أيضا وأذهب نحو النافذة التي هي وسيلة تسلتي الوحيدة في تلك الساعة التي لا يكون بها شيء في التلفاز، لقد شاهدت مسلسل القناة الأولى الذي يعرض الساعة السابعة، وليس هناك الآن سوى نشرة أخبار الساعة التاسعة، وبرنامج حوار على القناة الثالثة عن الزراعة، والمسلسل الأجنبي على القناة الثانية، ولكن بعد قليل ستعرض القناة الثالثة مسلسلاً قديماً أحب أن أتابعه معها كانت عدد مرات مشاهدتي له. لذلك فلقد اعتدت أن أطلع من نافذة الغرفة في ذلك التوقيت، فتمر صديقتي (فلانة) فتلقي عليّ السلام، وربما توقفت قليلاً أمام النافذة لتقول لي كلمتين فيفتح موضوع يضيع معه ربع ساعة من تلك الساعة، أو ربما يتطرق بيننا الحديث إلى ضياع نصف ساعة.. حتى إن البنت نجلاء صديقتي قد وقفت ذات مرة تحكي لي عن "خناقة" في شارعهم حتى ضاع من المسلسل ما يقرب من العشر دقائق دون أن أدري.

عندما أفتح النافذة لا أجد سوى عم "سرور" العربي. يهم بتجهيز معداته لكي يحول الوسعاية إلى دار سينما خصوصي. يساعده في ذلك بعض الصغار الذين يحرصون على أن يساعده في كل يوم لكي يتركهم يشاهدوا أفلامه دون أن يدفعوا نقوداً بالمقابل، وهو يستخدمهم كما يريد طوال الوقت فيما بعد، فإن نفذ منه الشاي أرسل أحدهم وإن نفذ منه السكر أرسل آخرًا، وهكذا. أشاهد "سرور" يستدعي

أحد الصغار وفي يده مظروف، على ما يبدو أنه قد تلقى خطاباً ويريد من الصغير أن يقرأه له، فهو لا يعرف القراءة أو الكتابة.

يقول الصبي وهو يمسك المکتوب مطالعاً ما به:

ويقول لك أن تأتي على الفور.. إن الأمر هاماً.

لكن "سرور" يشيح بيده ويعود إلى ما كان يفعله غير مبالياً. فأتطرق بنظري إلى باقي الحارة.

ليس هناك كثيرٌ من المارة، لقد كان بالطقس لفحة باردة تكاد تكون موجهة للعظام، لا أعرف لماذا أصر زوجي العجيب على الذهاب إلى المقهى في تلك الليلة الباردة. ماذا بها تلك اللعبة حتى تصبح إدماناً هكذا. ليفضل مجالستها على مجالسة زوجته الجميلة.

تمر من بعيد تلك الفتاة سميحة ابنة بائع الكباب والكفتة، لقد اشترى والدها منزلاً بجوارهم في الوسعاية بعد أن كان يسكن شقة إيجار، يقولون إن صاحب العمارة أعطاه مبلغاً لكي يخليها له، فأكمل عليه تحويشة العمر واشترى ذلك المنزل. فأهمس في نفسي: "والله برافو عليه. استطاع أن يؤمن مستقبل أبنائه، فتلك الفتاة لها أخ يساعد والده في الحانوت. ربنا يعطينا نحن أيضاً."، أقولها وأنا أكاد أخرج من ملابسني من كثرة الضيق. بالطبع لا أحسد "الكباب جي" ولكني فقط أتمنى أن ننال من الحظ بعضه، وأن يكتب لنا الله منزلاً ملك، يكون سكناً حقيقياً بديلاً لذلك المنزل المنهدم بالفعل منذ سنوات.

ألمح من بعيد، وأخيراً، تلك الفتاة "نجلاء"، فأقول بداخلي: ياما أنت كريم يا رب. "ثم انتظر اقتراب نجلاء وأقول عندما تصبح أمام النافذة:

بنت يا نجلاء.. هل تتصنعين عدم رؤيتي!

- كيف تقولين ذلك؟ هل مسك الجنون؟ لا.. أنا فقط لم أشعر أنني أمام منزلك، وإلا كنت نظرت نحو الشرفة على الفور، ولكن أنا شردت قليلا فلم أشعر أين أنا.
- ماذا بك يا بنت؟
- لا شيء. أحوالي جيدة لا تقلقي.
- حسنا.. لما لا تفضلين لبعض الوقت.
- لا أريد أن أتأخر..
- أقاطعها:
- لن تقول خالتي شيئا إذا علمت أنك مكثت لدي بعض الوقت، وسوف أرسل لها معك شيئا تحبه.
- كنت أقصد بذلك الشيء صحنًا صغيرًا من طاجن البامية الذي سأحرص على ألا تتسلل إليه أية قطعة من اللحم. وعلى ما يبدو أن الإغراء قد نال من نجلاء. فلقد شاهدتها تتجه نحو باب المنزل وتدلف إليه. فأغلق النافذة وأتحرك نحو الباب لكي أفتح لها.
- في أثناء السلام المصحوب بالقبلات والأحضان أعاتبها:
- أليس لي الحق أن تزوريني مرة دون أن أراك بالصدفة.. ليس هناك مرة واحدة تقولين فيها لنفسك سوف أذهب لزيارة صديقة عمري!
- معك الحق.. أنا أعلم أنني مقصرة جدا في حقك.. لكن ماذا أفعل؟ المشكلات تهطل فوق رأسي كالأمطار!
- ماذا هناك لقد أقلقنتني.
- لا شيء غير معتادٍ. مسعد خطيبي ومشكلاته مع أبي، وأكد وصل إليك خبر أن الولد "موزة" أخي قد قبض عليه.
- يا ساتر يا رب! متى حدث هذا؟ ولماذا؟

- مما يقارب الأسبوع يا أختي.. كان مع صديق له من "الحصري"، ويتجولون بسيارة كان يعتقد أنها سيارة صديقه ولكنه اتضح فيما بعد أن صديقه هذا قد سرقها.

تصنعت الحزن فهو لم ييغ الحضور، وأظن أن صديقتي سوف تكتشف أنني أدعي فقط بأنني حزينة، وتعلم أيضا أنني أعرف جيدا أن شقيقها لم يغرر به كما تقول، وتدعي، إنما هو مشاركٌ في سرقة تلك السيارة، إن لم يكن هو من سرقها وحده وصديقه هو المظلوم؛ فأنا في الأصل من الحصري وأعرف جيدا أن جميع سكان هذه المنطقة لا ينافسون شقيق نجلاء في البلطجة. فجميع سكان المنطقة يعلمون أن "موزة" هذا سارق سيارات. حتى إن تلك المرة ليست الأولى التي يُجس بها على ذمة قضية سرقة سيارات، ولكن ماذا أفعل عليّ أن أجمال صديقتي على كل حال. فأقول:

- أأوكلتم له محامٍ يا أختي أم لا؟

- كلمنا الأستاذ أحمد ابن خالتي روحية، وقال سوف يذهب إليه يوم السبت، أي بعد يومين.

ثم صمتت قليلا وعادت لتقول وكأنها تذكرت هذا الآن:

- أنت لا تعلمين من رأيت اليوم؟

- بالطبع لا. من؟

- "مديح"!

تتبدل ملاحني وأقول في عتب:

- ألم اقل لك ألا تتحدثي معي مرة أخرى في ذلك الأمر؟

- "يقطعني يا أختي".. لم أكن أقصد أقسم بالله. لقد تحدثت بعفوية، فلقد تذكرت شيئا غريب به، وهذا ما جعلني أقول لك.

دون أن أشعر أكرر في دهشة:

- شيء غريب؟!

- نعم يا حبيتي والله.. يبدو أنه تعارك مع أحدهم، لقد كان وجهه متورما كما لو تلقى لكمة من عنتر بن شداد بنفسه. حتى إن محجر عينيه ازرقَّ إثر التعرض للضرب.

- ماذا؟! تعارك، وضُرب أيضا؟!

كنت حقا مندهشة من الأمر فما أعرفه عن "مديح" أنه في حاله، ولا يتطرق إلى العراق وافتعال المشكلات كحال معظم سكان المنطقة، ويقول عنه جميع السكان أنه محترم حسن الخلق، ولا يقرب المخدرات على الإطلاق. إنه يعيش بمفرده ولم يرعه أحد، ولكنه احتفظ بمعدنه الأصيل، وخلقه الحسن، ولم يفسده المحيطين به مع أنه وعلى ما يعيش به من ظروف كان ذلك الشاب على الأقل الآن مع "موزة" شقيق نجلاء. كما لم أسمع أيضا أنه تعارك ذات يومٍ وعاد مضروبا أو مصابا، لقد كانوا يتحدثون عنه في تلك المعارك على أنه كان أكثرهم غشًا، وأقواهم ساعدا. لقد كانت ضرباته تكاد تكون مميتة؛ حتى إنهم جميعًا كانوا يتلاشون العراق معه، وبالأخص أنه ذات مرة قد ضرب امرأة تسكن هنا بجوار منزله، على أن هذا يعد بمثابة جريمة أخلاقية، ولا يرضى عن ذلك رجل ممن يسكنون بالمنطقة. لكنه لم يضع ذلك أمام عينيه حينما سمع سباب تلك المرأة بأمه. على ما يبدو أنه حساس كثيرا ناحية والدته، أو ربما هذا لأنها قد تزوجت برجل آخر وهو في هذا العمر، لكن هذه الحادثة كانت قبل زواجها. كما أن معظم أهل المنطقة يتحدثون أكثر ما يفعلون، فقد صمتوا جميعًا أمامه ولم يعاتبه أحد على ما فعل، ولكنهم اكتفوا بإثبات آرائهم تلك بينهم وبين بعضهم بعضا، في الخفاء.

- ترى مع من تعارك، ولماذا؟

بالطبع لم تكن الإجابة عند نجلاء، ولن تضيف شيئاً آخر حتى تعذرت بأن والدتها سوف تعنفها على التأخير، وذهبت على الفور وقد تركتني غارقة في التفكير، ومتناسية ذلك الشيء الذي وعدتها به. كانت تلك هي عادة تلك الفتاة، فهي تقريبا صديقتي الوحيدة حينها كنت لا أزال فتاة في منزل والدي، ولقد كنت أقص عليها في بعض الأحيان عن ذلك الشاب الذي يسكن تلك الحارة البعيدة، وكنت أصف لها كيف هو وسيم، "مديح". كيف أشاهده وكيف أتمنى أن أراه في أعلى الأماكن والمناصب التي كانت لتكون لائقة به وبمظهره الفريد. تلك الفتاة الملعونة ظلت تحتفظ بتلك الأشياء لتضايقني بها في بعض الأحيان، ولكنها لم تخرج سرّي على أية حال إلى أحد. إنها تسكن بالحصري، بجوار منزل والدي في منطقة مجاورة للمعزولة والتي أتيت لها فقط حينها تزوجت، وتلك الفتاة تعرف عائلة "أشرف" .. إنهم جيران أيضاً، وعلى أن "أشرف" بكل تلك الطيبة إلا أن له ثلاثة من الأشقاء من أشقى خلق الله، أقولها ومن ثم أراجع أفكاري: "لكنه لم يكن يوماً مثلهم. إنه رجل هادئ ولا يحب المشكلات". ربما خوف نجلاء من عائلة "أشرف" وكونها تعرف أنهم لن يصمتوا على شيء مثل هذا إذا تفوهت به هو ما يعقد لسانها حتى الآن.

لكن يا ترى مع من تعارك ومن ذلك الذي جعل من وجهه متورماً إلى هذا

الحد؟

مديح

أتألم وأنا ألقى بلفافة تبغ لم أنته من استنشاق نصفها بعد، نكهتها بغمي تشبه علقماً مصبوغاً بقطران، وأضع يدي فوق رأسي والأخرى فوق رسغي في محاولة لمحاصرة الألم الذي يدب ببطلة أذني. وأتجه نحو ثلاجة صغيرة خلف باب الحجرة مباشرة، حتى إن الباب لا يفتح على مصراعيه لأنه يصطدم بها، وأخرج من داخلها زنار الحبوب المسكنة التي كتبها لي الطبيب. ثم أتعاطى منها اثنتين معاً، كانتا أسفل اثنتين أخرتين؛ قد استخدمتهما من قبل. لقد قال لي الصيدلي أن جرعة المسكن يجب أن تزيد عن الست ساعات كفرق بين جرعة وأخرى، وحتى الآن، تجرعت أربعة حبوب في أقل من ساعتين. ولم يحدث أن تدنت حدة الألم. ثم تقفز فكرة إلى رأسي بلحظة كان الألم عني غافلاً فيها، فأقول لنفسي على الفور:

ليس هناك سواه.. إنه هو الحل ابن الفقيرة.

ثم أقطع إلى خزانة الملابس في صعوبة، فهناك ما يشبه انهدام أحد الأهرامات الثلاثة في رأسي، وتيار من الكهرباء يضرب عقلي بين لحظة وأخرى. وأرتدي "تي شيرت" أبيض فوق ملابسي الداخلية، التي اعتدت أن أجلس بها في المنزل، وأرتدي سروالي وأنا أعبر نحو الخارج، سوف أبحث عن "مندو" في كل مكان حتى أجده. من المؤكد أن هناك شيء في هذا "الهباب" الذي يتعاطونه تعود أصوله إلى فئة المسكنات. فكل ما يتعاطونه ليس سوى دواء في الأساس، بينما هو علاج للسعال أو للصرع أو..

مسكن للألم.

وأنا لا أحتاج سوى إلى هذا فقط. لذلك عليّ أن أجد "مندو" قبل أن يتسبب لي هذا الألم في أن يغشي عليّ.

سأبحث أولاً في الوسعاية الكبيرة، عند المقاهي، مؤكد سوف يكون هناك، وأين سيذهب من هناك؟ لم أكد أتم عبارتي حتى لمحته يقف هناك بجوار صنبور المياه العمومي الذي هو أهم ما يميز تلك الوسعاية الخارجية، لقد شيدت تلك المقاهي في هذا المكان بالذات عندما كان يجتمع بعض الشباب في الماضي لكي يشاهدون النساء وهي تملأ المياه من الصنبور العام لاستخدامهم اليومي، وعندما تبدأ المياه في الارتجاف مع خطواتهن، فتفيض ببعض ما بها من ماء فوق ملاسهن فتلتصق على أجسامهن الملابس؛ فيتشبع جياح البصيرة من النظر، وما أكثرهم، فتسبب تلك المشاهد في إشعال نيران الهوس الغرائزي بداخلهم دون جدوى. فكثر معها تواجد هؤلاء الرجال، مما دعي أصحاب العقول التجارية في استغلال هذا، وتشديد المقيهي الكبير عند ناصية الوسعاية وأخرى صغيرة على مقربة منها. إنها احدي القصص الذي سمعتها من القدماء عن سر نشأة المنطقة، وتلك الوسعاية الركزية التي تتوسطها، ولكن.. كان ذلك منذ زمن مضى بالطبع، أما الآن، فلقد وصلت المياه إلى ثلثي المنطقة في المنازل، وتخطى هؤلاء الشباب ثلثي عمرهم، ولكنها باقية. فاتجهت نحوه على الفور، وقبل أن أبلغه بعدة خطوات قلت:

- أهلاً "مندو"؟

- كيف حالك يا "معلم" .. أنا أموري جيدة؟

- أشعر أنني سوف أموت من التعب.

- ماذا هناك؟

- ضرسى ملتهب بشدة.. أحتاج إلى مسكن قوي للغاية، قلت إنه لن يخدمني في هذا الأمر سوى "مندو".

- تحت أمرك يا صديقي بالطبع.
- قالها "مندو" وهو يوجه بصره باتجاه حميدة طاهي الكباب، والذي كان يقف بجوار أبو طويلة "أشرف" ويتهامسون، وعلى ما يبدو أنهم بانتظاره. خمنت هذا.
- هل هناك مشكلة؟
- أقولها في وهن وتعب.
- لا لا أبداً، ولكن انتظري لحظة واحدة وسوف أعود إليك بالمسكن.
- تابعتة وهو يتجه إلى حميدة و"أشرف" ويتوقف متحدثاً إليهم، وكانت على وجوههم سعادة غامرة في أثناء حديثه، والذي لم أنفهمه هو كيف يكون مرتبكا وسعيداً في الوقت نفسه. أنا لم أشاهد "مندو" مرتبكا من قبل سوى مرات قليلة جداً. ويكون نهاية ارتبাকে مصيبة في أغلب الأوقات. ثم أتمنى الستر بداخلي فأنا لا أستطيع حتى أن أحمل نفسي على الانتظار.
- على الجانب الآخر ومقابل ذلك الصنبور عمّ رفعت العطار، الذي يستمع إلى أغاني حسن الأسمر ليلاً نهاراً، وبالأخص أغنية "كتاب حياتي يا عين"، إنها أكثر أغنية كئيبة سمعتها على مدار حياتي، حتى إنها تمسني من الداخل حتى أبكي معها أحياناً.
- بعد قليل عاد "مندو" ليجذبني من شرودي مع صوت حسن الأسمر، ويقول:
- آسف يا صديقي تأخرت عليك.
- لا يهم.. هل أحضرت المسكن.
- بالطبع.. أرسلت من يحضره على الفور، قبل حتى أن تكمل لفافة تبغ سوف نشرها سوياً
- قالها ومن ثم أخذ يوجه ذراعي ليسحبني باتجاه حانوت ربيع الحلاق لنقف معا بجواره. ويخرج من جيبه علبة سجائر حمراء، ويخرج منها تبغاً فرّغه من لفافة تبغ،

ووضع فوقه "الحشيش المخدر" بعد أن أصهره بقداحته، ومن ثم عبّأه داخل ورقة لفها ولصقها على الفور بلسانه ومدها إلى قائلاً:

- نور يا صديقي

- لا، لا أريد.. أنت تعلم أنا لا أشرب الحشيش.

- حتى في حالتك هذه؟

يسأل "مندو"، وهو يعيد مد السيجارة إليّ في إلحاح مرة أخرى:

- سوف يسكن أملك قليلاً حتى تأتي لك الحبوب المسكنة.

- إن كان سيفيد ما أنا فيه، فأنا على استعداد أن أشرب "مياه النار".

قلتها وأخرجت قداحة من جيب سروالي، وأشعلت السيجارة وأخذت أستنشق دخانها بقوة. ما لبثت أن مددت يدي إلى "مندو" بتلك السيجارة فتناولها الأخير من يدي. ثم أخذ ينفذ دخانها أيضاً. لم تكن كالتبغ، كانت أكثر مرارة وأكثر لهيباً في الحلق.

اشتد الألم عليّ حتى كدت أصرخ، كأن جرّاحاً قد غرس مشرطه في جوفي ومن ثم وضع ملحاً كيميّ، فلقد تسبّب لي دخان السيجارة في ألم رهيب في اللثة. مع ذلك فلقد تناولت السيجارة مرة أخرى من يد "مندو" عندما أعادها لي.

هذه المرة ألمني فمي بقوة وأنا أسحب دخان السيجارة من بين شفّتي، فأعدت إلى "مندو" السيجارة قائلاً:

- لا أريد يا "مندو"، سوف أنتظر ذلك المسكن فقط.. الجوع سوف يقتلني يا رجل، ولا أستطيع أن ألمس فمي حتى ولو بالطعام. إنني أترجّع الماء بصعوبة. فما بالك بالطعام.

- حالاً لن تشعر بشيء.

- أتمنى.

لم يتم عبارته حتى حضر "حوده"، عندما شاهدته هذه المرة لم أشعر بمقت تجاهه، بل إنني تذكرت كيف تهربت منه عندما كنت ذاهبا إلى الطبيب وابتسمت ساخرا من تلك الفعلة، وأنا أعاتب نفسي قائلا: "حوده ولد طيب والله"، كان صديقا مقربا لي جدا، قبل أن يبدأ في طحن الحبوب المخدرة واستنشاقها. ثم أسأل نفسي لماذا حدث لي هذا، لماذا تبدل شعوري فجأة هكذا من جهة "حوده" الآن؟ هل تبدل حوده؟ ثم أجيب: إن ما أشعر به ليس تجاه "حوده" من الأساس، وإنما هو متعلق بي أنا نفسي.. إنه أنا من لا يريد الشعور بالضيق. أو ربما هناك شيء سعيد بداخلي لا يريد أن يصل إليه أي شيء يزعجه، وأخشى على هذا الشيء السعيد كمن هو حريص على "تحوشة عمره". لا أريد أن يزعجه شيء أبدا. حتى التفكير في الطريقة المناسبة التي يجب أن أعامل بها "حوده".

أخذ "مندو" أربعة حبوب قصهم من زنار حبوب كامل وناولهم لي، وقال لي بأسلوبه المعتاد وهو يلوح بغمه مع كل حرف إلى جهة ما:

- بالسلامة أنت يا صديقي. بالشفاء يا "أبو الصحاب".
- انتظريا رجل.. كم حسابهم؟
- لأجل خاطرك أنت يا "شقيق" مائة جنيه فقط.. أبيع الحبة الواحدة بخمسون جنيها أقسم بالله، ولكن ذلك من أجل خاطرك أنت فقط والعشرة القديمة.. أنت من رائحة الغالي.

هل حقا سيكون "مندو" كريما لدرجة أن يترك لي مائة جنيه مرة واحدة؟ ويتحدث عنها كما لو كانت خمسون قرشا. ربما أصبح "مندو" كريما لهذه الدرجة، فأنا لم أكن متواجدا بالمنطقة لمدة سنة تقريبا، تلك التي قضيتها مؤخرا في الجيش، ولكن ربما لو كانت في حالة أخرى بخلاف تلك، لكنت تفهمت الأمر بشكل آخر، ولكني لا أستطيع أن أزن الأمور جيدا الآن، لأن ميزاني مائل اليوم نحو الطمأنينة

فقط.. هناك حفنة صغيرة أشعر أنها تتكاثر من السعادة في أحد الأركان بداخلي، أطاوعها في كل شيء، فمهما كان هذا الركن صغيرا أو عميقا، فأنا لا أريد التخلي عنه، بل أريد أن أتركه يكبر. لذلك فأنا سوف أقتنع بكون "مندو" قد أصبح رجلا صالحًا بحق. وأني أنا من لم يكن يعلم ذلك لأنني كنت غائبا عن المنطقة فقط. هذه الصيغة مناسبة لي الآن.

تركت مندو وحوده بجوار الصنبور العمومي، وتحركت على الفور نحو منزلي وأنا أطلع لنصف زنار الحبوب الذي أحمل، والأربع حبوب البيضاء بداخله، وعلى كل واحدة شيء يشبه الدائرة الصغيرة حفرت بالمنتصف. كانت أقدامي تعرف الطريق إلى المنزل جيدا على الرغم من أنني أشعر أنها لا تعمل بشكل جيد، ولا تطيع أوامري كما اعتدت عليها طوال الوقت. إلا أنني حينما استفتقت من شرودي في تلك الحبوب الأربع، أجد أنني أصبحت في الطريق الطويل الذي سينتهي بالوسعاية، ومن ثم أذهب إلى شقتي على الفور لكي أبتلع المسكن، وربما أستطيع أن أذوق من الطعام شيئا، ومن ثم أنام لكي أتخلص من ذلك الألم الذي ليس له علاج بعد. عند نهاية الشارع وفي أثناء انحرافي يسارا قليلا حتى أعبر ذلك الانحراف الضيق الذي تظهر من خلفه الوسعاية تباغتني "سماح" في الطريق نفسه، كانت تعبره في التوقيت نفسه، وباغتني أكثر كونها توقفت عن الحركة، وقالت بصوت مبحوح: كيف حالك يا "مديح".

وكان أحدا جذبني من أعماق نفسي لأعود إلى الواقع، ومن ثم أغوص أكثر داخل أعماقي، نحو ذلك المكان السعيد بالداخل، وقد طغت عليه طبقة أخرى، طبقة تشبه الذكرى، أو شيئا أكثر عمقا، إحساس كان غائما، ونائما، وبغته استيقظ بدون علامة أو إشارة، ولكن لا أدري لماذا تظهر عليّ مثل هذه الانفعالات أمام

سماح؟ فأعود مرة أخرى إلى الواقع وعلى وجهي ابتسامة تعوجت على أثرها ملامح وجهي من جراء التورم وقلت بصوت هادئ:

كيف حالك أنت يا ست أم هالة.

الحمد لله.. لا تؤاخذني؛ لقد أوقفتك هكذا بالطريق، ولكن "كفا الله الشر" عندما رأيت وجهك هكذا قلت لنفسي لم لا اطمئن عليك!

فيك الخير يا ست أم هالة.

قلتها وأنا أحاول ألا أترك طريقاً للدهشة فتتسلل منه إلى داخلي، فأنا معتاد على مثل هذا الفضول من سكان المنطقة، وبالأخص النساء منهم، حتى إن تلك الفكرة أيضاً لا أريد أن تعكر صفو داخلي. لكنني حقاً لم أعتد أن تتحدث لي تلك المرأة ولو لمرة بتلك الطريقة، إن عدد المرات التي تحدثت خلالها لي لا تتخطى الثلاث مرات، اثنتين منهم كانت تطلب مني أن ألقى لها "بمشبك الغسيل" الذي وقع منها في أثناء نشرها أو إعادة لم الغسيل مرة أخرى. لماذا كل هذا التغير بها، وتسأل عن صحتي أيضاً! على كل حال، ربما أضيفت إليها هي الأخرى بعض الصفات التي لا أعرفها.. ماذا حدث لتلك المنطقة، لقد تبدل حال سكانها جميعاً. لكن لماذا أشغل بالي بذلك الآن، إن "مندو" أصبح رجلاً صالحاً وهو أكثر أصدقائي أنانية وطموحاً. فلم استكثر على تلك المرأة أن تكون حنوناً هي الأخرى. علّها هي حنون بطبعها الذي لا أعرفه أنا في كل الأحوال.

فقلت بشكل هادئ بعد أن استغرقت بعض الوقت شاعراً بدقات قلبي تتسارع في التفكير:

بسيطة إن شاء الله يا ست أم هالة.. التهاب بسيط في الفك.

ثم ابتسمت وأنا أتلمس فكي واستطرد:

- لقد كسرت أحد الضروس جراء حجر صغير في الخبز في أثناء الطعام.
- لمحت بعض التبدل في ملامح وجهها، ولكني لم أفهمه ولم أكن أريد أن أحاول فهم شيء.. لكنني سمعتها تقول وكأنني لا أراها، وكنت بالفعل اكتشفت أنني أتحدث إليها بجفون نائمة فتقول:
- بركة أنني اطمأنت عليك.. ألا تحتاج شيئاً.. نحن إخوة.
- الله يخليك يا ست الكل.. طبعاً إخوة.

ثم التفت إليها وهي تمضي لكي أشاهد تلك المؤخرة الجميلة، وهي تدور حول نفسها مع خطواتها المميزة التي لم أشاهد امرأة أخرى لها خطوة مماثلة لها، وتتمايل معها مؤخرتها بهذه الطريقة. أستفيق وأنا أنبه نفسي بأن أحدا ربما يراني وأنا أطلع إلى المرأة بهذه الطريقة.. أنا بالطبع أحيانا كثيرة أطلع، وإلى كثير من النساء، ولكن بالطبع لا أترك أحدهم يشاهد ذلك فيقول عني إنني لست مُربّي، وتلك سمعة لا أحب أن تلتصق بي أبداً. فجميعهم يصفونني بالمهذب. على أنني قد شاهدت أغلب النساء التي تظهر نوافذهن لشرفتي، وهن في أوضاع شتى عندما كنت ألتصص عليهن ليلاً، كم كنت بارعاً فعلاً في هذا، كنت أ تسلل إلى شرفتي مغلقاً جميع الأضواء من حولي، ومن ثم أثبت فوق مقعدي بالشرفة بلا أدنى حركة، حتى أصبح شيئاً ثابتاً من ضمن المشهد الكوني الكامل، والثابت. فلا تلمحني إحداهن أو حتى يساورها الشك بأنني متواجداً. حتى أشاهدهن، دون أن تراني إحداهن مطلقاً. أبتسم في سخرية من نفسي، كم كنت لصاً متعفنًا في الرذيلة، والشهوة الزائلة.

أمضي في طريقي حتى أصعد إلى المنزل، وما أن أدلف من باب الشقة حتى أتوجه إلى الغرفة على الفور ومن خلف بابها أجذب باب الثلاجة كعادتي حينما أبحث عن الماء، ومن ثم أتذكر أننا في فصل الشتاء، وأتذكر أنني في تلك الأيام أضع زجاجة

المياه أعلى الثلاثية، وأجذبها بالفعل لأبتلع حبة واحدة من ذلك الزنار، ومن ثم يقول عقلي إن واحدة لن تأتي بمفعولها معي. فالتقط أخرى، وأبتلعها بجرعة ماء. بعد قليل من الوقت أشعر أن تلك النشوة بداخلي تزداد سعادة، وأن جسدي يحتاج إلى الاسترخاء، فأمد يدي بصعوبة لأخلع ملابسي ثم ألقي بجسدي فوق الفراش وأنا ألقي بكل طرف من أطرافي في اتجاه، ومن ثم نظرت يساري، فوجدت الوسادة ممددة بجواري، فعلمت أنني أستلقي بعرض الفراش وليس بطوله. لكنني لن أفعل شيئاً حيال ذلك وسأكتفي بأنني أعرف فقط.

سماح

بعد أن تحدثت إلى "مديح"، لم أكمل الشارع إلى نهايته، وتوقفت وأنا أظهار بأني قد نسيت شيئاً ما في المنزل. ثم عدت أدراجي مرة أخرى من الطريق نفسه. وأنا أؤنب نفسي تارة وأهدئ من روعها تارة أخرى، مجرد ضرس متورم حولته الناس إلى لكمة من عنتر بن شداد، ومعركة كبيرة غامضة يبحثون عن أسرارها. هكذا هو حال أهل تلك المنطقة الملعونة. هناك بركان من الغضب يتفجر داخلي لهذا التصرف الذي أقدمت عليه دون وعي مني. لا أفهم نفسي، أو لم فعلت؟ ولماذا كل هذا الشعور بالقلق تجاهه؟ لقد كان "مديح" بالنسبة لي مجرد شخص أحببته وحدي في داخلي وكان سري. لم أخبر به أحدا سوى بعض تلميحات بسيطة إلى صديقتي نجلاء التي تفهمت أصل الحكاية وحدها. على أن "مديح" نفسه لم يظهر عليه ولو مرة أنه انتبه لي حتى. على الرغم من شعور تخلل إليّ ذات مرة بأنه يحبني، لدرجة أنني كنت شبه متأكدة منه.

بعد أن وضعت ابنتي فوق الفراش، وانتزعت عني ثيابي، وبدلتها بأحد بجاماتي الحمراء التي اشتريتهم في شواري وقبل عرسي، وصعدت على السرير وأنا أفتح الشرفة وأجلس عند طرف الفراش، ومن ثم تطلعت إلى الشارع. عم "سرور"، قد بدأ يومه مع أفلامه التي تظل على وتيرة صوت واحد على مدار ساعتين، وهي أصوات بعض اللكمات والركلات التي تدب وكأنها طبلية، حتى إنني أصبت معها بالصداع. فأغلق النافذة مرة أخرى وأعود إلى الداخل لأنظر إلى ابنتي الغارقة في النوم، وأظفر في قوة وأنا أتذكر ذلك الموقف الذي أصبح حتى

التفكير.. مجرد التفكير به فقط سخيًّا.

كيف فعلت ذلك؟

إنها المرة الأولى التي أشعر فيها أنني قد انسقت لفعل شيء دون أن أدري كيف حدث هذا، ولا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال حتى. كل ما أتذكره كيف قلت لنفسني وقتها: وماذا في الأمر؟ كل ما هنالك أنني سوف أنتظر قليلا، وعندما أهبط إلى الشارع سيكون عائدا، وقد لمحته من قبل وهو يتجه نحو الوسعاية الكبيرة. وحددت أن احتمال أن أصادفه حين عودته سيكون كبيرا، وقد حدث هذا بالفعل بعد أن تراجعت عن الأمر أكثر من مرة، ولكنني في النهاية استقرت على أن الأمر ليس به شيء مشين. مجرد جار تشاهد وجهه متورما، فتسأله عن صحته ليس أكثر. ما الجرم في هذا؟!

لكنني وبعد أن فعلت، أشعر بألم فعلتي هذه قويا عليّ، أؤنب نفسي منذ تلك اللحظة، وأشعر من داخلي بغضب، لا أعرف كيف أعاقب نفسي حتى أخمد. ولا يزهد هو من تأنيبي وتعنيفي فيخمد وحده.

كنت بالأمس القريب تراوضني الأحلام به، وكانت اتجاهات تلك الأحلام جريئة جدا، حتى إنني تفاجأت وحاولت أن أمنع نفسي عن ذلك، حتى أصبح بعض تلك الأحلام ينتهي بكابوس كي أستفيق منه دون أن أكمله. كنت لا أريد أبدا أن أصبح خائنة لـ "أشرف"، حتى ولو في عقلي وأحلامي. لكن لم أستطيع أبدا السيطرة على ذلك الشرود الذي يأخذني إلى تلك الأحلام في وقت اليقظة. أتخيلها وكأنها حقيقة.. أعيش بها ثم أفيق على تلك الحقيقة التي تؤنب ضميري وتوقظ إحساس قاتل بالندم بداخلي. مع ذلك، هناك ما هو أكثر من الأحلام، وهو هذا الهوس به، والذي يحرك بي كل شيء ويسهله مهما كانت خطورته. إنه إحساس يمحو

كل العقبات أمامي من أجل الوصول إليه. هذا بالضبط ما حدث لي اليوم. إنني.. مريضة به..

تستيقظ هالة من جراء اهتزاز الأرض تحت الفراش، إنها الخطوة الثقيلة لـ"أشرف"، والتي أشعر بها معها. إن البيت الأصفر لن يحتملها وسيسقط بنا إلى أحضان الشارع ذات مرة. يفتح "أشرف" الباب عندما كنت أنا أتجه إلى حمل ابنتي وأخذها بين كفوف يدي ملقية بها إلى الهواء ومن ثم أتلقفها مرة أخرى بين كفوفي الحانية، وألقي عليها بعض الكلمات المكسرة، وابتسامات كثرت أنواعها وينضح من نظراتي لها حب ليس له نهاية أكنّه بداخلي. في محاولة مني لمرواغة ذلك الإحساس السخيف بداخلي، ربما أستطيع نسيانه ولو قليلا، علي الأقل أمام أشرف.

يقطع "أشرف" إلى تلك الوسادة فوق أرضية الغرفة، ويلقي جسده فوقها في تعب ثم يتسم لي ويقول:

- لقد تأخرت؟

- الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل.

يعتذر قائلاً:

- كانت هناك مشكلة كبيرة بالخارج، ولقد انتظرت حتى عرفت إلى ماذا انتهت.

- ماذا حدث؟

- لا شيء.. اثنان من ناحية الوساعة الخارجية، لن تعرفيهم غالبا؛ اشتبكا مع بعضها بعضا، ولقد جُرّحا، وذهبا للنقطة.

في دهشة أقول:

- النقطة؟! هل كان عراكا كبيرا إلى هذه الدرجة.

كنت أعرف أن المنطقة لا تخلو ولو لساعة واحدة من العراك والمشكلات، ولكن لا تتطور الأمور إلى أن تدخل النقطة. عند هذا الحد يكون الأمر قد خرج عن السيطرة، ولن يهدأ كلا الطرفين لشهور قادمة.

يقاطع "أشرف" أفكاري وهو يلقي بمداسه من قدمه نحو الباب:

- بالطبع.. أقول لك أن الموضوع كبير.

أنظر إلى "الشبشب" الذي طار ليقطع الغرفة بالكامل ويستقر بجوار الباب، وأعود بنظرات العتب على "أشرف"، الذي مهما قلت له، لا يتخلى عن تلك العادة الحمقاء أبداً. إن الرجل لا يشعر أنه قد عاد إلى المنزل إلا حينما يدهس لي الفرش بالكامل بذلك الشبشب القذر. لم ينقطع الوصل هنا، وعلى هذه العادة التافهة التي يمكنني احتماؤها. إن لديه كثيرٌ من العادات الأخرى الأكثر بشاعة وأنا أتحملها.

أقول وأنا ألوح بشفتي يمينا ويسارا في عادة قديمة تعلمتها من أمي:

- وعلى ماذا انتهت في الأخير؟

- لا شيء. كل منهما حرر محضرا إلى الآخر وأخذها سيادة الأمين بسيارة الشرطة "البوكس" واتجه إلى القسم لبيتنا في الحجز هناك، وغدا يعرضان على النيابة.

- ولم كل هذا؟ كان عليهم بماذا من كل تلك "البهدة"!

- بعض الناس تهوى البهدة. كنت جئت لتشاهدي شارع النقطة.. وكأن العالم كله تجمع هناك في ذلك الوقت.

أردد تلك الكلمة في رأسي وأنا أزرئها جيدا، وأجيب كيف يهوى الناس البهدة؟ وكيف يفرحون بأن الخلق تشاهدتهم في تلك المواقف. لماذا يتخيلون أن الناس وقتها ستصفهم بأنهم رجالٌ وأبطالٌ. أنا لم أفهم تلك الأمور، ومن ثم أحمد ربي في داخلي، فعلاقتي بتلك النقطة هي أنني أميز بها الشارع الذي تقع به، وأسميه كما يسميه الناس جميعا "بشارع النقطة".

كان من ضمن طموحي، حينما كنت بنتًا في منزل والدي، أن أتزوج برجل يستطيع أن يخرجني من تلك المنطقة، وما تحيطها من مناطق شبيهة. لكن تلك المنطقة بالذات كان بها كثيرٌ من الاختلاف. فلقد كانت المقابر تحيط بها من الأربع جهات، ولكي يصل إليها أي أحد كان من منطقة أخرى عليه أن يعبر شارعًا أو طريقًا أو بعض الحارات التي لا تحتوي على شيء سوى المقابر وبعض الكلاب الضالة، والتي تكون غدارة في بعض الليالي؛ لذلك كانت منطقة مغلقة على نفسها وعلى من يحيون بها. ومنذ أن دلفت أنا إليها وأنا أشعر أنني لن أستطيع يوما تركها والذهاب إلى مكان آخر. كانت تلك الفكرة تؤرقني في الماضي، ولكنني قد اعتدت عليها الآن.

أنظر إلى "أشرف" وهو يبدل ثيابه، وألمح تلك النظرة اللامعة في عينيه، وأعرف أنه اليوم قد دخن الحشيش مع أصدقائه، وربما ذلك الشيء ذو الرائحة الفظيعة المسمى "بالبانجو"، لكن هذا ظاهر عليه اليوم أكثر من أي يوم آخر شاهدته فيه منتشٍ هكذا.

إن "أشرف" لا ينفق كثيرا من النقود على تلك الأمور، ولقد كان يحترم اتفاقه معي في هذا الأمر قدر الإمكان، فلقد كان شرطي الوحيد عليه حينما قررت أن أتزوج به هو: ألا ينفق ما يحتاجه الدار على المخدرات.

يصعد الرجل بجواري أنا وابنتنا على الفراش، ويلقي بظهره فوق حافة الفراش، ويغلق عينيه اللامعة دون أن يقول شيئًا.

يصدر من السماء صوت يفجعني بغتة، حتى انتفضت له، لقد كان رعدا ذا صدى هائل، ستكون ليلة طويلة، هذا إن قررت الأمطار أن تهطل بقوة صوت ذلك الرعد نفسه.

بعد قليل، تصمت أصوات أفلام عم سرور، وأسمع صوت أم كلثوم بديلا عن تلك الأصوات الصاخبة، ولا يعلو مع صوت أم كلثوم سوى صوت كركرة الشيشة. ثم تكفلت الأمطار بالطبع بإغراق الشارع بالمياه. من المؤكد أن عم "سرور" الآن في غاية السرور والروقان. أما أنا فظللت أنتفض مع صوت الرعد كما ارتعدت الجدران والأبواب من حولي في هذا المنزل القديم وسط سكون الليل، وضجيج السماء. حتى إن "سرور" قد صمت صوت شيشته بعد حين، كما صمت أفلامه من قبل، واختفى صوته وحركته.

مديح

ينتفض المنزل بدوي الرعد القوى في السماء، فتضرب الأبواب والنوافذ مرغمة ببعضها بعض، بفعل ذبذبات ذلك الارتطام العنيف بين السحب الكثيفة. تبارح أبواب النافذة مكانها وتضربه مرة أخرى، فتقفز إلى رأسي كقط رشيق، غرس مخالبه داخل عظام جمجمتي وأخذ إحكام حكاته داخل رأسي، والتي تصدعت لها جميع أسناني وليس ضرسي الحرب فقط لينتج عنها ما يشبه انتفاضة قوية، على إثرها استيقظ في هلع. يمر من خلف "الشيش" ليعبر الزجاج كالرصا ص ضاربا عيني؛ ضوء البرق ذو الأطراف الزرقاء التي تؤلم العين وتغشيها. ومن ثم يعبر داخل الغرفة المظلمة التي أرقد لتصبح ظهرا، وقد كنت ملقيا على وضعيتي السابقة نفسها التي لم تتغير منذ حينها، أطرافي ملقاة كل واحدة في اتجاه، وجسدي يحتل عرض السرير بالكامل وساقبي ممددة فوق الأرض. الوهن، والتعب، والألم، وهمدان واضح، هم أساء لأطرافي الأربعة؛ أطلقتها عليهم منذ قليل من الوقت. كنت من قبل أشعر بحال مغاير تماما، ولكن حالي أصبح متقلبا مثل الدنيا.

ينهمر المطر بغتة في شدة، ويزداد معه ضوء البرق ودوي صوت الرعد في السماء وكأنها تنهدم فوق رأسي وأنا راقد لا أقوى على الحركة، بصعوبة أوارى جفوني قليلا لأنظر داخل الغرفة المظلمة محاولا استيعاب ما حولي. ثم ينتفض جسدي مستيقظا مع أول خيط من خيوط البرق يضرب الحجرة في أثناء عدم انغلاق عيني. فأقول منتفضا:

يا ستار يا رب

استفيق وأدرك أنها الأمطار فأفرك عيني في وخم وأثناء بعق، ومن ثم أتجه نحو الثلاجة لأخذ جرعة من الماء، التي ذكرتني بدورها بذلك الورم الذي يحتل جانباً كبيراً من وجهي، ومددت يدي أتلمسه، وأنا أنظر إلى ساعة حائط مستديرة معلقة على جدار الصالة المضاء بلمبة نيون بيضاء، وبعد أن فتحت الباب وجدت أن الساعة الثالثة صباحاً. إنني لم أنعم بنوم عميق بعد، فلم يمض سوى ساعة ونصف على الأكثر منذ أن خلدت إلى النوم. هناك قليل من الألم أشعر به إلى الآن. فأتذكر تلك الحبوب التي أعطاها لي "مندو" بالأمس -على اعتبار أنني استيقظت من نومي في اليوم الثاني- فأمد يدي نحو باب الثلاجة وأفتحها، وألتقط ذلك الزنار البلاستيكي من داخلها ثم أنظر إلى محتواه من الحبوب، وأفكر قليلاً إن كنت أبتلع اثنتين من الحبوب مرة أخرى، أم آخذ واحدة فقط. كل ما أريده أن يسكن ذلك ألمي حتى يأتي المضاد الحيوي بمفعوله، ويتضاءل ذلك الورم قليلاً قبل أن أعود إلى وحدتي بالسويس بعد خمسة أيام. فأتناول الحبوب من الشريط وأبتلعها بجرعة ماء، ثم ألقى الشريط الفارغ فوق الأرض في لامبالاة مستحدثة عليّ.

ترتعد الجدران مع الأبواب مع صوت الرعد، وأشاهد الضوء يغمر الغرفة ثم يختفي، وأنا أعود مرة أخرى إلى الفراش في محاولة للعودة إلى النوم. فأنا لا أزال أشعر ببعض النشوة من تلك السعادة الكامنة بداخلي، ليست بنفس القوة التي كانت عليها بالسابق، ولكنها لا تزال متواجدة. حتى أنني أخذت أتطلع إلى الغرفة وهي تضيء بفعل البرق في سعادة تجعلني أبتسم حينما أسمع ذلك الصوت أو أري هذا الضوء. يتسلل إلى مسامعي صوت أم كلثوم. أشعر بنشوة تجتاحني وهي تعلو مع أنغامها وصوتها العذب، فتتحرك شفتاي بدون ألم لكي تردد بعض كلمات الأغنية معها. على ما يبدو أنني لن أستطيع النوم مرة أخرى. يزداد صوت أم كلثوم عندما هدأ صوت هطول الأمطار قليلاً.

أفكر في النزول حيث عم "سرور" وأجالسه قليلا، وأستمع إلى أم كلثوم معه. ربما "سرور" في حاجة إلى رفيق في ذلك الوقت، وسيكون راضيا عن جلوسي معه فأدخن معه حجرين على تلك "الرجيلة ذات القصة"، والتي لا يدخن سوى عليها.

لا أحب تدخين شيء سوى التبغ في العموم، ولكن معاملة "سرور" لتلك "الرجيلة" تستفزني وتشعري بأنني أريد أن أدخن منها معه. إنه لا يجعل أحداً غيره يمسها، ويقوم بتنظيفها عدة مرات بأشكال كثيرة قبل أن يجففها بمنشفة مخصصة لها، ويهتم كثيرا بتدليك الأماكن الدقيقة التي تختفي عند الزوايا بين القصة والغطاء المطاطي أو ذلك الإناء الزجاجي.

لم أستطع مقاومة التفكير في تدخين حجرين مع عم "سرور". فأنهض من ثباتي الثقيل وأتجه نحو الملابس فأبدل ثيابي على عجل وكأن "سرور" يناديني وأهبط إلى الشارع على الفور.

لا يا عم السيد، ومن يرضى بذلك.

قالها "سرور" لذلك الشخص الطويل ذي الشارب الكث الواقف أمامه منحنيا قليلا عند المنكبين، وكأنه أحذب. شعره ناعم ومسدل فوق هامته، وقد صففه هو إلى أحد الأجانب. إنه سيد "الحنوتي". لقب حانوتي هو لقب يتمتع به كل رجل في عائلتهم، ولكنه في الأصل يعمل موظفاً في الضرائب. موظف صغير، وبيته بالجوار عند مدخل المقابر، في الشارع الخلفي للسعاية. لكن تواجهه مع "سرور" ينيئ بخير، فإن ما يجعل "سرور" يحتمل ثروة ذلك الرجل أنه بحاجة إلى رفقة بالفعل، وبالتأكيد إن رفقتي له ستكون أفضل من رفقة سيد كثيرا.

- يقول سيد بصوته الساخر دائماً:
- سيوافقون جميعاً يا عم "سرور" كالعادة.
 - لا أعتقد أن هذه المرة كسابقتها.
 - الموضوع انتهى يا عم سرور. كشف العلاوات تم اعتماده اليوم.. انتهى الأمر.
 - يزوغ سرور ببصره في الأرض المبتلة ويقول:
 - يعني الغلاء سيظل خلفنا حتى لا نجد اللقمة من بعد. ويقتصون أيضاً من معاشنا ولقمة عيشنا.
 - وهل نحن الآن لدينا لقمة ولن نجدها من بعد يا عم سرور؟ أشعر أن الجسد قد اعتاد. باختصار يا عم سرور لقد نحس جسدنا من أفعالهم.
 - عندك حق.
- تفهمت وأنا أهبط تلك الدرجة الصغيرة عند حافة المدخل لأمضي فوق أرضية الحارة أن سرور يتحدث مع سيد عن العلاوات الأخيرة للمعاشات، والتي تملأ الإشاعات البلد وهم لم يخطوا داخل العام الجديد بعد، بأن العلاوة لن تكون كمثال كل عام، وإنما ستكون أقل بنحو أربعة أو ثلاثة بالمائة. وعلى ما أسمع أنها تصل كل عام لسبعة في المائة بالحيلة وحسن الإدارة. وأتفهم أن الحكومة بذلك تكون قد أحدثت إنجازاً ما بعده إنجاز. فهم يقولون هذا في أحداث الأربع والعشرين ساعة، على القناة الثانية كل يوم. ربما يفكر سرور في تلك الزيادة التي يتحدثون عنها، ولكنني أفكر في أمر آخر، هو متعلق أيضاً بالأمر نفسه، ولكن من جهة أخرى. إنني أفكر في الفترة التي تلي العلاوات، والتي ترفع بعدها أسعار السلع في الأسواق، وتثقل كاهلي من جديد، إن راتبي في الجيش لا يكفيني لكي أدخن فقط، بالكاد أدخن.

ما أن اقتربت حتى يقول سيد:

- كله بسببكم يا سيدي.

أبتسم في دهشة:

- تسببنا لك في ماذا يا سيدي؟

- أقول لك الجيش اشترى سلاح.. والميزانية لا تحتمل.

الجيش؟! الميزانية؟! من الذي يتحدث عن تلك الأشياء؟ سيد الحانوتي؟ هل هذا يعقل؟ وأكثر من سؤال آخر يجول بخاطري، أنا لم أكن أسعى أبدا إلى مشادة كلامية مع سيد الحانوتي في هذه الليلة التي بها كثير من الأحداث الأهم. لم يخطر ببالي أيضا وأنا آت الي هنا إنني سوف أتحدث عن الجيش والسياسة والاقتصاد. فأومئ لسيد قائلاً:

- سمعت أن الجيش اشترى سلاحا جديدا أنا الآخر.

- هل رأيته يا "مديح" يا ولدي؟

يسألني سرور.

أشيخ بوجهي نافيا ولا أزال بتلك الابتسامة المندهشة:

- كيف لي أن أراه يا عم "سرور"؟ هل تتصور أنني وزير الدفاع.

ثم أخذت أضحك في انتظار مشاركتهم لي في الضحك، ولكن على ما يبدو أن "سرور" قد وضع الأمر في موضع الجد، فلم يعرني أي انتباه وتطلع نحو سيد قائلاً:

- هل أنت متأكد يا سيد يا ولدي من هذا؟

- بالطبع متأكد يا عم "سرور".

أضحك، فلقد تممض "سرور" دور الرجل العجوز الذي يقول لهذا يا ولدي ولذلك يا ولدي. مع أن "سرور" نفسه يعلم أنهم يقولون له يا عم "سرور" لأنهم

يشاهدونه منذ أن كانوا صغارا فقط، ولكنه من يومها وإلى الآن لم يتغير به شيء.. لم يتقدم به العمر أو يتأخر. مع أنه لا يزال "سرور" لا يعير لي أي اهتمام وهو يقول لسيد شاردا:

- آه.. لكن موضوع الجيش والسلاح هذا لن يدخل عقلي.. بالطبع لن يدخل عقلي.. إنها طريقتهم التي أعرفها جيدا، يريدون أن يلفقون الأمر للجيش حتى لا يتحدث الناس.
- الناس سوف تهجّ يا عم "سرور".
- معلوم.. من حقهم بالطبع.

أقلب راحتاي وأنا أسخر في عقلي قبلها، ما دخل الجيش في الناس في العلاوة.. صحيح نحن نتحدث في الوسعاية. أقولها كاتما ضحكاتي وفي محاولة للسيطرة على ملاحي أقول:

- ما دخل كل هذه الأمور ببعضها يا عم سرور؟
- أقول لك يا ولدي.

قالها سرور وأخذ برهة للتفكير ثم أضاف:

- هؤلاء الناس الطيبين الذين تشاهدهم كل يوم، يمكنهم انتقاض أيّ كان، سواء شخص أو مؤسسة، ولكنهم يتتلعون ألسنتهم بمجرد أن تأتي سيرة الجيش.
- الجيش له هبة أيضا يا عم "سرور".

- ليس هذا أصل الموضوع.. الفكرة أن الخلق هنا يقومون بتقديس الجيش، يعتبرونه كرامتهم، وعزتهم. يمكن أن يتغاضون حتى عن اللقمة التي تسندهم، وتشد عودهم من أجل قطعة سلاح. إياكم أن تتصوروا أن علاقة الناس بهذا الجيش، على أنها مجرد مؤسسة في البلد.. لا، إنه نتاج تعب، وعرق هؤلاء البسطاء، ثمنه: نوم بلا عشاء، وطلب لأحد الأبناء يعجز علي تلييته "أب" فقير. ثمنه كان "سلفة" يقوم بها بسيط من بسيط آخر. الجيش هو إنجاز قام به كل رجل وكل امرأة تشاهدها في أي وقت وفي أي

مكان.. جميعنا شارك في بنائه.. لقد وصفنا حتي اشقائنا بأننا شعب فقير، وبأننا نأكل من القمامة من كثرة فقرنا، ولكننا تحملنا كل هذا من اجل كرامتنا، لقد ضحينا بالعيشة الرغدة، واللقمة الكريمة في سبيل قطعة سلاح كانت لتغنينا، وتكسينا افضل الكساء. حتى أنت يا "مديح"، إنك من هؤلاء البسطاء، ولقد قدمك أهلك بكل "سرور" إلى الجيش كما فعل معظم الآباء والأمهات. كما دفعوا أيضا الثمن في احتمال معاناة الميزانية وغلاء الأسعار وغيرها، لذلك فكل من يرفع يده بسوء تجاه هذا الجيش، حتى وإن كان على حق فهو عدو لي، وعدو لك، حتى وإن كان ولدك، أو والدك، أو شقيقك.

ربما كلمات "سرور" البسيطة كانت أكثر عمقا من تلك اللهجة الشعبية التي يتحدث بها. لها مغزى، وألف معنى، ولكن من يفهمها؟ ومن يعيها وأنا في تلك الحالة المزرية، أنا أشكو من مجرد ضرس بحجم حصوة تُسحق أسفل النعال دون أن تدري يا عم سرور، وقد أذاقتني من ويلات الألم أعنفه.. كيف تريدني أن أتحدث عن مشكلة دولة، وجيشها وشعبها. هيهات.

أعتقد سرور أن هؤلاء المتشبهين بالإنس سواء أبي أو أمي هم من قدماني للجيش حقا؟ وتعتقد أن الجيش كان بالنسبة لي واجب ينقضي، ولا تعلم أنه كان بمثابة ملاذ آمن، احتमित بين جدرانها، وتواريت خلف بزته العسكرية من عيون بني الإنسان من أبناء المنطقة والحارة، كان عليك أن تفهم وحدك يا عم سرور، لم أحصد من أهلي سوى ثمار غادرة، ارتوت بمياه الكراهية وعبق طقس معتق في مرارة الأنانية واللامبالاة. ربما فقط تحتاج لاقتلاع عينيك ورؤية الأمور بعيني ولو مرة، وستغير لديك مفاهيمك، وسوف تطيع كل ما أشعر به من بغض ومقت إلى هؤلاء.

لم يثمر اجتماعي بسرور في مزيد من الدخان المتصاعد من فوق أحجار النرجيلة عن شيء آخر، حتى إن الكلمات كانت أخف من ذلك الدخان، وصار لزاما على أن أفكر في موقع آخر، وليس بكل هذه المنطقة سوى مكان واحد يذهب إليه العقل في

هذه الحالة، إنها الوسعاية الكبرى عند ناصية شارع النقطة.. سيفني بالغرض مقهى واحد من الاثنين القاطنين بناصيتي الوسعاية. ستكون أولهم في القائمة، أقلهم عددا في الزائرين. يجب أن أجد بعض الهدوء بعد هذا الصراع الطويل مع الألم، ولا يجب أن أضطر مرة أخرى إلى المناورة الكلامية أو النقاش الحاد مع أحدهم، عليّ أن أنفرد بذاتي قليلا.. إنها خير من يفهمني الآن.

يأتي النسيم فجأة من نافذة سماح التي تغلق أبوابها خشية المطر. بين الظلام ألمح شعرها وقد هبت حوله الريح كنسيم صيف يداعب بشرتها الساخنة، ويتلاعب بخصلات شعرها، ثم يزهد ويلقي بتلك الخصلات في مكانها مرة أخرى لعدم طاعتها، وكما القمر تطل علينا عينيها وسط الظلام، وقسوة الطقس والأمطار، فتشجج رؤيتها صدري دون أن أدري لماذا؟ ماذا حدث لي بعد أن تحدثت إلى المرأة؟

لا أدري إن كان هذا اتجاهها أم أنه مجرد تخمين طائش من عقلي الذي أرهقه الألم، تصورت أنها تتطلع إليّ متعمدة إخفاء نفسها مني وسط ظلام غرفتها المعتمة. لقد نجحت حقا في ذلك؛ فأنا لم ألمح منها سوى لمعة تلك العيون المضئية في الليل القاتم لهذه الليلة المشؤومة منذ بدايتها، والتي اختفت منها جميع الألوان الزاهية وحلت محلها ألوان قاتمة العتمة والظلمة، ولم أجد بها سوى جزء واحد مشتعل، وهو لحظات لقائي بها التي لم تدم لسوء تصرفي الدائم. لكن تصرف مبالغت منها جعلني أغرق في بحر من الدهشة، عندما تلاقت العيون واستقرت الحدقات لكي تغرق داخل أعماق الآخر، أشاحت هي بنظرها عني في تصرف غير محسوب النهاية من أوله، كردة فعل غاضبة بعدما أوصدت النافذة، فمنيت نفسي برؤيتها مرة أخرى، فنفضت فكرة الذهاب إلى الوسعاية الخارجية، والجلوس على احدي مقاهيها الاثنين. فقلت لسرور:

- لقد تركت حجرتي الدافئة وأتيت إليك يا عم "سرور" حينما سمعت كركرة النرجيلة. قلت لنفسي لما لا أذهب لتدخين "حجر معسل" مع عم "سرور".
- وماله يا سيدي.. ندخن حجرين.
- فرك عم "سرور" يديه الصغيرة بعضها ببعض متوسلا الدفء، وهو ينهض وغمزات الصقيع في عظامه تنغزه نغزا فيطلق معها الزفير والتأوه وهو ينهض شاعرا ببرودة الطقس، وعلى جلبابه بعض البلل من مزاح الأمطار الثقيل وغير المقبول بالنسبة لسرور الذي يكسو جلده عظامه مباشرة، واتجه نحو ذلك الحانوت الذي زيتته الزجاجات الفارغة حول ثلاثيات المياه الغازية، ومن أحد الأركان التقط إناء كبيراً وجعله بين كفيه -قصعة- ثم أشار إليّ لكي أحضر إليه، وهو يقول:
- هناك مقعد خلف تلك الثلاثية، أحضره لكي تجلس.
- في حين قال سيد وهو يهم بترك المكان:
- تصبحون على خير.. أنا ذاهب إلى النوم
- لمحت في يد "سرور" وهو يعبر بجواري ما داخل ذلك الإناء من أخشاب وحطب محترق ومتفحم من قبل، إنه للتدفئة. في حين أن بقايا ما شربناه من قبل يزين الرصيف الذي استقرت أعلاه النرجيلة الصغيرة. أنظر إليهم وأتبع سرور في أمره، وأذهب لإحضار المقعد.
- ألتقط المقعد وأعود به ليعتلي ذلك الرصيف بجوار حانوت عم "سرور"، وقد اختار سرور ذلك المكان لأن هناك شرفة بارزة من جدار المنزل تظل عليه من مياه الأمطار. في حين عاد "سرور" إلى الحانوت بعد أن وضع تلك القصعة أمام مقاعدهم، ومن ثم حمل من الحانوت دلوًا لعمل الشاي، وأوانٍ بلاستيكية بغطاء ملون يظهر لون الشاي الأسود من أحدها والسكر الأبيض من الأخرى، وزجاجة صغيرة بها بعض الكيوسين لإشعال النيران.

ناولني "سرور" كوب الشاي، وهو يقول:

- لكن ماذا بك أنت يا "مديح" يا ولدي؟ ملاحك ليست هي.
- أبدا يا عم "سرور" .. لدي تورم في وجهي ناتج عن التهاب في اللثة.
- لا، أنا لا أقصد تعب الجسد.. هذا مقدور عليه، أو على الأقل أهون من تعب العقل والذهن.

- معك الحق يا عم "سرور" والله .. لكن أنا لا أشكو من شيء.
- ربما، ولكن هيئتك قد تبدلت، وكأني لا أعرفك.
- ربما هذا من جراء المكوث فترات طويلة في معسكرات الجيش.
- لا، أنا لا أقصد أنك مختلف منذ أن دخلت إلى الجيش، على أن هذا أيضا قد لاحظته، ولكنني أشعر أنك اليوم مختلف.
- إنني متعب جدا والله يا عم "سرور". لقد كنت أعاني من آلام فظيعة على مدار اليوم السابق.

- ظلت رشقات الشاي في صد ورد بيننا كمتقامين يتسارع كل منهم لحصد غنائم الطاولة؛ حتى مطلع الفجر، ووصل إلى مسامعنا صوت الأذان من كل اتجاه. فانقطعت أصوات كركرة النرجيلة. وهممت بالانصراف قائلا:
- ليلتك كالفل يا عم سرور.

- ليلتك ماذا يا عم "مديح" .. لقد طلع الصباح، كلها ساعة وتسطع الشمس في السماء!
- شمس يوم جديد سوف تسطع كما يقول سرور، ولست أدري ما حدث بالضبط، ولكن على ما يبدو أن صخرة من الخجل قد ضربت ذلك الألم العنيد بقوة فجعلته يكف شره عني، فتمتد يدي نحو ذلك الورم الذي يحتل رسغي بالكامل، فأجد أن الخجل لم يطله، وأنه على وضعه حافظا مكانه، بل إنه قد استدعى بعضًا من قواه وتضخم قليلا عما كان. بالطبع أنا لم أهتم لهيئته أو حجمه أكثر من اهتمامي

بإحساسي به، والذي خلا تماما الآن من أية آلام أو نغز موحش كما كان. يجذبني الشروود تدريجيا في كلمات سرور التي قالها عن أنه يجد بي شيئا غريب، وأحاول أنا العثور على هذا الشيء الغريب، والغامض أيضا.. أنا لا أشعر أن تبديلاً ما قد طالني دون أن أدري، ولا أجد بكلماته معنى سوى طول الحديث إن كان يريد إطالته حينذاك.

مديح

تشير الساعة المستديرة فوق الجدار منطفئ اللون إلى الثامنة صباحاً، عندما كان صوت ملعقة تئن داخل كوب لتذيب السكر بالماء الملون بلون الشاي الأحمر. لا أدري منذ متى وأنا أحرك تلك الملعقة، ثم أحملها بعد أن تنبتهت بين أصابعي، وأقطع نحو غرفة النوم لأضع الكوب فوق قائم الفراش الخلفي، وأستلقي بجواره فوق الفراش. أصبح تأثير عدم الراحة ظاهراً على بعض عظام جسدي التي بدأت أشعر أنها متعبة. وتملك مني إحساس بالاسترخاء، ولكن مع ذلك فجفوني مفتوحة على آخرها، ولا تريد النوم مطلقاً.

بعد رشفتي شاي فقط قررت أن أدلف إلى الشرفة، وأن أطل قليلاً على الحارة، ربما أثرت الشمس بي وجعلتني أسترخي، ولربما أستطيع النوم. فأتطلع من أعلى السور العريض للشرفة نحو الحارة التي بدت فارغة إلا من شخص واحد فقط يركز بظهره على هذا المنزل الذي يغلق الحارة من الناحية اليمنى، ولا يترك سوى معبر صغير يمر منه الشخص بجانبه، لكي يكمل طريقه على امتداد الشارع.

تملكت مني بعض من الريبة تجاه ذلك الرجل دون سابق سبب. ربما لم ترق لي هيئته، ذلك القميص الأحمر الذي يرتديه، والسروال الأسود على الطريقة الكلاسيكية. حذاؤه يبدو عليه أنه اهترأ ولكنه مع ذلك كان قد نظفه ولمعه حتى أصبح له بريق. ربما هو شخص بسيط ولكنه يمتلك حسن المظهر، ولكن أنا لم أره من قبل، وهذه هي المرة الأولى التي أجد بها شخصاً يقف كل هذا الوقت في المكان نفسه. هل هذا الشخص من المباحث؟ هل يراقب شخصاً ما في الحارة؟ ربما يراقبني

أنا نفسي. لم لا؟ إنني عسكري في الجيش، ومع ذلك فلقد كنت أقف بالأمس مع تاجر للحبوب المخدرة، بل ولقد اشتريت منه أيضا. لكن هل هذه الأشياء البسيطة تستدعي مراقبتي؟

أقول لنفسي: نعم.. في ظل تلك المنطقة التي يرشد فيها الشرطة نصف سكانها على الأقل علي النصف الآخر؛ وصل الخبر بهذه السرعة إلى الجهات المختصة، ليس هناك تفسير آخر.. يا إلهي! أرددها دون أن أشعر بعدما تملكنت مني الفكرة وأصبحت مقتنعا بها.

يتحرك الرجل وكأن أحدهم أشار له من ذلك الزقاق الضيق ولم يرني، تُرى من هو؟ لماذا اختفى عندما شاهدني. لكنني لاحظت أنه نظر في تلك الجهة ومن ثم أومأ برأسه وانطلق بالاتجاه نفسه، وهو يرفع يديه بتحية كمن يسلم على أحدهم.

تمنيت أن ألقى الموضوع بالكامل من رأسي، ولكنني لم أستطع فعل ذلك، وعلى الفور اتجهت نحو ملابسي، وارتديت قدمًا واحدة من السروال وخطيت عليها ثلاث خطوات أخرى قبل أن أردي القدم الأخرى وألقي بقميصي فوق كتفي لأستكمل ارتدائه على السلام التي كنت آخذ كل حزمة منها مكونة من ثماني درجات في قفزة واحدة نحو الأسفل.

بسرعتي نفسها التي اندفعت بها من باب المدخل لكي أتوجه نحو مضيق الحارة الجانبية لكي أدلف منه إلى الشارع الخلفي الكبير الذي يملك مفرق لشارعين، أحدهما مقابل المضيق مباشرة ويقود نحو المقابر، وآخر على امتداد حارتي نفسه واتجاهها؛ ولهما أيضا الاسم نفسه. ربما كانا قبل بناء ذلك المنزل القديم الذي قسمهما إلى شارعين، لا يسمح بالمرور بينهما سوى ذلك المضيق؛ شارع واحد. لكنني لم أع هذا الحدث الذي يمكن أن يكون قبل ميلاد والدي نفسه.

أنظر عبر الشارع الطويل الذي هو امتداد لشارعي، فأجد أنه خالٍ تماما من المارة، فأنطلق باتجاه الشارع القصير الذي يقود إلى المقابر في سرعة. أصل عند ناصيته، وأنظر على يساري لزقاق ضيق يلتف حول بعض المقابر المسورة، فلا أجد سوى رجلٍ متلحف بغطاء من البرد، ويقف أمام أحد تلك المقابر التي يتخذها الرجل ووالدته العجوز كمنزل لهم. لا يمكن أن يكون هو؛ فبالطبع أعرف هذا الرجل جيدا إنه حامد، ولكن ليس هناك أثر لذلك الرجل الذي لمحتة من النافذة.

أفكر أن أكمل الطريق حتى أصل إلى المقابر، ولكنني أكتفي بهذه الكمية من البحث، وقد اقتنعت بأن الرجل سوف يظهر مرة أخرى إذا كان يراقبني أنا بالفعل. فأدور حول نفسي في قلة حيلة، وأقلب راحتي وأنا أعود أدراجي باتجاه المضيق النافذ إلى حارتي، ولكنني قبل أن أمضي في طريقي بضع خطوات؛ أجد الحج طارق وولديه الاثنين قادمين من أمام منزلهم الذي هو خلف منزلي تماما. حتى إن جدران المنزلين الخلفية تكاد تكون مشتركة، لكن بوابة منزل طارق في الشارع الخلفي لحارتي.

لم أكن أريد أن ألتقي الرجل بهذه الهيئة المهلهلة. في تلك الساعة المبكرة، وعائدا من منطقة المقابر. ماذا سيقول عني سوى أنني كنت أمضي ليلة حافلة بالمخدرات. على كل حال ليس هناك مفر من لقائه. عليّ ألا أعطي له أيّ إيجاء لشيء مريب وكفي. فذلك الرجل من القلائل الذين أحترمهم في المنطقة بالكامل، إنه دائما في حاله، وليس له سوى عمله كمبلط رخام، وبيته وأبنائه. "رجل أنتيكة من زمن مضي". يعيش مع سكان المقابر وكأنه من كوكب آخر.

كعادة طارق في السلام، يقول ببشاشة وجه:

- صباح الفل.

- صباح الفل يا عم طارق.. أزيك يا "محمد"، كيف حالك يا إسلام؟

هكذا أجبته في ثبات، وكنت أتمنى من داخلي أن يقتصر حديثهم عند هذا الحد فقط، ولكن طارق قال:

- كيف حالك يا مديح يا ولدي؟ كيف تمر أيام تجنيديك؟
- بخير والله يا عم طارق.. تسير الأمور على كل حال.
- أعطى مفتاح السيارة إلى أحد أبنائه لكي يسبقه ويشعل محرك السيارة حتى يتبعه. أعرف تلك السيارة التي لا يستبدلها عم طارق أبدا. إنها سيارة فيات من فئة 131 التي صنعها الإيطاليون في السبعينات. يعاملها طارق أفضل من معاملته لـ "محمد" بكر ولديه. وموقف انتظار تلك السيارة عند أول شارع في شوارع المقابر المحيطة، وعند نهاية الطريق الذي عدت منه للتو. ثم قال طارق:
- ألا تحتاج إلى شيء؟ أنا مثل والدك.
- فطننت من موقف المفتاح هذا أن طارق يريد أن يطيل الحديث معي، فأغلقت عليه الطريق قائلا:
- بالطبع أنت كذلك، ولكن أموري بخير والله يا عم طارق.. لا أطيل عليك وأؤخرك عن عملك.. نهاركم كما الفل والورد.
- تسلم يا بني.. صباحك هناء.
- ارتبك قليلا بعد أن قال، ولا أدري إن كنت أعبر بينهم وأمضي في طريقي أم أتوقف حتى يتحرك أحدهم أولا. فنظرت لطارق وهو يعيد يده باتجاه "محمد" مرة أخرى، الذي أعاد له مفتاح السيارة. في أثناء نظرة طارق إليّ التي تبدلت معها ابتسامته البشوشة إلى دهشة، ولكنني عبرتهم ولم أعد النظر حتى أرى تطلعاته كاملة فلقد أوليته ظهري وانطلقت عائدا نحو المنزل.

لم تكد عيني تغفل حتى نادى عليّ صوت أم سعيد، جارتي في العمارة المجاورة، والتي تفصل منزلي عن البيت الأصفر. أنهض على الفور لأفتح النافذة فهي لن تستدعيني في هذا التوقيت إلا لكي تحبرني أن هناك من يتصل بي. فهي الوحيدة في الحارة التي تمتلك هاتفاً أرضياً في منزلها، ويستعمله جميع من في الحارة في استقبال مكالماتهم، فأقول لها متطلعا نحو شرفتها من نافذتي:

- من يكون المتصل يا أم سعيد؟
- إنها عمّتك.
- أنا قادم.. أشكرك يا أم سعيد.
- الناس لبعضها يا مديح يا ولدي.

تضيق حذقة عيني بمجرد عبوري لباب المنزل، فأرفع رأسي إلى السماء مغشياً البصر، وتصفغني سهام الشمس لتتغلّق أجفاني، أشعة الشمس تأتي وكأن كل شعاع منها بمثابة قوس قزح، لكن أطرافه منصهرة كما الدخان الملون. وتظل تلك الرؤية تعاكس حذقتي حتى بعدما أبعدت وجهي عن السماء. لا أدري أين الخلل، ولكن بصري أصبح مختلاً بعض الشيء. فكان هناك ظل حول باب منزل أم سعيد، يشبه هالة ضوئية محترقة.

كدت أتعثر وأنا أصعد درجة من سلم العمارة الخارجي، والذي لا يتكون سوى من درجتين فقط. ولكنني استطعت أن أتدارك نفسي وأصحح من موضع قدمي، وأستند إلى البوابة الحديدية للعمارة. وعبرتها نحو السلم فقد كانت أم سعيد تسكن الطابق الثاني. ألقي بحملي على الجدار هذا تارة وتارة أخرى على الجدار الآخر حتى صعدت درجات السلم الملونة بالضوء، في وقت ظننت أنه أكثر من المعتاد. في حين أن صوت فتح باب شقة أم سعيد يقول عكس هذا. فلقد كانت السيدة معتادة على فتح الباب عند اقترابي من الطابق التي تقطن به. عندما يكون المتبقي حزمة

واحدة فقط من السلم. وأنا أشعر أيضا أن المسافة الزمنية الفاصلة بين وقت صعودي للسلم وبلوغي تلك القطعة الأخيرة مناسبة للمعتاد، وحتى حينها بلغت باب الشقة أشعر أنني لم أتأخر بين فتح الباب ودلفي منه. فأعلل ذلك على أنها مجرد هواجس تخطر ببالي لأنني لم أزل مستيقظا دون نوم منذ يومين مضى.

في داخلي لا يوجد أي شيء من تلك النشوة التي كنت أشعر بها بالأمس، على العكس، أنا أشعر كما لو كان هناك غضب دفين في أعماقي لا أعرف السبب الحقيقي لوجوده.

أمسك سماعة التليفون بين أصابعي قائلاً:

- أهلا عمتي.
- أهلا يا حبيبي.. كيف حالك؟
- الحمد لله يا عمتي.
- يأتيني صوتها الناعم مشوشا ببعض ذبذبات أنفاسها، ومرتبكة تقول:
- والدتك كلمتني بالأمس، تقول إنها تريد أن تراك.
- أجيب بسخرية مصحوبة ببعض الحزن:
- الخلق جميعا تريد يا عمتي.. لو كان كل من يريد شيئا يملكه لارتاحت العباد جميعا.
- لكن هذه أمك يا ولدي.. ولها حق عليك.
- أقاطع كلماتها التي أعلم بقيتها في حسم وأقول:
- أن كل فرد مسئول عن قراراته يا عمتي، ويتحمل نتائجها دون أن يتألم أو يتأوه. ولقد اختارت أمي أن تكون عدواً لا حبيباً.
- يا ساتر يا رب.. كيف يا ولدي تقول ذلك؟ هل هناك "أم" تعادي ابنها؟
- أصبح فيه.. ثم إنني لا أريد أن أناقش هذا الأمر مع أحد إذا سمحت يا عمتي.
- على راحتك يا ولدي.. ربنا يهديك.

- سلام.
- أغلق الخط بعد تلك المكالمة القصيرة، ثم أتنحى فتأتي أم سعيد:
- مالك يا مديح يا ولدي؟
- أنا؟ أنا كل شيء... بخير.. بخير.
- تضحك المرأة وتقول:
- كيف أشعر أنا أن مخارج كلماتك ليست واضحة، أنت تضع بعض الحروف أيضا يا ولد.
- أنا؟ أنا؟! لا.. أنا لا أفعل.
- هل تتصنع أنك "ثمل" يا ولد؟ هل تفكر في امتحان التمثيل في السينما؟
- تقولها وتعود لضحكاتها مرة أخرى، أما أنا فأفكر فيما يمكن أن يكون غريبا في طريقة كلامي. أنا متأكد أنني أنطق بشكل طبيعي كما في كل الأوقات. ثم ألتمس موضع الورم الذي لم أعد أشعر منه بأي ألم قادم؛ فأجد أن الورم لا يزال متواجداً، فأعول عليه أمر طريقتي في النطق قائلا:
- ربما لأن وجهي متورم قليلا يا أم سعيد فيصعب عليّ النطق بالشكل الصحيح.
- ممكن، ولم لا.
- ثم تعود للضحك قائلة:
- لكنها جعلت كلامك مضحكا يا مضروب. لو الأمر هكذا فاترك وجهك متورماً دائماً.
- أبتمس لها، فتضحك المرأة أكثر من اعوجاج وجهي، وأنا أقول مرتبكا:
- بعد إذنك يا أم سعيد.
- تفضل يا بني.

أشعر كما لو كنت أتأرجح وأنا أقطع نحو الباب في سرعة، وما أن أصل إلى السلالم حتى قامت ملابسي بعملية نظافة شاملة للجدار المجاور دون أن أشعر، كما لو أنني أرى أمامي تلك المرأة "أم هالة" مرة أخرى، لا أستطيع منع نفسي عن تذكر تلك الواقعة؛ التي كانت تنظر خلالها من النافذة، كانت تغلق الضوء كما عاداتها، ولكن نوراً أتى من نافذة في المنزل المقابل أضاء هيئتها لوهلة قبل أن تختفي بالداخل. نظرت وقتها إليها ووجدتها بذلك القميص الأسود وصدرها مستند إلى رجة النافذة التي تجعله نافذاً من قميصها، وظللت شاردة في هذا المشهد وكأنه يعاد عليّ بالبطيء، ولم أستفّق سوى حينما انغrust يداي داخل شيء رطب ولين، وعندما حاولت أن أعرف ما هو؟ لم أجده سوى صدر "سباح"؛ التي كانت تصعد السلم نحو الأعلى وتصيح بصوت عال في هلع: أم سعيد.

لم أفهم حتى عندما كنت عند مخرج العمارة كيف هبطت تلك الدرجات، وهل كنت طبعياً أثناء هبوطي أم أن هناك شيئاً غريباً بي. وصدر "سباح" الذي لامسته بيدي.. أكان حقيقياً أم لا؟ كنت على يقين أنني أحلم، وكنت على يقين أيضاً أنني لمستها بالفعل.

عليّ أن أظل وحدي لأطول فترة ممكنة.. فقررت ألا أهبط من المنزل مرة أخرى حتى أفهم ماذا يحدث. لقد أصبحت حالتي غريبة عليّ، إن كان ما أسمعه من تعليقات من حولي تقول إنني غير طبيعي، وإن بي كثيراً من الأشياء التي تبدلت.. فإن عليّ أن أحترس. ربما يكون لكلماتهم أساس حقيقي ترتكز عليه. ويكون شعوري أنا هو الخطأ.

سماح

- تعالي يا بنت يا "سماح"، ما كل هذه الجلبة؟
- أتوقف لكي ألتقط أنفاسي، وأشعر أن وجهي يتصبب عرقا حتى في هذا الطقس القارس البرودة. تعلق دقات قلبي بشكل لا أستطيع التحكم به، حتى إنني حينما مسحت بيدي فوق هامتي وجدت أن هامتي كانت مترشحة بالعرق بالفعل. فأقول لاهثة.
- لقد فرغت وأنا على السلم يا خالتي.
- اسم الله عليك يا بنيتي
- تقولها أم سعيد في حنية تتفق مع عمرها الذي تخطى الخمسين، ثم يتبدل وجهها للنقيض وهي تضيف:
- ما الذي أفرعك يا قلب أمك.. حتى إن الشاب مثل القمر. انظري أولا لذلك الذي تضعين رأسك بجوار رأسه على وسادة واحدة.. هذا هو ما يفزع حقا.
- قالتها أم سعيد وأخذت تغرق في نوبة من الضحك. بينما كانت الحقيقة هي أنني حقا قد أفرعني الأمر كما لم يفزعني أمر آخر على مدار عمري. حتى عندما كنت فتاة صغيرة أسكن داخل المقابر نفسها. أنام وعيني على شاهد القبر أمامي؛ والذي كان يعكس ظلاله أمام عيني مباشرة لأستظل به من الضوء، وحتى في أثناء الليل قبل أن أرقدُ أشاهدهم جميعا، حتى حفظتُ اسم كل ساكن أسفل كل شاهد قبر؛ تحت الأرض عن ظهر قلب، بعدما أقرأ قبل اسمه دائما كلمة المغفور له. وكانت

أغلب قصص أهل منطقتي القديمة وأهلها عن الجن والعفاريت التي تتجول في المنطقة كل مساءً. أنا أقوى من ذلك. تساعدني أفكارى على السيطرة قليلا وأنا أقول: لا شيء.. أنا بخير يا خالتي.

يا رب دائما يا ابنتي.. اجلسي، وهوني عليك.

لا تزال أم سعيد تحتفظ ببعض السخرية في نبرتها، لم أهتم من كثرة أفكارى، فكل ما مررت به في الطفولة لم يفزعني، وكان ما أفرعني حقا هو اصطدامي به على تلك الدرجات وأنا لا أشعر، باغتني وجوده أمامي كما باغته أنا. لقد غاصت يده في صدري وكأنه يدفعني عنه. ربما عن قصد فعلها، وربما هي مجرد ردة فعل من أثر المفاجأة. كانت صراعات بين وجهات نظري، تجول داخل عقلي. لم أفهم شيئا من بينهم يجب عن السبب الحقيقي لهذا الفزع الذي شعرت به، هل لأنه مجرد شخص اعترض طريقي بغتة ففجعني. أم لأنه أهالي من طريقه وكأنه هو من فزع مني.. أم كلا السببين معا. من داخلي أشكر الظرف التي لم تجعل هذا يحدث لي أمام أحد. أنا لن أهمس بكلمة عنه لام سعيد أيضا. حتى أنني لا أفهم نفسي إلى الآن، هل كل هذا الهلع من يد مديح التي تمنيت ليالي طوال أن أحتضنها بين صدري. أنفض الفكرة وأنا أقول بارتباك:

صباح الخير يا خالتي هذا أولا.

صباح النور يا عيون خالتك.. تفضلي.

قالتها وهي تتخذ المقعد أمامي. فأفسر لها:

لقد كنت ذاهبة نحو السوق فقلت أسألك إن كنت تريدني شيئا.

تسلمي يا بنتي.

أمد يدي لتلمس يد أم سعيد في محاولة لاستدعاء تركيزي واطمئناني أيضا وأنا
أسأل:

- قولي لي يا خالتي.. هل هناك "جمعية" أمامك لكن.. أريدها قد بدأت، ويحذر إن كانت
تُصرف عائداتها الآن.

تضحك أم سعيد لا أعلم ماذا بها اليوم وتقول:

- وإن كانت تصرف الآن يا بنت؟! فماذا ستفعلن بها؟ سوف تحسبن للمشاركين كم
سيقبضون!

- لا أقصد ذلك يا خالتي.. أنا فقط أريد أن أعرف لربما دفعت ما تأخر لمن قبضوا
وزادت "نفرا" لن يطيل على أحد.. بل سيزيد من المبلغ.. فهمتني يا خالتي؟

- أفهمك يا روح خالتك، ورثت قرشين على ما أعتقد.. لكن ليس هناك شيء شبيه، هل
سأكره، يعلم الله يا ابنتي أنا أحب الخير لجميع الناس.

- ركزي قليلا يا خالتي علك تتذكري شيئا.

تعقد أم سعيد حاجبيها مرة أخرى ومن ثم تجيب:

- لا يا ابنتي، وحياتك. إن كان هناك شيء من ذلك لكنك أعلم به قبل الآخرين.. على
العموم يا بنيتي سوف أسأل من أجلك.

- تسلمي وتعيشي يا خالتي.. أستاذك أنا.. ألحق السوق.

- تفضلي يا بنيتي.

خرجت من باب العمارة لأتوجه ناحية ذلك الزقاق شديد الضيق عند الالتفاف
وأمر من أمام منزل مديح، في أثناء انشغالي في سؤال لم أكف عن سؤاله لنفسي منذ أن
أكملت أم سعيد كلماتها. فلم يكن السبب الحقيقي لسؤالي عن تلك الجمعية هو أن
أشترك بها كما ادعت أمام المرأة، بل إن السبب الحقيقي هو أنني بالأمس، قد لمحت
زوجي أشرف وهو يخفي شيئا أسفل الوسادة قبل أن ينهض ليرقد بجواري. وبعدها

نام "أشرف" بحثت أسفل الوسادة، ولقد كانت لفافة كبيرة لم أنفهم عندما أمسكت بها كيف عبر بها من المدخل وقد أخفاها أسفل قميصه دون أن أشعر أنا بها كذلك. وكيف تسللت من أسفل قميصه حتى اختفت أسفل الوسادة. لكن حين فتحت تلك اللفافة البلاستيكية السوداء، وجدت أوراقًا من الجرائد تلتف حول جسم مستطيل، فأخذت أنبش الأوراق في حرص دون أن ينقطع منها شيئًا أو تتبدل هيئتها. فلم أكن أريد أن يعلم "أشرف" أنني قد علمت بأمره. لكنني تفاجأت عندما وجدت أن ما بداخل تلك اللفافة هي أموال.. أموال كثيرة.

وبكل الفضول الذي يجتمع داخلي بدأت أحرر النقود من تلك اللفافات وبدأت في عدّهم حتى إنني لم أضع في الاعتبار إن كان سيراني أشرف أم سيظل نائمًا. وحينما أكملت وجدت أنهم ثمانية آلاف جنيه من فئة العشرين جنيهًا أغلبها. فأعدتها إلى مكانها على الفور، وحينما تعمقت في التفكير منذ أن شاهدها إلى الآن كان عقلي يميل إلى تفسير احتل المرتبة الأولى به، وهو: أن يكون "أشرف" كعادة بعض الرجال قد شارك في إحدى الجمعيات التي تجمعها النساء في الحي، حتى يقبض منها مبلغًا كبيرًا على بعضه. لكن ظللت أسأل نفسي لماذا يفعل ذلك من خلف ظهري، إن كان أبلغني لأعنته عليها. كان بيدي أن أخفف عنه في طلبات البيت على الأقل.

لم يكن أفضل من أم سعيد للإجابة عن هذا السؤال؛ تلك المرأة التي كانت تشترك في معظم جمعيات المنطقة، وتعرف حتى التي لا تشارك بها لأنها من المؤكد أنها قد عُرِضت عليها قبل أن تبدأ. فأم سعيد زوجة حسن الفاكهاني.. إنه رجل مقتدر يسكن في الحي منذ عشرين سنة؛ عُمَر ابنها الكبير سعيد نفسه. في الحقيقة أنا لا أعرف أصول عم حسن الفاكهاني هذا، ولكنه من هيئته وذلك الجلباب الذي يرتديه دائمًا أظن أنه من الجنوب، وأعطي احتمالًا قليلًا أن يكون من أهل الدلتا. لكن الرجل كما هم أهل الجنوب يحبون إنجاب كثير من الأطفال.. لذلك فقد أنجبت له

أم سعيد ثماني أبناء، بين البنين والبنات، ومع كل تلك الجمعيات التي تشترك بها أم سعيد إلا أنني لم أرَ حالهم تتبدل أبداً.. إن تلك الجمعيات تأتي لتسد خانتها على الفور.. حتى أنني أعرف أن أم سعيد أحياناً تضطر لاقتراض بعض المبالغ من بعض ميسوري الحال من ساكني الحارة إن ضاقت عليها ولن تستطيع أن تدفع اشتراك شهر من تلك الجمعيات. لقد ابتلي الحاج حسن بمرض خطير بعدما كسرت قدمه في الزلزال، ولم يعالجها على الفور، وكان الثمن سيكون ساقه بالكامل، لولا أنه لم يهمل في علاجها، ولقد كلفه هذا أموالاً طائلة ويبدو أنه سيظل عمره كله حتى يستطيع سدادها.

لكن ما يهمني حقاً أن أم سعيد نفسها لن تريح قلبي، بل زادتني المرأة حيرة على حيرتي. وتؤكد لي تفسيري الآخر للأمر؛ الذي كنت أتمنى تكذيبه منذ اللحظة الأولى. وهذا يضعني أمام معضلة حقيقية. هل يكون الرجل سارقاً؟ هل سرقهم من أحدهم وأنا آخر من يعلم! هذا الأمر أيضاً له طريقة واحدة لمعرفة الإجابة، وهي أن أتجول قليلاً في المنطقة بالكامل وأحاول أن أسمع عن سرقة شيء ما من مكان ما. لكن إن كان هذا الاحتمال صحيحاً، فلم لا يكون زوجي قد سرق من منطقة أخرى. أو يكون قد تاجر في المخدرات مثلاً.

بالطبع لا. فتجارة المخدرات لن تأتي بمبلغ كبير مثل هذا على بعضه بهذه الطريقة، إلا إذا كان قد شارك بمبلغ كبير هو الآخر ليحني مبلغاً كبيراً. ليس حيلة أشرف مبلغ كبير، وإلا لما كان هذا حالنا. إنه "مقيح" منذ عرفته. هكذا وصفه لي عقلي. أستبعد أمر المخدرات وأعطي الأولوية للسرقة.

لماذا لا أسأله وأستريح؟

إن سألته سوف ينكر، ولربما كرر فعلته مرة أخرى. عندها سيسعى للبحث عن مكان آخر يخفي به أمواله، ووقتها سيبحث عن أخرى يدفن معها أسراره، وأكون أنا

هي الخسارة من كل الاتجاهات. عليّ أن أتركه هكذا حتى يفعل شيئًا يصلني به إلى الحقيقة من بعيد عنه، أو يعترف هو بنفسه ويقر من أين أتى بتلك الأموال. ذلك الرجل الذي لم يظهر عليه مطلقًا حبه أو ميله إلى الحرام.. الحرام. لكم هي كلمة كبيرة عليّ أن أقولها، وبالأخص عندما يكون سارقًا، إن تلك المهنة بالذات قد استشفت اسمها من كلمة الحرام، فهي "الحرام" وهو "الحرامي".

ثم كدت أن أضرب صدري وأجدي أقول بداخلي "ينهار أسود" أيكون الرجل حقًا أصبح حراميًا، ثم أتخيل ذلك الحرامي الذي أمسكه شباب المنطقة العام الماضي، والذي ظل ليلة كاملة لا يفعل شيئًا سوى أنه يستغيث بمن يمنع عنه تلك القبضات والركلات. حتى إنه استغاث بمن يتصل له بالشرطة. كان يريد الحبس أكثر مما فعلوه به. أتذكر أنه حينما حضر "أيمن بك" أمين الشرطة المسئول عن النقطة؛ كان الحرامي قد اختفت معالم وجهه، وربما اختفى معها بعض الضلوع أيضًا. حتى إنني عرفت فيما بعد أن "أيمن بك" لم يبلغه أحد، وأنه علم بالصدفة من أحد المارة، ولولا ذلك لمات الرجل بين أيديهم وتفرقت دمائه جزءًا عليهم، وما أكثرهم، والجزء الأكبر سيكون من نصيب سرقته؛ التي يمكن أن تكون ثلاث جنيحات في النهاية. فتصورت هالة أمامي وهي شابة، وتصورت شكل الحرامي، ونفضت الفكرة على الفور من رأسي؛ فأنا لن أتمنى لابنتي أبدا أن يكون لوالدها تلك الهيئة، وتلك السمعة بين الناس.

هل أنا أو ابنتي في غنى عن الرجل لأتركه يفعل أمرًا مثل هذا، لا أنني لا أرضى عن ذلك أبدا فلتذهب الأموال إلى الجحيم. يا رب حتى لو نأكل دقة وخبزًا فقط. حتى إن ذلك لا يرضي ربنا. يجب عليّ معرفة من أين أحضر زوجي تلك الأموال بأيّة طريقة وبأيّ ثمن.

مديح

أسمع صوت أذان الظهر وكأنه يؤذن لي من بلاد أخرى، صوت عميق وبعيد جدا، كما كنت أرى أن سقف الغرفة أيضا بعيد جدا، على أنه غير منتظم الشكل، وكأني أشاهده من داخل عدسة مقعرة. أتمدّد كما كنت فوق الفراش، فمند أن عدت من بيت أم سعيد، وأنا أنظر باتجاه السقف فقط، ولم أشعر بجوع منذ ليلة أمس، ولكنني دائم العطش. فلم أنهض من موضعي هذا إلا لكي أذهب إلى زجاجة المياه التي أحضرتها في إحدى المرات لتكون بجواري عند حافة الفراش. لا أدري ماذا هناك؟ ولماذا يحاول هؤلاء الناس إيهامي بأن بي شيئا ما غير طبيعي؟ مع أنني وعلى ما أشعر به أصبحت أفضل من الأمس كثيرا، فكل ما أتذكره عن تلك الليلة الحزينة المؤلمة كم العذاب والألم الذي عانيت منه من جرائم هذا الضرس اللعين.

ليس عليّ أن أعطي بالا لكلمات هؤلاء، فمن هو "سرور" العربي الذي عليّ الاستماع له، أم تلك المرأة المجنونة أم سعيد. عليّ حتى وإن كنت لست طبيعيا أن أظهر أنني طبيعي، حتى أعود إلى حالي المعتاد. لكن ذلك لن يحدث أبدا، وأنا مستلقٍ في تلك الغرفة أحلق في هذا السقف. عليّ أن أخرج لأمكث قليلا على المقهى، صحيح أنه لن يكون هناك كثيرون في هذا الوقت من اليوم، ولكن سيكون هناك بعض منهم.. فدائما ما يكون هناك بعض الناس. فإن العاطلين لا ينتهون من تلك البلاد.

في وهن أنهض، وكانت الصورة أمامي حين نهضت وكأنها متقطعة، حتى إذا توقفت فوق أقدامي فأخذت وكأنها تستعيد وضعيتها فتضيء وتنطفئ ومن ثم تستقر الرؤية أمامي.

بعد معاناة أصل أخيرا إلى المقهى، كان هناك بعض الأشخاص الذين أعرفهم، ففي الحقيقة أنا أعرف جميع سكان المنطقة، ولست الوحيد الذي يعرف، بل إن منطقنا بالكامل تعرف بعضها بعضا عز المعرفة. وليس هذا صعب في مكان صغير كهذا.

عند طرف المقهى على يميني يجلس "محمد السمكري"، وأمامه كوبٌ به الشاي المخلوط بالحليب الصابح، وكيس من النيون يحوي بعض أصابع البقسماط الرفيع. إنه يتجهز الآن لكي يذهب لفتح "ورشته" الصغيرة. إنه معتاد أن يجعل زبائنه ينتظرونه حتى بعد الظهر. لا أدري إن كانت هذه موجة من التكبر والاستعلاء يضرب بها وجوه زبائنه، أم أنه مجرد كسل منه.

على الطرف الآخر كان هناك ذلك الشاب الصغير الذي لا يتخطى عمره السابعة عشر، ملابسه مليئة بالشحم والزيت، سرواله مهترئ عند الركبة، وأصابعه بارزة من حذائه الذي كان لونه ذات يوم أبيض. إنه الفتى "عجينة" يعمل مساعداً لـ "محمد السمكري" هذه الأيام، ولكن المقامات محفوظة بالطبع. فعلى الرغم من أن "محمد" هو من سيدفع حساب ذلك الشاي بالحليب الذي يتلذذ به "عجينة" وهو يرشفه الآن، إلا أنه لا يجوز أن يجلس على مقعد مجاور من "الأسطى". لهذا فهو ملقى على الطرف الآخر من المقهى كما الخدم في أيام الملكية. فكيف أسخر من هذا على أية حال؟

ألمحه من موضعي بوضوح؛ أمام حانوته أحضر "سمير البقال" مقعدا ووضع أمامه النرجيلة. أرغم صبي المقهى وليد على غسلها لعشرة دقائق متواصلة. حتى إن لها بريق يصوي ببعض الأشعة المستقيمة في عيني. وقد جلس ممسكا في يده تلك المنشفة الصفراء الصغيرة التي كان ينفذ بها بضاعة حانوت البقالة الذي يملكه. والذي ترك الباب الأفقي نائما على قائم في الناحية الأخرى؛ مرفوعا خوفا من أن يمر أحدهم في غفلة منه ويسرقه. فلم يكذب يجلس على المقعد ليدخن إلا قام بعد رشفتين فقط نفث بعدهما الدخان على عجل، ويعود مرة أخرى إلى الحانوت ينفذ بعض معلباته بالمنشفة. غريب هذا الرجل لا أعرف متى ينام ومتى يستيقظ، لكني أعرف أنه دائما متواجداً في ذلك الحانوت.

أما الحاج عرفة صاحب المقهى، فقد تعود دائما أن يفتتح مقهاه بنفسه، وأن يتواجد بفترة الإفطار وخروج العمال والموظفين. ويطلق على هذا العمل "الاصطباحة"، وبعدها يعود من صلاة الظهر كل يوم يمسك خرطوم المياه في يده ويدور في الوسعاية الكبرى بالكامل مغرقا كل شبر بها بلتر من المياه. حتى ونحن في الشتاء ومياه الأمطار لا تزال لم تجف بعد. فلقد كانت الكلمة المعتادة في الشتاء هي أن المياه تكتم احتياج الأتربة مع الرياح. وفي الصيف بالطبع تكون الإجابة بأن المياه تطفئ لهيب الشمس. فهم دائما ما يجدون المبرر لأفعالهم الحمقاء.

ليس هناك أحد لكي أتحدث معه، ولكن تلك النظرة التي يرمقني بها "محمد السمكري" لم تعجبني، والتي تكون خاطفة. ويحرص على ألا ألمحه وهو يرمقني بها. قبل أن يجذبني التفكير في نظرات محمد السمكري حتى لمحت صديقي زكريا قادما. كان زكريا لا يرتقي إلى مرتبة الصديق بالنسبة لي، ولكنه شخص طيب وخفيف الظل، وأستخفه أنا عن غيره من شباب المنطقة. كما أن المنطقة بالكامل تمزج معه دون حتى أن تلقي السلام أولا.

- عم مديح.. عم الكل.
- أزيك يا زكريا.. كيف حالك؟
- ماذا بك يا عم مديح؟ هل أيقظتك من النوم؟
- يبدو السؤال غريبا، ولكن ذلك الفتى لا يتحدث ولو كلمة واحدة يقصد بها جد الحديث، إنه دائم المزاح في كل ما يقول. فلم آخذ كلماته سوى على كونها مزاحا وأجبتة:
- أرتاح قليلا إن لم يتعبك هذا في شيء.
- يا عمنا أنت تفعل ما تشاء.. من يستطيع أن يقول لك لا؟
- عندك حق.
- تتبدل ملامحه إلى بشاشة وهو يقول:
- أنت في بلاد حرة.. من حق كل مواطن أن يفعل ما يشاء ومتى يشاء.
- أضحك وأدعوه للجلوس:
- اجلس وكف عن هذه الجلبة.
- تؤمر يا عمنا.. لكنك سوف تطلب لي شايًا.
- يجلس زكريا بعد أن أومئ له بالموافقة، وهو ينظر باتجاه "محمد" السمكري ويقول:
- عم "محمد" يا عسل.
- بتعالٍ يقول "محمد" السمكري:
- أهلا زكريا.. كيفك يا ولد وكيف هي أمك؟
- حلوة يا عمنا.. ترسل لك السلام.
- إن زكريا يمزح مع كل الناس، ويتحمل كل ما يطاله من قلة قيمة من جرائر مزاحه، ولكنني مع ذلك أشك في أن "محمد السمكري" يقصد أن يمزح زكريا. ذلك

الخبث يلقي بتلك الكلمات عليّ أنا. حتى إن زكريا تقبلها وكأنها لا تهينه هو، فهو لا يقصده بالطبع، ولن يدافع عني زكريا، وأنا أيضا لا أنتظر من يدافع عني. فنظرت إلى زكريا سائلا بصوت مرتفع:

- ماذا يقول بذرة الزنا هذا؟

تباغت الكلمات زكريا قبل أن يفاجأ بها "محمد السمكري" الذي سألني في دهشة:

- هل تقول هذا لي أنا يا مديح؟

- أقوله لك ولمن هم من خلفك أيضا؟

- "اصطحب" يا بني أنت وهو.

يقولها الحاج عرفة وهو يلقي خرطوم الماء من يده ويركض بجسده البدين داخل جلبابه الواسع، وجسده القصير يميل إلى الأمام باتجاهنا في سرعة لا تتناسب أبدا مع هيئته، ولكنه قبل أن يصل إلينا كان "محمد" يقف أمامي ممسكا بيده طاولة حديدية ثقيلة كتلك التي تستخدم في المقاهي، ويرفعها لكي يضرب بها رأسي.

نظري لا يزال مشوشا قليلا بعد، ولكنني على ما يبدو قد اعتدت الأمر، حتى إنني قد مرت بي بعض اللحظات التي تصورت فيها أنني أعود إلى طبيعتي، وأن تلك الطريقة هي التي أشاهد بها الأشياء باستمرار. فأنفض عن نفسي فكرة أن جسدي يتمايل. لكن عندما اقترب مني السمكري شعرت أن رؤيته أصبحت أوضح، ولمحت تلك الطاولة وهي ترتفع نحو الأعلى بين يديه فألقيت بكل ثقل جسدي نحو كتفه ودفعته بكل قوتي في صدره، كنت مدفوعا بذلك الغضب الذي يزيد حجمه داخل قلبي دون أن أدري له مصدرا أو سببا معلوما. فاندفع جسد السمكري محملا بالطاولة ليفترش الأرض على بعد أمتار من مقعدي، بعدما أصبح عقلي يتذكر كل التعاليم القتالية التي تعلمتها في الجيش. ولم أكن يوما أعترف أن تلك

التعاليم مجدية من الأصل، ولا أدري لماذا أستخدمها الآن، ولكنها كانت حركة غرائزية خارجة عن سيطرتي.

أقدامي تندفع باتجاه السمكري حتى دون أن أطلب منها حتى توقفت أمامه وأخذت أنهال عليه بحذائي ركلا دون توقف. في حين أخذ الحاج عرفة ووليد صبي المتهى يجذبونني من ملابسني ومن كتفي، وأخذت ذراعاي تحجزهم خلفي ولا تمكنهم من الإمساك بي. لكن طاولة معدنية أخرى اندفعت باتجاه وجهي ولطمته بالجزء الأفقي لها، والذي يضعون عليه الأكواب فأصابت ذلك التورم الذي يحتل نصف وجهي. فاجتمعت كل أوجاعي معا بغتة، آلام صدري، وعناء قلة نومي، وتعبي الجسدي، وذلك الحنق والضجر الذي لا أعلم له سببًا، وانفجروا جميعا مع تلك اللطمة على وجهي فخر جسدي ساقطا بالأرض وأنا أحرق إلى "عجينة" الذي كان قد قذفني بتلك الطاولة منذ لحظة واحدة دفاعا عن الأسطى. ثم إلى ذلك الضرس الذي ترك مكانه المتورم واندفع خارج فمي ليستقر أمام عيني في الأرض، بعد أن ارتطمت رأسي بالأرض في قوة، وأغمضت عيني أخيرا دون أن أقاوم ذلك الإحساس بالغثيان وثقل الجفون. وأنا أسمع آخر الأصوات.. صوت البقال آتيا من بعيد جدا يقول:

إنه ولد قليل الأدب، هو المخطئ يا معلم عرفة، كان السمكري يتحدث إلى زكريا فما شأنه هو.. إنه يتربص بالرجل يا معلم.. هذا لا يصح!

ختمت الكلمات في أذناي وأغلقت عيني مغشيا عليّ تماما.. إلا أن عقلي لم يستجب حتى لتلك الغفوة في سرعة.

آخر نظراتي كانت وسط نظرات الدهشة التي ارتسمت فوق وجوه جميع الحاضرين، فهم لم يشاهدوا من قبل أحدا تغلب عليّ، وفي النهاية فإن من أسقطني أرضا وأهانني هو "عجينة" ذلك الفتى المستضعف صبي السمكري.

وفطنت إلى أنه ومع إنني مستلقٍ في الأرض بلا حراك مغشيا علي، إلا أن "محمد السمكري" سيخشى أن يقترب مني، أو يحاول الإقدام على أمر أتذكره له عندما أستفيق. وقتها سيكون لدي رد فعل ربما لن يحتمله. فلم يقترب مني عندما حجزه الحاج فرحات وأخذ يردد بعض السباب الذي كان على يقين أنني لا أسمعه. ولكنه يحاول إظهار رجولته أمام الجمع الذي أصبح أكبر من ست أشخاص. لكن مع ذلك فإن الأمر سوف يتردد صداه في المنطقة كلها، وبالأخص في وجود زكريا الذي لا يتقن عمل شيء سوى نقل الكلمات من فم لفم أو نقل الأحداث من مكان إلى آخر. ستبيت المنطقة اليوم وهي تحكي فقط عن بطولات "محمد السمكري" وصبيه "عجينة" وإسقاطهم لي..

مغشيا عليّ.

فوق مقعد خشبي من مقاعد المقهى أستفيق، بعد تصميم منهم على هذا، ولكم تمنيت ألا أستفيق وأن أكمل غفوتي. كانت تلك لحظة أنا على استعداد أن أدفع مقابلها الثمن الأعلى. وجدت من حولي؛ جمع كبير مكون مما يقارب الخمسة عشر رجلاً، وأهمهم كان "أيمن بك" أمين الشرطة المسئول عن نقطة الارتكاز الأمني بالمنطقة. فأجول بعيني في الحاضرين لكي أبحث عن "محمد السمكري" فوجدته أخيراً عند سمر البقال يجلس على مقعد بجواره، ويهز أقدامه متصنعا الغضب. وهو ينفث دخان النرجيلة بطريقة أشبه بالزفر.

نهضت مسرعاً وأنا أقذفه بعدة شتائم وسباب ووعيد لم أحدهم جيداً، أو إن كنت نطقتهم بشكل صحيح أم لا من سرعة تفوهي بهم. لولا أن يد "أيمن بك" استوقفتني بدفعة نحو صدري، وهو يقول:

اجلس يا مديح في مكانك، واحترم تواجدي بينكم.

- تواجدك على رأسي يا "باشا" وأنت تعلم هذا.
- إذن فاجلس ولا تتحرك.. أريد أن أخبرك بكلمتين قبل أن أرحل.
- أنا سامع يا باشا تفضل.
- أنا أعلم أنك جندي في الجيش ولا يحق لي أن أسحبك معي إلى النقطة، وأحيلك أيضاً إلى القسم إن لزم الأمر، ولكن باستطاعتي استدعاء الشرطة العسكرية لكي تتصرف معك فور افتعالك أية مشكلة أخرى.. هذا تحذير مني لك بصفتك شقيق أصغر لي، وأنت تعلم كم أعزك.
- كما ترى يا باشا.. لكن بعد إذنك أنا لن أترك ابن الكلب هذا إلا عندما أذبحه، وافعل ما شئت.
- إذن سوف تأتي معي إلى النقطة الآن.
- أنت قلت بنفسك إنك لا تملك تلك السلطة.
- إذن فسوف استدعي لك من يملكونها.
- ربت عرفة كتف "أيمن بك" وهو يقول:
- ريض قليل يا سيدي.. هو سيكون كما تريد.. هذه ساعة شيطان ليس أكثر، هؤلاء إخوة في النهاية.
- أنت تسمع ما يقوله بنفسك يا حاج عرفة.
- أنا قلت لسيادتك.. إنها ساعة شيطان ليس أكثر.
- سوف أتركه ولكن على مسؤوليتك أنت يا حاج عرفة! عليك أن تهدئ من روعه قليلاً.
- اتركها لله يا سيدي.. اتركها لله.
- قالها عرفة وهو يربت على كتفه بطريقة تحته على ترك المكان، وترك الأمر له، ويطمئنه في الوقت ذاته إنه على قدر المسؤولية. فنظر "أيمن بك" في عينيه وأوماً

بوجهه لترتفع حدقة عينه عند طرف أجفانه، وما أن يراه الحاج يفعل ذلك حتى أوماً له وهو يقول:

- عيب يا باشا.. أنا الحاج عرفة.

كما لو كان "أيمن" اطمئن واكتفى بتلك الكلمات الأخيرة فقال وهو يمضي:

- السلام عليكم.

لم يكد "أيمن بك" يختفي داخل شارع النقطة حتى صاح المعلم عرفة بطريقة مباغطة جعلتني انتفض من مقعدي:

- هيا يا سيدي منك له، كل "نفر" يذهب إلى عمله. ماذا بكم؟ هل أنتم عاطلون بلا عمل!

ثم ينظر إلى السمكري بنظرة نارية قائلاً:

- وأنت يا عم "محمد" الله يكرمك توكل على المولى واذهب إلى عملك.

ثم مال نحوي في الأخير، وقد كنت كما أنا على جلستي فوق المقعد أراقب الأمر كله وكأني أشاهد شاشة سينما وقال في نصح:

- وأنت يا عم مديح.. أتعرف الطريق إلى المنزل أم أرسل معك وليد لكي يصلك إلى هناك.

تزعجني كلماته فأنتفض:

- ماذا تقول يا حاج؟

- لا شيء يا بني. أقول لا إله إلا الله.. توكل على الله يا بني، ارتح بمنزلك نحن لن نفتتحها فندقاً هنا. الله يهديك، هذه ساعة ظهرية، وأنا لا أصطحب عقلي معي في ذلك الوقت.. اجعلها تمر على خير يا ولدي واغزِ الشيطان.

نهضت من فوق مقعدي وقد اقتنعت أن عليّ أن أذهب إلى المنزل، ليس خوفاً

من كلمات عرفة أو طاعة له، ولكن لأنني أريد استغلال هذه الحالة التي أنا عليها من

ثقل ووخم في معاودة النوم. أشعر أنه إذا ارتحت ولو قليلا سأكون في أحسن حال. أنا الآن شبه فاقد للوعي، وليس عليّ أن أترك شيئا يوقظني الآن. فنهضت دون أن أنطق ببنت شفة، وأتجه نحو المنزل، وأنا أشعر بإعياء رهيب وكأنني أريد أن أختبئ من الشمس ولو تحت الأرض.

لم أكد أفق أمام خزانة الملابس ذات المرايا بحجرة النوم بالمنزل، حتى شاهدت وجهي أمامي في المرآة، وقد كان كما لو أنه اصطدم بسيارة نقل ذات عجلتين خلفيتين. لا يزال الورم لم يترك وجهي على أن حجمه تضاعف قليلا، ولكن هناك ورم آخر ظهر أسفل رسغي وله دائرة زرقاء تدور حوله، وجفن عيني الأيسر متورم أيضا، وهناك جرح أسفله. إنني لا أشعر بأي ألم قادم من أي موضع من تلك الأماكن المنكوبة في وجهي، ولكن تلك الصورة التي أشاهدها لهيئتني تكاد تكون مفزعة، حتى إنني بكيت دون أن أعرف على ماذا أبكي..

وهذا يعني أنني قد تعرضت للضرب وأنا مغشيّ عليّ أيضا..

عجينة، ومحمد السمكري، لن يترك عقلي التفكير في هذين الاسمين.

سماح

إنه لمن المحزن والمؤلم لقلبي أن أراه في تلك الوضعية، حتى كاد قلبي ينخلع من موقعه عندما شاهدت مديح وهو يعبر من أمام نافذتي بهذه الهيئة وبلا ملامح وجهه تقريباً. لم يكن ذلك الشاب سوى مثال للطموح والنبوغ، ولكنه لم يأخذ حقه.

روت لي إحدى صديقتي ذات مرة، أن مديح عندما كان يزورهم بالمنزل ليقابل شقيقها، قد تعللت بأنها لا تفهم إحدى مفاهيم مادة الرياضيات لكي تدخل عليهم وتراه بحاجة أنها تحتاج لأخيها كي يفهمها تلك المسألة، وأنها عندما عرضت المسألة على أخيها تحير جداً بها، ولم يستطيع حلها، في حين أن مديح قد أخذ منه الكتاب وقتها وأخذ يشرح لها تلك العملية الحسابية كما لو كان مدرساً في مدرستها الاعدادية، على حد وصف صديقتي بالطبع.

تقول صديقتي إن كل ذلك التفوق الذي كان عليه دون أن يساعده أحدهم، أو يعطيه أحد المدرسين ولو نصيحة مجانية وليس درساً خصوصياً. وتلك الفتاة.. صديقتي التي احتاجت إلى الشرح كانت من بيت ميسور، وكان يأتي إليها المدرسون حتى المنزل في جميع المواد. كنت أشاهد هذا بعيني؛ فقد كانت صديقتي تلك مقربة من شقيقتي الكبرى.

إنه أيضاً رجل بحق، ولا يستطيع أحد أن يقول فيه عكس هذا، على أنه في السنوات الأخيرة أصبح منظوياً أكثر، ولا يختلط بكثير من أهل المنطقة، كما كان في السابق. يودهم جميعاً ويقف معهم جميعاً في الحزن قبل الفرح. على حسب ما أذكر.

لكن تلك الآونة يحدث له في كل يوم أمر جديد، منذ أن ذهب إلى الجيش وهو ليس طبيعياً، ومع ذلك فأنا لم أكتشف به أشياء جديدة على مدار عمري كما اكتشف منذ الأمس فقط. لم تظهر عليه مثل تلك الأشياء حتى وهو في أسوأ أحواله. ترى ما الذي حدث له.

حتى إن عقلي بدأ يتعب من تلك الأفكار التي لا تنتهي سواء كان في ذلك السارق زوجي، أو في ذلك الشاب الذي خرج عن السيطرة تماماً منذ الأمس. الفكرة التي تستحق مني التفكير الآن هي زوجي وابنتي، كما هو الحال مع أبة سيدة عاقلة في الدنيا. فمديح ذلك ليس أكثر من مكان صغير في القلب؛ يضيء في بعض الأوقات، فأسرح قليلاً مع الخيال، وأمضي قليلاً في بحر الذكريات، ولكنه في النهاية مجرد سراب لا يمكن أن يتحول إلى واقع أبداً. حتى وإن كنت أنا تلك المرأة السيئة التي تقوى على الخيانة، وأنا لست كذلك بالطبع، فهو أيضاً لم يستطع أن يراني طوال تلك الفترة الطويلة. فكيف سأترك بيتي وزوجي كي أفكر في تلك الأوهام.

لقد قلت تلك الكلمات لنفسى أكثر من خمس مرات سابقة، ومع ذلك أنا لم أمتنع ولو لساعة واحدة فقط بشكل كامل دون أن أفكر به، وأن يتطرق بها عقلي إلى تلك الأسئلة. بين ذلك الواقع المير وتلك الأوهام الفانية.

كنت قد فتشت المكان الذي ترك به "أشرف" تلك الأموال بالأمس، ولكنني لم أجدها، وقمت ببعض حملات التفتيش في بعض الأماكن الصالحة لتلك المهمة داخل الغرفة ولم أجد أيضاً، وهذا يؤكد لي أن زوجي عاقد النية على أن يخفي عني الأمر، ولكن عليّ ألا أظلمه، ربما تلك النقود ليست له، وليست سوى أمانة تركها عنده أحدهم وقد أعادها له اليوم. ليت الأمر هكذا. لارتحت من كل الأمور وهذا قلبي وارتاح. لكن هناك شك كبير يحتل القطعة الأكبر داخلها أن تلك الأموال قد حضرت إلى منزلها بطريقة خاطئة، وعليّ أن أعرف ما هي.

لا تزال الساعة الرابعة، ولن يحضر "أشرف" سوى في الثامنة. علمت ذلك حينما نظرت إلى تلك الساعة دقيقة الحجم التي أرتديها في يدي، وهي ساعة دقيقة الانضباط؛ التي يلتف حزامها الأسود حول ساعدي الأيسر. لم أتركها من يدي منذ اثنتي عشرة سنة مضت، حينما أحضرها لي والدي في عيد مولدي الوحيد الذي احتفلت به، والذي واكب فرحتها بالشهادة الإعدادية. قبل أن تمنعني والدي بشخصيتها القوية عن استكمال تعليمي، وقالت وقتها، حينما زاد عليها إلحاح زوجها، أي والدي الحبيب:

ماذا فعل من حصلوا على الشهادات، ها هم يملئون المقاهي والنواصي؟ في النهاية ليس للفتاة سوى بيت زوجها.

وكعاداته افتقر والدي إلى الحيلة في إقناع والدي أو جعلها تعدل عن قرارها. كنت وقتها طفلة حاملة، وأهم أحلامي كانت ذلك الحلم المستحيل، عن ذلك الشاب مديح، ابن تلك السيدة الجميلة أم مديح، إنها سيدة حسنة الهيئة، جميلة الملامح، فريدة المظهر. حتى إنني أسمع أحيانا أيضا عن والده، وأسمع أنه رجل ذو هيئة مميزة أيضا، عرف عنه في المنطقة في أثناء حياته بها -التي لا أعياها- إنه يشبه الأعيان، ونجوم السينما. لكنه لم يلبث كثيرا في المنطقة. لقد رحل في أثناء طفولة مديح تاركا سيرة جيدة، وعطرة.

لم يكن هذا ما جذبني ناحية مديح، لكنه كان الأهم، وهو أنني لا أزال أراه على أنه ذلك الطفل العنيد الذي لم يكسره ما حدث له ولإخوته وأمه، وعمل وهو لا يزال طفلا لدى رجل شرير له حانوت عند أول الوسعاية يصنع به بعض أدوات الزينة الزجاجية. على ما أتذكر لم يكن عمره قد تخطى التسع سنوات. وكان ما يدهشني هو أنه كان ملتزما ومنضبطا في مواعيد عمله، وكنت أنا في ذلك الوقت تلك الفتاة الصغيرة التي يوقظها والدها، قبل ذهابه إلى العمل لكي تحضر له الإفطار

من عند أبي حجر بائع الفلافل. لذلك فكنت أنا أيضا منضبطة المواعيد في الذهاب لأبي حجر كل يوم في الثامنة صباحا، وكنت أنظر إليه كل يوم وهو يحل أبواب الحانوت في الثامنة بالضبط.

لقد كان هو وبلا شك السبب الرئيس في أنني قبلت بتلك المهمة الروتينية اليومية اللعينة، محتملة ازدحام حانوت أبي حجر.. حتى أنظر إليه وهو يقوم بعمله قبل أن تتفتح جفونه.

ظننت لبعض الوقت في البداية أنه قد ترك المدرسة ولن يذهب إليها مرة أخرى، ولكنني تفاجأت حينما عاد الموسم الدراسي مرة أخرى أنه يذهب إلى مدرسته، ويساعد صاحب الحانوت الحاج شافعي في عطلة الأسبوع، وأحيانا أخرى بعد عودته من المدرسة. لقد لاحظت ذلك عدة مرات. وكبر الشاب على هذا الحال، وكبرت أنا أيضا، ولم أشاهد ذلك الفتى ينظر إليّ ولو لمرة حتى ولو لمحة، لم أفق أنا بها، فلقد كنت أترك له المساحة لهذا، ولكنه لم يكن يستغلها، أو أشعر أن أيا من مفاتيقي قد أعجبته مثلما يعجب بها جميع الناس في أثناء مروري من أمامهم.

كنت قد كبرت وعلمتني والدتي كيف ألتف داخل ذلك البرجد الأسود، وكيف أحزمه عند خصري. كما علمتني أيضا أن أنظر إلى الأرض ولا يتحرك وجهي أبدا تجاه أي صوت أسمعه يندفع من فم رجل أو شاب. علمتني أن الفتاة التي حصلت على التربية الصحيحة يجب أن تكون عينيها في الأرض ووجهها ثابت أمامها لا يتحرك يمينا أو يسارا. وقد كان لتلك الأم ذات الشخصية القوية الفضل في أن الناس جميعا قد اجتمعوا على أنني الفتاة الأكثر، بين كل الفتيات، تهذبا وحياء. وقد كنت أعمل بجميع نصائح والدتي في كل شيء، عدا شيء واحد وهو ألا أنظر داخل أعماق عيون مديح في أثناء مروره بجواري. هذا الأمر لم تستطع أبدا إجبار نفسها على فعله.

قبل أن أياس من هذا الحلم الذي كان يراوضني دائماً، بأن أتزوج ذلك الفتى مديح، وأن أترك تلك المنطقة، وأن أذهب معه إلى مكان راقٍ؛ من تلك الأماكن التي شاهدتها في التلفاز، وأسمع عنها من بعض أصدقاء والدي حينما يتحدثون إليه أمام المنزل. وقتها كنت أندفع نحو تلك النافذة الحديدية بالطابق الأرضي الذي كنت أسكن به مع والدي، وأسترق السمع لكل ما يقصونه عليه. وكأنهم يتحدثون عن عالم آخر لا أعرف عنه شيئاً. لقد كان والدي عاملاً باليومية في مهنة "النقاشة"، وأصداؤه إما مبلط أو بناء، أو أحد أفراد الطائفة بشكل أو بآخر. وكانت معظم الأشياء التي يبالغون بها هي تلك التي لها علاقة بالمباني التي يعملون على تشييدها. فلكي يظهر هذا مدى حرفته للآخر؛ كان يتحدث عن مدى الصعوبة التي صمم بها المهندس المبني الفلاني، وكيف صمم دوائره، وكيف تفنن في منحنياته، وكيف كانت أعمدته. ولهذا فقد كان يبنى خيالي الصغير من تلك الصيغ التي يبالغون بها مدناً وأحياء ومبانٍ. في حين كان يعلم والدي أنه مجرد كلام يقوله صديقه لكي يثبت حسن عمله ومدى فطنة عقله. أما أنا، فكنت أسكن بوحدات تلك المباني مع مديح في خيالي وأسرح معه في تلك الشوارع التي يصفونها.

كبرت وكبرت معي المعرفة والخبرة، وأصبحت أدرك أن العالم بالخارج ليس مختلفاً كثيراً عن عالمنا بالداخل. أو ذلك ما كنت أحاول أن أقنع به نفسي. فعلى الرغم من أنني نفضت بعض التفاصيل الطفولية التي كنت أشاهد بها تلك الأماكن في خيالي الصغير. فتصورت أن بعض الأماكن بها قصور بلاد العجائب الخاصة "بأليس"، وبعض الطرق الشبيهة بطرقات مدينة "أوز". لكنني حتى وبعد أن ألفت كل الأمور الخيالية، تبقى الحقيقة الصارخة هي أن عالمي لا يشبه ذلك العالم الخارجي بأي شكل من الأشكال. حتى وإن كان كلاهما لا يشبهون عالم الخيال في عقل تلك الطفلة آنذاك.

عندما وصلت لعمر الثانية والعشرين، كان لزاما عليّ أن أفكر جدّيًّا في الزواج. لقد تقدم لخطبتي بعض الجيران، وبعض المعارف، ولكنني لم أجِدْ بهم ذلك الاختلاف الذي أبحث عنه. فلقد كان أغلبهم يشبهون والدي، في طبيعة العمل وتحيط بمعظمهم الظروف نفسها. وبالطبع أنا لم أكن أريد تكرار الظروف نفسها، ومعاناة أمي التي كنت أراها بعيني تعاد مرة أخرى.

كان "أشرف" من بين كل من تقدموا لي هو الأنسب. فقد كان معه "دبلوم صناعي"، وتم تعيينه في إحدى الشركات الجديدة التي تسمى "شركات الأمن"، وكان قد قضى بها فترة طويلة يحرس المدن الجديدة البعيدة، وفي النهاية، تم نقله بعد أن أثبت كفاءته هنا في القاهرة، ويحرس بنكًا كبيرًا في منتصف البلاد بالزمالك.

حضر معه والدته وأخته الكبيرة غير الشقيقة، وأشقائه الثلاثة لخطبتي، عندما تم تعيينه في هذا البنك. يبقى أنه أهم ما ميّز "أشرف" بالنسبة لي هو أنه استأجر لنا شقة في منزل قديم في الوسعاية. وستكون بجوار مديح، وأستطيع أن أتطلع إليه يوميًّا، وأكثر من مرة.. كم كنت ساذجة وقتها! قبلت الزواج برجل حتى لا أمتنع عن رؤية آخر. وهذا تمت خطبتي التي لم تدم لأكثر من ستة أشهر فقط، وكنت قد أصبحت زوجًا لـ "أشرف". لا أدري لم لم يأتِ معه والده حينها مع علمي أنه على قيد الحياة، ولكن علاقة الأب بـ "أشرف" كانت معقدة قليلًا، أحيانًا أستنبط أن علاقتهم جيدة، وأحيانًا أخرى أجدهم لا يتحدثون بالعام والعامين. لكنني لم أسأل عن الأسباب، أو ربما نسيت أن أسأل؛ فأنا أتعاش مع عدم وجود هذا الرجل حتى من قبل أن أتزوج بـ "أشرف".

لكيلا أفترى أو أتجنى عليه، ولكي تكون شهادة أمام الله، هو لم يعاملني يوما بخشونة، ولم يدهس خاطري بشيء ولو بسيط. لقد كان دائم المناقشات معي، ولم يبخل بحنانه عليّ أبدًا، كنت على الرغم من ضيق الحال وعدم وجود ولو بادرة أمل

واحدة تبثني بتغير قادم، إلا أنني كنت أشعر بأمان معه على حاضري ومستقبلي. مما دعاني لمحاولة لفظ ذلك المرض الخبيث بداخلي المسمى "مديح"، ولقد أكثرت من المحاولات، ولكن لم تكن جدوى تلك المحاولات كبيرة. لكنني على الأقل أستطيع السيطرة على نفسي في كثيرٍ من الأوقات، لطرد فكرة خبيثة تحضر إليّ في بعض الأوقات، أو أقاوم نظرة عابرة له في أثناء مروره بجواري، سواء في الحارة أم من أمام النافذة. لم أشعر يوما أن حبه في قلبي قد تأثر بشيء أو تضاعل حجمه، بل كان في كثيرٍ من الأوقات ما يقوم ببعض الأفعال التي تجعل حبي له يزيد. فقد كنت أسمع أنه فعل هذا الشيء الجيد، أو وقف في وجه شخص من أجل آخر مسكين. وأشياء كهذه كانت تثير حماسي، وتجعلني أراه كما الأبطال. لكنني تعاملت معه على أنه أحد أبطال السينما، الذين أشاهدهم من بعيد عبر شاشة، دون أن أقرب منهم. أحلم بهم في أثناء الليالي وأتمنى، ولكنني أدرك تماما أنها في النهاية مجرد أحلام، ولن تتحقق، ولا أريد لها أنا أيضا إلا أن تكون سرابا.

من النافذة يأتيني صوت أمي بنبرته الرفيعة المزعجة التي تشبه الجرس:

"سبح" هل أنت هنا يا ابنتي.

أفتح النافذة بقوة على مصراعها لترطم أبوابها بالجدار الخارجي وتتوقف كأجنحة طائر وأنا أجيها قائلة:

نعم يا أمي.

كيف حالك يا ابنتي.. لماذا لم تمر بي اليوم؟

كانت من عادي أن أمر بوالدي كل يوم، وإن لم أفعل كانت السيدة ذات الصحة الجيدة هي من تأتي لزيارتي والاطمئنان عليّ، وما بدر عن "أشرف"، وانشغالي بأمر تلك الأموال جعلني لا أعرج عليها اليوم. فاعتذرت قائلة:

- أعتذر يا أمي، لكنني شعرت ببعض التعب، ولم أستطيع حمل "هالة" لفترة طويلة، ولذلك لم أستطع المرور عليك.
- ها قد أتيت أنا إليك يا قلب أمك.
- حسنا. لم لا تصعدي يا أمي؟ هل ستحدث من النافذة!
- أنت تعلمين يا قلب أمك.. لم تعد أمك قادرة لا على صعود ولا هبوط.
- كانت هذه كلمات والدتي المعتادة، والتي كنت أعلم من قبل أنها ستقولها، وأعلم أنها بذلك تستدعيني أنا لكي أهبط إليها، فجلس معاً أمام منزلي. لتحدث عن تلك الأمور المتكررة التي نتحدث بها كل يوم، ولكن لقائي بأمي هو شيء مقدس يومياً، كالصلوات الخمس، لا تستطيع أي منا أن تفوته. فأغلق النافذة في استسلام وأقول لها:
- حسناً.. أنا آتية إليك.

كانت والدتي بمثابة الصفعة التي تعيدني إلى الواقع كلما شردت منه. فأنتشل البرجد الأسود من فوق يد مقعد، لكم تمنيت استبداله بتلك العباءة المغلقة التي يحضرونها من الخليج. "ربما قريباً"، أقولها لنفسي كالعادة، وأضع هالة فوق كتفي وأتجه نحو الباب، ولن أنسى أن أمد يدي من فتحة صغيرة تركتها وأنا أغلق الباب لكي أغلق الضوء أيضاً. لأترك كل شيء غارقاً داخل الغرفة في الظلام، بما في ذلك مبلغ الثمانية آلاف جنيها التي لا أعرف عن أصلهم شيئاً.

كانت أمي تجلس داخل فتحة مربعة أمام مدخل البيت الأصفر، والذي يتدرج داخلها أربعة من الأحجار على شكل سلم، حتى تعوض تلك المسافة التي أحدثها الزمن بين أرضية الحارة وأرضية المنزل العتيق من تراكبات أرضية، والتي كان ارتفاعها يسمح بأن تجلس أم "سماح" باسطة أقدامها بالكامل داخل تلك الفجوة

المربعة، وتهزهما أمام عينيها وكأنها تتطلع إلى نعلها البلاستيكي ماركة "زنوبة" في شروود. تنتظري دون ملل، وهي تمضغ تلك العلكة التي لا تلقيها من فمها حتى وهي في أشد نوبات نعاسها.

أخطو فوق السلمة الأخيرة وأنا أطلع إلى الأرضية التي بها بعض الأماكن المبتلة، حتى لا أنزل أنا وابنتي التي أحملها في يد كالعادة، وأمسك بالعباءة المفتوحة السوداء -البرجد- في اليد الأخرى. بمجرد أن وصلت إلى أمي مددت لها يدي بهالة، وأخذت أتلحف بالبرجد قبل أن أظهر من المدخل لأجلس بجوارها، عندما كانت أمي قد أمسكت بهالة بين يديها وانهالت عليها بالقبلات والتأرجح، حتى إنها أخذت تلقي بها إلى الأعلى وتتلففها في حنان. وقد لحت لها بعض كلمات من نسج الخيال لم أتفهم منهم شيئاً، ربما هي أغنية من تأليف أمي. ثم نظرت لي في ارتياب بغتة وقالت:

- ماذا بك يا بنت؟ لماذا لم تمرى بي اليوم؟
- لا شيء يا أمي وحياة النبي.. كما قلت لك، شعرت ببعض التعب، وأن الطفلة أثقلت على ذراعي.. لا يمنعني عنك يا أمي سوى الشديد القوي.
- هل هناك شيء؟ هل زوجك أغضبك؟
- يدهشني سؤالها، حتى إنني أخذت أحقق فيها قليلاً قبل أن أسألها:
- لماذا هذا السؤال يا أمي؟ أنت لم تسأليني عن هذا من قبل؟
- لا شيء يا بنتي.. مما أصبحت أسمع من الناس.. إنها أيام سوداء.
- ماذا هناك يا أمي؟ لا تقلقيني بطريقتك هذه!
- لا أعرف يا ابنتي، ولكن كل واحدة من الجيران لديها شكوى شكل من زوجها، وأصبح هناك عديد من المشكلات، وكل ساعة "خناقة".. الناس تقتل بعضها يا بنتي

كما لم نسمع من قبل. الروح هانت يا بنيتي. والرجال تستيقظ بالأيام دون نوم محبوبون الشوارع بشكل غريب.

أعلم جيدا أن هناك عديد من العراك يصير يوميا في المنطقة، وقلما بلغ حد الجروح والكسور، وإن بلغت هذا الحد يحكي عنها الناس لشهور كاملة، وكان هناك من تخطت شهرتهم المنطقة في حرفتهم المتناهية في جرح الآخر بالمطواة أو بسيف مصنوع عند أحد الحدادين القدماء. إنما أن يصل الأمر للقتل! فهذا لم يكن يحدث سوى عبر أعوام وأعوام عندما يقتل أحدهما الآخر.

تستطرد الأم:

- ذلك اليوم الذي أحضرت لي أدوية الضغط، وبعد أن تركيني بها لا يتخطى الساعتين، وسمعنا اللهم أحفظنا جلبة وصرانًا ومن ثم عديد ونواح.

كانت تعلم "سماح" أن اليوم الذي تقصده أمها هو منذ ثلاث أيام فقط، ولذلك فقد انزعجت وهي تقول:

- يا ستار يا رب.. ماذا حدث؟

تستطرد الأم:

- اثنين من بيت زياد، تعاركوا مع ذلك الشاب عمر جارنا، وقتل منهم الولد واحدا. وملقى الآن بالحجز على ذمة تلك القضية، ولم يمض يومين حتى سمعنا عن أن آخر من عائلة البرغوثي، لم أعرف بعد من هو. قد قتل أحد العاطلين الذين يقفون عند ناصية الطريق العمومي. هؤلاء الأولاد الذين يتركون شعورهم لتغطي الأكتاف ويرتدون السروال ذي التعرجات الكثيرة بجوار الجيب.. قال يا بنتي على الموضة؟!

أضحك قليلا من طريقتها وأقول:

- هم يضحك، وهم يبكي. يا أمي.. والنبي يا "أما" عندك الحق، ويرفعونه حتى يقارب صدورهم.

- ماذا حدث للناس، والآن وأنا قادمة سمعت أن هناك قتيلاً آخر، ولكن لم تأتِ التفاصيل بعد.. أنت تعلمين أمك يا بنت، نشرة أخبار المنطقة.

تضحك "سباح" وتقول: اعلم يا أمي.. أعلم

ألمح نافذة مديح التي تنفتح ببطء، ولقد حرصت أن ألتخذ مكاني بجوار أمي وليس أمامها حتى تكون نافذته أمام عيني. يطل من النافذة وكأنه لص في أحد أفلام برنامج اخترنا لك. تلك الطريقة الغريبة التي يتحرك بها وتلك الأفعال الغريبة.. أنا لا أفهم ماذا به؟

تقول أمي بعد أن أخذت جرعة أخرى من القبلات التي تدمرت منها هالة وكادت أن تبكي: المهم يا بنيتي أن تنتهي إلى حالك وإلى زوجك في هذه الأيام.. الشيطان يا بنيتي يجوب الطرقات، ونحن لسنا من مفتعلي المشكلات.. إننا أناس في حالنا، لا نعتدى على أحد ولا يعتدى علينا أحد.

- حاضر يا أمي.. أنت أيضاً انتهي إلى حالك.

تنهض المرأة القوية على أقدامها مدعية أنها آلتها، وهي تقول بعد قليل من التأوهات: سوف أعود أنا إلى المنزل.. أصبح والدك وشيكاً على العودة.

- انتظري يا أمي سوف أذهب لعمل كوين من الشاي.. لا يزال مبكراً.

تبتسم ثم تتخذ طريقها وهي تردف:

- تركتك بالعافية يا بنيتي.

اختلست نظرة أخرى نحو شرفة مديح التي كان يقف بها وكأنه يترقب شيئاً ما، أو شخصاً ما، وعندما تلاقت عيوننا بغتة دون أن يكون ذلك في الحسبان، أشحت البصر على الفور، حتى إن تلك الحركة المبالغية التي قمت بها قد لفتت انتباهه، وأنه قد لاحظها. فلملمت ملاءتي وانطلقت أهرول نحو السلم عائدة إلى غرفتي في

حرج.

الليلة الثانية

مديح

السماء ملبدة بالغيوم، كلوحة زيتية قديمة وباهتة تجمعت السحب الثقيلة، وتبدو الصورة بالكامل قائمة في كل نظرائي. عندما كنت أطلع إلى السماء من نافذة منزلي، ولا أعلم أنا شخصيا إن كنت راقدًا أم مستيقظًا. فوق مقعد صغير من الخشب كالذي يستخدم على المقاهي ألقيت بجسدي باسطة قدمي على سور الشرفة. يبدو المشهد بالنسبة لي كتيب أكثر من ذي قبل، ومن ذي قبل كتيب أكثر مما كان قبله. وهذا ما دفعني إلى إحساس أكبر بالغضب ينبع من ملل سيطر على كل كياني، وبالأخص تلك الصور التي تنقلها لي عيني؛ بألوان قائمة. أتمنى لو أن بيدي أن أغير هذا عن طريق التفكير في ذكرى أسعدتني، أو موقف أضحكني، ولكن تلك المواقف كانت دائما تنتهي لتتحول إلى كابوس، عندما يذكرني ذلك المشهد المضحك بشيء أزعجني يتزامن معه؛ ربما في الوقت نفسه أو اليوم نفسه أو الساعة نفسها، وحينما أتذكره يكون عقلي قد عاد مرة أخرى إلى هذا الإحساس بالانزعاج والقلق، حتى ينتهي بي في النهاية إلى.. الغضب. فأخذ الغضب في خاطري ينصب أكواما فوق أكوام. وفي النهاية يفتل بالكامل فوق كوم واحد يسمى "محمد السمكري".

هذا الأمر لا يجب أن يمر هكذا.. هذا لأنني أحاول جاهدا أن أعرف سبب كل هذا الحلق الذي أشعر به، وأسباب الغضب النابع من هذا المكان الذي لا أعلم أين يكون بداخلي، وتلك الأعصاب التي قفزت داخل أطرافي حتى أظهرت عروقي الخضراء النافرة أسفل كساء ساعدي الذي كان ممدودا بجواري أعلى السور. فلم أجد أي أسباب أخرى.. تعود جميعها على "محمد" السمكري، هو السبب الرئيس

خلف كل ما أشعر به، ولا يجب أن يستمر هذا الشعور كثيرا.
بعد أن أخذت وأعطيت، وصدت ورددت مع نفسي لبرهة قررت أن أنهض.
فلملت أطرافي ووضعتها فوق ركبتي وأخذت أدفع بظهري ليستقيم عوده ثلاث
مرات متتالية حتى نهضت في الدفعة الرابعة. اتجهت ناحية الخزانة، وأسفل بابها ذو
المرايا سحبت درجًا ذا مقبض. إنه الأكثر خصوصية في المنزل بالنسبة لي.
لم يكن بذلك الدرج سوى بعض أوراق تراصت فوق بعضها بعضا، ويرقد
أعلاها سيف ذو سلاح من الصلب، ومقبض على هيئة تين من الألومنيوم. سحبه
على الفور ودفنته داخل سروالي تاركا مقبضه ظاهرا من أعلى الحزام. واتجهت نحو
الباب.

عجينة.

لم تهدأ قطرات المطر كثيرا هذا اليوم، وحتى حينها كانت تهدأ يظل هناك بعض
قطرات تتساقط على فترات. بخلاف تلك القطرات المسيلة مغمسة بالأتربة فوق
وجوهات المنازل الملوثة بكل أنواع الغبار. لكنها على كل حال لم تكن شديدة أو
غزيرة، كما كانت بالعام الماضي. إنها أيام، الله لا يجعلها تعود. لقد سقطت لتلك
الأمطار المنازل، وانهارت الطرق. حتى إنها أزهقت عديداً من الأرواح أيضا. أتذكر
أنني سمعت ذلك في نشرات الأخبار في التلفاز أو من أحد في المقهى، وتلك كانت
من المرات القليلة التي أسمع بها أخبارًا إن كنت سمعت بالفعل، فأنا لا أهوى سوى
كرة القدم وكفى. أما عن تلك الأمطار فحتى وإن كانت أقل خطورة من سابقتها،
فتبقى الأرض غارقة بفعلها، وهذا ما يجعلني أضطر للخروج من أسفل تلك

السيارة كل عشر دقائق حتى أجفف تلك الوسادة الجلدية التي هي في الأساس دعاسة لإحدى السيارات. وأنفضها في حقن ثم ألقي بها مرة أخرى أسفل تلك السيارة وأرقد فوق الوسادة على ظهري وآخذ في طرق جسم السيارة. عمل تتجمد له الأطراف في هذا الطقس الصعب.

صوت أم كلثوم يطرب المكان بالكامل من حولي، وهذا المصباح -أصفر الضوء- الذي يتأرجح أعلى رأسي مع الهواء، ولا تتأرجح معه نظراتي بالطبع من شدة تركيزي على هذا المكان الذي أطرق عليه. كركعة النرجيلة تأتي مع ألحان الغناء ويصحبها صوت دندنة الأسطى "محمد السمكري". الذي لم يتحرك من أعلى ذلك المقعد منذ الصباح، وكأن الليلة هي عيد مولده. تاركا كل شيء فوق رأسي. من اليوم مثله؟! الحى بالكامل يتحدث عنه وعن تلك العركة التي خضتها معه صباحا.

يباغطني صوت تحطم النرجيلة فوق الأرض، وتندرجح باتجاهي قطعة من الفحم المتوهج أسفل السيارة، كانت ضمن "تعميرة" الأسطى. فانتفضت من أسفل السيارة لأعطي المساحة لعيني لكي تصف لي ما يحدث. لكنني لم أكد أظهر كتفي من أسفل السيارة حتى قبضت عليهما يد قوية سحبتني من أسفل السيارة وألقت بي فوق الأرضية المبتلة عند مدخل الورشة.

بعد أن ارتطمت رأسي في الأرض، وأخذت عيناى تدور قليلا بين محجرها، ثبت نظراتي في الاتجاه القادم منه، ووجدت مديح يقف بجوار تلك السيارة هناك، ومن هناك ألقى بي إلى تلك الأرض على ما يبدو، فماذا بعد؟ تلك بداية فقط؟ فماذا أفعل؟

بالطبع اتخذت وضعية الهروب وأنا أعود بأقدامى إلى الخلف محاولا الابتعاد قدر الإمكان قبل أن أنهض على الفور، في حين لمحت الأسطى وهو ينهض هناك، بجوار جدار الورشة الجانبي، ورأسه تنزف كثيرا من الدماء، فعلى ما يبدو أن

الترجيلة لم تتحطم فوق الأرض، وإنما فوق رأس السمكري. إلى هذا فطنت من مظهره الملطخ بالدماء.

لكنني شاهدت "مديح" وهو يندفع نحوه بكل قوة ويركله ركلة قوية تعيد به إلى الجدار مرتطمًا ثم يستلقي مرة أخرى في مكانه السابق نفسه. من ثم يقطع ثلاث خطوات إلى حيث ذلك المقعد الذي كان يحتله الأسطى. وأمسك طاولة معدنية صغيرة مجاورة للمقعد كانت تحمل فوق مسطحها صينية مستديرة عليها "خمسينة" شاي وكوب ماء. سحب مديح تلك الطاولة مصحوبة بصوت تحطم الكوبين في الأرض، ومن ثم عاد بها ليتجه إلى السمكري.

نهض السمكري على وجه السرعة واندفع في قوة نحو الطريق المؤدي إلى الوسعاية، ولقد كانت الدماء تقطر من رأسه مع كل خطوة يخطوها، ولكن مديحًا قد لحق به وضرب بمنتهى القوة ظهره بمسطح الطاولة. فخر السمكري على ركبتيه متألمًا. بجوار الرصيف العالي الذي ينعكس معه مدى ميل الأرض أسفل تلك العمارة الضخمة التي يقطن بها عائلة البرغوثي، والتي تتدلى من أحد نوافذها امرأة في منتصف العمر. كانت تشاهد ما حدث، وما أن شاهدت الطاولة وهي تصطدم بظهر السمكري، وما أن سمعت صوت ارتطامها وانتفضت على إثرها، حتى أتبعته بكثير من الأصوات التي تصيح وتصرخ وتستنجد.

لم يعط لها مديح بالا، ولا لتلك الأصوات التي تنبئ بأن نوافذًا كثيرة وشرفات بدأت تنفتح على مصراعيها. في حين دفع هو الطاولة هذه المرة ليضرب رأس السمكري، ويدوي صوت الارتطام في المكان كله. تبعه كثير من الصراخ من تلك النسوة في النوافذ، وأصوات خطوات أقدام تقترب من كل مكان.

أنهض على الفور، تلك هي الفرصة المناسبة، وعليّ أن أثبت لجميعهم أنني رجل بحق، وأمحو تلك الفكرة عن لفتى الصغير من رأسهم، عليّ أن أتخذ مكاني بين رجال

المنطقة، والأشقياء منهم أيضا، فأخذت أصيح وأسب حتى ضاع صوتي وسط جلبة الناس التي تجمعت، وضاعت كلماتي أيضا، وسط كلمات كثيرة تخرج من أفواه أكثر من حولي كلها تسأل "ماذا حدث؟"، ولكنني كما لو انقطع لساني، وخرس صوتي فجأة حينها وجدت مديح ينظر إلى ويحاول اختراق الجموع ليطالني. ربما عدت ذلك الفتى الصغير مرة أخرى، بعدما تصورت انني قد تخلصت منه وإلى الأبد.

يأتي صوت الحاج "سامح البرغوثي" منقذالي، وهو يقول بصوته الخشن بعدما عبر مدخل بيته نحو الخارج بملابسه الداخلية وكأنه كان يأخذ حمامًا وانطلق على غفلة منه:

- اصمت يا بني أنت وهو، جميعكم يخرس. واقطعوا النفس!

لكن مديحًا لم يتوقف وأخذ ينازع تلك الأيادي التي كانت تمنعه من الوصول إليّ في إصرار، حتى وجدت الحاج "سامح" أمامه، فهو "سامح" على وجهه بصفعة قوية وهو يقول:

- ألم أقل اخرسوا جميعكم ماذا هنا...

قبل أن يتم عبارته كان مديح قد أعاد إليه صفعة أقوى وتبعته ركلة ألقته ثلاثة أمتار على إثرها، فتفتحت الصفوف المحيطة به وقتها وسط صيحات استنكار واستعجاب، واتسعت دائرة الجموع وهو يخطو نحو الحاج الذي ملأت عينيه الدهشة، ومديح يتقدم نحوه بثبات وغضب ليستكمل صفعته وركلاته. في حين ظلوا جميعًا يميلقون بوجهه باستغراب لا يقل عن دهشة الحاج سامح.

لم أتصور ولو للحظة أن هذا يمكن أن يحدث، إن الحاج "سامح" لديه أحفاد أكبر من مديح كثير، وهو كبير العائلة الأكبر في المنطقة، ويملك أكبر نفر وعتاد في المنطقة، ولم تطرق على رأس أحدهم يوما فكرة أن يعادي أو يتعارك مع تلك العائلة، وهذا ليس فردا عادي منها انه كبيرهم.. كبيرهم الذي لا يستطيع احد النظر اليه

بنظرة لا تروقه فقط، وليس صفعه. إنهم يتحكمون بما يشاءون في المنطقة وقتما شاءوا. أنا أيضا لم أترجع، بل إنني أشاهد مديح وهو يتقدم نحو الحاج، فأسأل نفسي هل أصمت؟ أم أتحرك؟ وعلى الفور اتخذت الخيار الأول.

من أول الشارع الواسع نسبيا، وعند ناصية منزل البرغوثي يظهر حسن وشوكت وعطية صغار أبناء الحاج "سامح"، يركضون وهم يضعون في أفواههم ذبول جلابيبهم ويدهسونها بأسنانهم، أعتقد أنه لم يكن خبر والدهم قد وصلهم بعد، وأنهم قد حضروا من المقهى عندما سمعوا الصراخ فقط، ولكن تزامن ظهورهم مع صفقة مديح لوالدهم، فاندفعوا بقوة أكبر نحو مديح قبل أن يصل إلى والدهم. والتحق به عطية أولا بأن قفز واحتضنه قبل أن تلامس قدميه الأرض فارتطم الاثنان بالأرض في قوة، فقد كان عطية شابا في الخامسة والعشرين، ولم تفعل والدته طوال تلك السنوات الطويلة سوى أن تقوم بعلفه باللحوم، ولا يقوم إخوته سوى بالتلذذ في شقائه بالعمل، حتى إنه اعتاد الشقاء وأصبح يزيده بالذهاب إلى صالة ألعاب القوى وكمال الأجسام، من أجل أن يحمل الحديد كما قال له والده. فكان أصح من أخويه. حتى إنه حينما ارتطم بمديح أرضا نهض على الفور قبل حتى أن يعي مديح أنه قد سقط.

لكن عطية على تلك الصحة التي تنضح من كل عضلة من جسده كان يهوى تقليد والده بوضع المقعد عند ناصية فرش الفاكهة، ويضع بجواره النرجيلة ليكركر بها ويقول له الصبيان يا معلم عطية. فعندما نهض أخذ يلتقط أنفاسه لاهثا ولم يكمل هجومه على مديح الذي أخذ الفرصة لينهض على مهل. في حين علا صوت الحاج "سامح" يقول:

اقتلوا ابن الكلب هذا.. اقطعوا نفسه.

لكن كانت أنفاس أبنائه هي التي انقطعت. فلقد أخذ كل منهم يركض لأكثر من خمسمائة متر تقريبا من مقهى الحاج عرفة وحتى هنا، ولقد أرهقوا أنفاسهم مع آخر تلك الأمتار حينما وجدوا والدهم في ذلك الموقف، فكانت المبادرة هذه المرة من مديح الذي مد يديه نحو سيفه المعدني وأخرجه من سرواله بحرفية، وأخذ يتظاهر بأنه يطعنهم أو يقطعهم فيتراجعون أمامه وما أن يكف عن الحركة للحظة حتى يعودوا ليقتربوا مرة أخرى في تردد فيعاود هو الكرة.

في إحدى هذه المرات التي كان يكر فيها ويفرون أمامه توقف بغتة فتوقفوا. فتحرك على الفور وأصاب عطية في رأسه بنصل سيفه، وأخذت الدماء تسيل من رأس الشاب الذي وضع يديه عليها ونظر نحو مديح مذهولا ومن ثم سقط أرضا مغشيا عليه عند رؤيته الدماء السائلة من أعلى هامته.

بعد ما شاهدته الآن نفضت وجهي وأنا أحاول أن أستفيق من تلك الحالة من الوجوم التي أصبحت عليها. وأخذت أتوارى بين الناس حتى لا يتذكروني مديح مرة أخرى، إن ما يقوم به الشاب الآن ليس طبيعياً، فهذه المرة لن يمنعه أحد عن الوصول لي. في هذا التوقيت كان مديح يتقدم نحو جسد عطية المستلقي على الأرض بلا حراك، ويحيط به عن طريق الإشاحة بسيفه يمينا ويسارا بألا يقترب أحدهم من جثمانه. أنا أفهم جيدا في الشقاوة، وباسترجاع بعض قصص الأشقياء الذين كنت أحب مجالستهم؛ يجبرني عقلي بأن موقف مديح الآن أقوى كثيرا من موقف أبناء البرغوثي، إلا إذا تحلى أحدهم عن حذره وقام بمغامرة هجومية. كما كنت أعلم أن شوكت هو من سيقدم على تلك المغامرة إذا حدثت، فهو أكثر أبناء البرغوثي اندفاعا وتهورا.

يملك الحاج "سامح البرغوثي" من الأبناء سبعة، أربع منهم رجال كبار، أصغرهم في عمر الخمسة والثلاثين. وأكبرهم بعمر اثنين وأربعين، ومن ثم وبعد

فترة طويلة تجاوزت العشر سنوات أنجب ثلاثة آخرين، وأكبرهم هو عطية، وأحبهم إلى قلب الحج "سامح". إنه ذراعه اليمنى في كل شيء، فكان يفضلهم عن كبار أبنائه وعن صغارهم أيضاً. حتى حينما أنجب شوكت، تصوروا جميعاً أنه سوف يسرق ولو قليلاً من حبه لعطية، ولكن هذا لم يحدث. إن عطية في قلب "سامح" مختلف عن أي شيء في الحياة.. إنه الحياة نفسها بالنسبة له. لذلك فلم أتعجب من تلك الصيحة التي صاح بها الحج "سامح":

عطية.. اقتلوا ابن الكلب هذا.. إما أن تقتلوه أو أقتلكم أنا بيدي.

ما أن قالها حتى تحرك شوكت قافزاً باتجاه مديح واحتضن يده التي تلوح بالسيف، والتفت يدا شوكت حول ذراعي مديح وأحاطت به حتى شبكها خلف ظهره عندما شعر شوكت بأن مقاومة مديح قد قلت، وقد هدأ جسده قليلاً في تلك الفترة التي وقف يحرس بها جثمان أخيه. فأخذ يغلق يديه بكل قوته حول مديح في انتظار تقدم حسن. لكنه شعر أن مقاومة مديح أخذت تزداد في سرعة، ومحاوله الإفلات من بين ذراعيه أصبحت قريبة النجاح، فأخذ يقول صائحاً:

يا حسن.. اضرب يا ابن الكلب.. اضرب يا جبان يا ابن الكلب.

ما أن سمعها حسن حتى تحرك كما لو أن أحدهم قد استدعاه من العالم الآخر، وقفز بكلتا يديه فوق رأس مديح الذي ترنح قليلاً قبل أن يضربه حسن مرة أخرى بالقوة نفسها. لكن هذه المرة لم يترنح مديح، بل أخذ يزجر ويزفر اللعاب مع أنفاسه وهو ينتزع جسده من بين يدي شوكت، ومن ثم هوى على رأس شوكت بهامته فألقاه أمامه خطوتين محرراً بذلك نفسه من بين يديه.

مع اندفاع جسد شوكت إلى الخلف اندفع الناس جميعاً نحو جسد مديح ليقيدوه، كما لو كانوا جميعاً قد استفاقوا في لحظة واحدة من نوبة دهشة طويلة. في تلك الآونة اندفع شوكت بكل غضبه، ولكمّ مديحاً لكمة قوية على راسه فأرجعته

للخلف حتى اصطدم بالجدار، وكذلك فعل حسن حيث كان موقعه قريباً من الجدار، فلقد جهز قبضته وما أن ارتطم مديح بالجدار حتى هوى بها على رسغه هو الآخر. ثم اندفع الناس أجمعين لكي يكثرُوا من الأيادي التي تتملك من مديح حتى ثبته بالجدار غير تاركين له فرصة للنفس حتى، وأعصابه تكاد تنفجر، وهو يتزحزح قليلاً على الجدار بين أيديهم حتى فقد الأمل في النجاة من بين قيديهم فكف عن الحركة.

كانت في تلك الآونة أهمُّ بالعدو والفرار من المنطقة كلها، ولكنني تراجعت عن ذلك عندما شاهدتهم يتملكون من مديح. وسمعت الحاج "سامح" يقول:

- قيدوه ابن الكلب.. أنا سوف أشرب من دماء من أحضره إلى الدنيا.

أعقبته بعض التصفيفات على الأيدي، وأقاويل مندهشة من كل نوع، وجميعهم يتعجبون مما حدث، غير مصدقين أنه حدث. بينما تسللت أنا من بين أجسامهم وأصواتهم المتضاربة. في حين سمعت صوت الحاج رأفت الذي قال مواجهاً الحاج سامح:

- لا يا عم الحاج.. الله لا يرضى عن الظالم. ثم إنك لم تغلبه، ومن لم تكن له الغلبة فلم تحكم بالعاقبة؟ مالك أنت وشرب دمائه، هل كسبتها لتستحلها؟

- ماذا تقول يا رأفت؟ دماء أبنائي مسالة على الأرض.. وتطلب الصفح عن دمائه؟

- أقول لك أن تطمئن على ولدك الملقى على الأرض في عرض الطريق أولاً يا حاج.

كما المصدوم توقف الحاج "سامح" قليلاً، ثم قال وهو يتجه نحو بيته:

- أحضرا أخاكما واتبعاني.

فحمل شوكت وحسن عطية على أكتافهما وقد بدأ يتحرك بين يديهما، وتبعهما

والدهم في حين قال الحاج رأفت:

- وأنت يا مديح يا ولدي الله يهديك.. فوق لنفسك قليلاً يا ولدي.

قبل أن يكمل الحاج رأفت كلمته كنت قد قفرت فوقهم جميعاً وهويت بحجر
ثقيل فوق رأس مديح فأسقطته أرضاً. أعقبتها صفة واهنة على وجهي من الحج
رأفت، ووبخني ببعض السباب واللعنات، ومن بين الجمع ظهر "مندو"، ومعه
"حوده" فشغلاه عني، وقال الأول للحاج رأفت:

- سوف نحملة إلى منزله.. بعد إذنك طبعاً يا حج..

- الله يكرمك يا ولدي.. ربنا يكتبها لك في ميزان حسناتك.

ثم يشير رأفت إليّ قائلاً:

- أما الكلب ابن الكلب ده فأنا سوف أتصرف معه..

فيتجه "حوده" وعماد وجمعة ومعهم "مندو" لحمل مديح الذي كان غارقاً
بالدماء. كل ما يقوله رأفت ليس له تأثير الآن، إنه رجل كبير وذو كلمة مسموعة،
وليس من العيب أن يوبخني، ولن أنتبه حتى لكلماته، فما فعلت يستحق الاحتفال،
خاصة حينما حملوه الآن أمامي، ودمأؤه تسيل. أنا من جعلها تسيل.. تسيل دماء
الشاب الذي صفع الحاج سامح، وجرح عطية، سيكون اسمي أنشودة تتغنى بها
النواصي غداً. كما أنه قد طحن عظام السمكري في لحمه ودمه، وسيتذكر دائماً أنني
من أخذت بثأره ولن يتحدث عني باستخفاف مرة أخرى، ولن يقول عني لزبائن
الورشة سأرسل لكم الولد، أو يرسلني إلى المقهى لكي أحضر طلباتهم، غداً سيكون
هناك عجيبة آخر، ستتحدث عنه الألسنة بشكل لا تُق; يرضيني هذا إلى حد كبير.

حتى إذا لمحت الجمع بالكامل وهم يتشبتون في أماكنهم، حتى من يحملون
مديح، وينظرون جميعاً إلى مدخل الشارع، والدهشة تملو جميع الوجوه.

سماح

مع الثامنة عاد "أشرف"، فأنا خير من يعرف خطواته على السلام، ومن ثم هزة الأرض أسفل أقدامه وهو يخطو في الصالة الفسيحة. يدفع الباب الذي كان مفتوحاً مسبقاً، فأنا لا أهتم بغلقه بما أنني ليس معي جيران في ذلك الطابق. فأضع بجواري على الفراش ابنتي بعدما أشبعتها وهنأتها فنامت وتعمقت بالنوم.

فيقول وهو يتجه نحو تلك الوسادة كالعادة:

- كيف حالك يا بنت يا "سماح"؟

- كيف حالك أنت "أشرف"؟

- ماذا طهيت لنا اليوم؟

- ملوخية وبعض أجنحة الدجاج.

- إذن فلتلحقيني بها.

- حالا.

ينهض ويتجه نحو خزانة الجدار المجاور للباب، ينزع عنه ثيابه، ويمسك برداء

قديم ينام به، وقبل أن يرتديه تراجع وهو يقول لي:

- سوف آخذ حماماً أولاً.. ضع لي الوابور بالحمام.

لظرف كهذا حرصت على أن أشتري اثنين من "الوابور" حتى يكون هناك

واحد لغلي الماء فقط في الحمام، لما له من قدسية لدي، وآخر للطبخ. فنهضت واتجهت

نحو الحمام أجهزه له وأنا أبحث عن مدخل يجعلني أعرف منه قصة تلك النقود التي

انشغلت بها منذ شاهدها، وشغلني أكثر تكتمه على الأمر.

أفتح باب الحمام وأتناول الوابور وأشعله بحرفية، ثم أضع فوقه قدرًا كبيرًا، كنت قد فتحت فوقه صنبور الماء مسبقًا، ووضعت فوق الوابور وأحضرت مطفأة السجائر، فلقد كنت أعلم أنه في مثل هذه الأوقات يحضر معه لفافة حشيش يجب تدخينها في أثناء ارتداء ملابسه بعد أخذ حمامه. من ثم عدت مرة أخرى إلى غرفتي قائلة لـ "أشرف" الذي كان مغلقًا أجفانه في ملابسه الداخلية، مستلقيا فوق تلك الوسادة:

- لقد رتبت لك كل شيء.. شغل فنادق.

- فيبتسم ويتحمس وهو ينهض وكأنه ألقى بكل تعبته خلف ظهره، ويقول:
- لن أتأخر عليك.

- تحرك كتفها نحو الأعلى عدة مرات وهي تقول:
- أم تتأخر لن يشغلني..

- فيغمز بعينه قبل أن يفتح الباب وهو يضع المشفة فوق كتفه ويقول:
- ادخلي لي ملابسا.. لا تنسي.
- حالا.

أقولها بدلال في أثناء مراقبتي له وهو يخرج من الغرفة، وأتأكد من أصوات أقدامه أنه قد وصل إلى الحمام، ومن ثم توقفت عند باب الغرفة أتفحص الغرفة بالكامل بكل قطعة أثاث منها، حتى وجدت مقعدًا من اثنين بجوار الباب من الجانب المعاكس للفراش، وعلى وسادته كانت هناك آثار أقدام تاركة خطوطًا محفورة كما التجاعيد على واجهة الوسادة، فتفهمت أن أحدا كان يقف فوق تلك الوسادة من فترة قصيرة، وهنا أنظر باتجاه المكان الوحيد المرتفع في تلك الغرفة الذي لن تطاله يد "أشرف" وهو يقف على الأرض؛ وكان هذا المكان هو: "خزينة الملابس الكبيرة". فأخذت المقعد واتجهت نحو موضع يحمل آثار المقعد فوق الكليم القديم. ووضعت

ثم تسلقت ونظرت أعلى الخزينة لأجد لفافة النقود هناك، وعندما تفحصتها وجدت أن هناك حزمة جديدة من النقود قد وضعت داخل الكيس البلاستيكي، ولكنها لم تلتف داخل أوراق الجرائد مثل البقية، وتفهمت أنه بذلك قد أحضر مبلغاً آخر من المال، ربما هي ألف جنيه. هذه المرة أنا أعرف أنني لن أجد فرصة عدهم كما حدث في المرة الأخرى، ولكنني على كل حال لا أحتاج إلى تلك الفرصة، فأنا سأعرف اليوم مصدر تلك النقود.. وليس هناك بديل آخر، عليّ أن أعرف كل شيء عنها. قلتها لنفسني وأنا أتجه نحو خزانة الملابس وأخرج قميص نوم بلون أسود، سيظهر مفاتيحي عندما يكسو بشرتي البيضاء وأسدل عليه شعري البني الفاتح ذو الشعيرات الذهبية. حرصت أن يكون كل ما فكرت به قد تحقق على أكمل وجه، وأنا أمام مرآتي الصغيرة أتطلع إلى هيئتي المثيرة وأطمئن أنها ستروق له.

عيني الخضراء سوف تسحر لعينه لكي يطلعي على سره، وشففتاي الناعمة المطلية بأحمر الشفاه الفواح برائحة الفراولة سوف تهمس له في أذنيه لكي يقول، وأنفي سوف تطلبها منه مع كل نفس، ولن أتركه حتى يبوح بكل ما يخفيه عني. ثم أذهب باتجاه زجاجة العطر وأطلق منها بعض الرذاذ فوق بشرتي الناعمة بزيوت فواحة، أحضرتها من العطار صباحاً. وأرفع صدري بيدي حتى ينتفخ من فتحة القميص الضيق. ومن ثم أتجه إلى الوابور لأضع الطعام حتى يعود "أشرف"، ثم تعمدت عدم إدخال ملابس نظيفة له، ولم أجبه عندما أخذ ينادي باسمي.

يعود وقد استشاط غضباً، ويظهر غضبه على خطوة قدميه التي تكاد تجعل المنزل الأصفر يقفز من مكانه. فأنطلق لأقف بجوار الباب الذي دفعه الرجل ودلف للداخل واضعاً حول خصره المنشفة ويمسكها بيديه حتى لا تنكشف عورته. ويقول بغضب:

ألم أقل لك يا..

قبل أن يكمل، ظهرت له فجأة من خلف الباب وعانقته وأنا أمسك المنشقة من يده وألقي بها بعيدا وأقول:

أردتك بدون ملابس.

يتطلع إليّ بعين لمعت بها نشوة سيجارة الحشيش وأخذت تزداد رغبة ثم قال:

وها قد أتيت

لنتعشَّ أولا.

كما تأمرين يا عروس البحر.

لم يكد "أشرف" يصل إلى حد الإشباع، حتى سمعت أصواتا عالية وصياحا وصراخا، شغلني قليلا عما يفعل الرجل، والذي نظر إليّ معاتبا، فهممت لأعود إلى حالي معه، ولكن الصيحات تعالت أكثر وأكثر.. فقال "أشرف":

ماذا بك يا امرأة.

لا شيء، لقد فزعت لتلك الأصوات فقط.

ومالنا نحن بالأصوات.. ركزي معي أنا، وأنت تربحين.

في الحقيقة هناك ما يشغل بالي عنك.

قاطع ما يفعل ونظري في استياء وسألني في تشكك:

وما هو يا امرأة.

إنه أنت يا "أشرف" أيضا، وليس شيئا آخر.

أقولها وأنا أداعبه بفخذي قبل أن يغضب. في حين قلت شهوته بالكامل

فأضيف:

أنت تخفي عني شيئا.

يستلقي بجواري على الفراش ثم ينظر لي بابتسامة طمأننتي كثيرا، في حين

كانت تلك الجلبة والصراخ تتزايد موجاتها:

- أنت رأيتِ النقود.. يا ابنة العفاريت.

- لماذا أخفيت عني أن معك مثل هذا المبلغ.

- كنت سأخبرك بالطبع.

- متى؟

- في الوقت المناسب بالطبع.

- إنه الآن على ما أعتقد.

- أعتقد أنا أيضا أنه الآن. حسنا طيبي لنا كوبي شاي.. أفسدت لي ليلتي الله يفسد

عقلك.

أنهض متعمدة إظهار جسدي العاري من فوق جسده المستلقي فوق السرير،

وأمسك بيدي قميص النوم الأسود وأجلس عند حافة السرير لأرتديه، فهم ليعيدني

مرة أخرى فقلت بعتب:

- لم يكن عليك انتظار أن أعرف وحدي.

- إنها أموالك كما هي أموالي يا "سماح"، وكنت سأخبرك عنهم بالطبع.

أعيد هالة إلى الفراش في إصرار مني على عدم العودة وأقول:

- هيا قل لي وأنا أحضر الشاي.

نهض ليمسك بصندوق التبغ ويخرج منه لفافة، وبعد أن أشعلها ونفث دخانها

قال:

- إنه موضوع كبير.

- آيا كان.. أريد أن أعرفه.

- إنه طويل ومتداخل الأطراف، ململم من الشرق ومن الغرب.

- قص عليّ الأمر بالكامل.
- إنه واحد من معارف المعلم "ضاحي البرغوثي".
- أعرف أن "ضاحي البرغوثي" هو أكبر أبناء الحاج "سامح البرغوثي"، وهو المسؤول عن كل تجارة العائلة وكبيرها من بعد والده، وكلمته لها قيمة بين الناس حتى عن والده نفسه فتقول:
- وما علاقة المعلم "ضاحي" بالأمر؟
- ليس هو يا امرأة.. إنه صديق له كما قلت لك.
- يقولها وهو يتسلل إلى الوابور بجواري، ويفتح صحنًا كبيرًا أمامي ليلتقط منه قطعة من الدجاج ويبدأ في نهش لحمها وهو يقول:
- صديقه هذا على ما يبدو هكذا أنه يتاجر بالمخدرات، ولكن "ضاحي" يقول إنه دكتور.
- المهم؟
- المهم يا سيدتي، إن هذا الرجل قد اشترى أدوية من الخارج، ويجب أن يتخلص منها.
- وما دخلك أنت في هذا الأمر؟ هل قررت أن تفتتح صيدلية دون علمي؟!
- لم يكن لي دخل، وكف عن السخرية... كان الحظ هو من أرسل لي تلك الفرصة.
- ثم صمتَ قليلا عاقدا حاجبيه قبل أن يقول لي:
- أنت بالطبع تعرفين بعض أنواع المخدرات التي يتعاطاها الشباب في المنطقة.
- أسمع.. فتلك الناصية يومياً ما تباع بها وتشتري المخدرات، ويتجرعه الشباب الصغير بجوار النافذة يوميا.. هل هناك من يسكن حارتنا وهو لا يعرف أنواع المخدرات؟
- هل سمعتِ يوما بالبودرة.. التي يستنشقونها.
- آه لقد رأيتها في بعض الأفلام.

- في الأحياء الشعبية كما نحن؛ لقد وجدوا لها أنواعاً من الحبوب تعادلها، وتكون بديلة لها.. أنت تسمعين من يقولون أسماء كثيرة كابو صليبة، وأبو، وأبو.. إنها عائلة كبيرة.
- نعم، أسمع بهم.. حتى إنهم استخدموا "أدوية البرد" كبدايل، حتى نفذت من جميع الصيدليات. قالها لي الصيدلي ذات مرة.
- هذا الدواء الذي لدى "ضاحي" عبارة عن بديل جديد أرخص وأكثر تأثيراً وأطول مدى عن أي شيء آخر. اسمه "الاياتريل" ربما لديه اسم علمي غير هذا، ولكن أنا لا أعرف له اسماً سواه، على ما سمعت منهم. لم يشأ الرجل أن يظهر في الصورة في هذه الأشياء، على أنها لم يدرج اسمها بعد على قائمة المحظورات، فأخذ يبحث عن يشتري منهم كميات صغيرة، وأن يوزع تلك الكمية وإن احتاج مرة أخرى فسوف يعطي له حتى ينهي تلك الكمية الموجودة في خزائنه قبل أن يدرج العقار في القائمة، التي يعمل هو على تعطيلها.
- ولماذا كل هذا؟ لم لا يبيعهم هو؟
- لأن لديه شرط كي يتم الأمر.
- ما هو؟
- أن تدفع النقود نقداً، وقبل استلام الحبوب. بهذا يكون قد فعل ما قلت عنه، وباعها بنفسه. لكن ليس كل حبة على حدى، ولكن كميات كبيرة، وبهذا تتوزع على أكثر من شخص فيتوه صاحبها، وحينما تدرج على القائمة يكون هو خارج الأمر بالكامل. وإذا وجدوها في يوم من الأيام فيستطيع التخلي عنها ويكتفي بها جمعه من نقوده من خلال بيعها دون أن يمسك أحدهم عليه شيئاً. ملخص الأمر أن الرجل يريد حينما تدرج علي قائمة المحظورات أن لا يكون لها أثر على الإطلاق، وهو يعمل علي تعطيل القرار حتي ينتهي من بيعها، وينتهي من اشتروها من استهلاكها أيضاً.
- ومن أين أتيت بالنقود؟

- في البداية دفع المعلم "ضاحي" جزءاً، ولكن عندما رأيت ذلك المكسب الوفير الذي جناه، وعلمت من الذي أدى له المهمة بحثت عن يمولني.
- ومن مولك؟
- أم سعيد.. لقد أعطتني مبلغاً على سبيل السلفة في البداية ليست نقودها، إنها أموال جمعية تجمعها من بعض الناس. وفي المرة الثانية عندما أحضرت لها الأموال بالموعد طلبت مني أن أدخلها معي شريكاً.. هي من أخبرتني أنك تسعين خلفي.
- في دهشة حدقت إلى عينيه وأنا أسأله:
- هل تاجرت بالمخدرات هنا في المنطقة؟
- هنا في المنطقة؟! هذا كل ما يهكم.. لا يا سيدي اطمئني. لقد تاجرت به هناك عند البنك. مع بعض الموظفين الذين أعرف أنهم يتعاطون.
- تنهدت وكأنها ارتاحت من حمل أرهاقها، وقالت:
- بالفعل لقد اطمأنتت. أنا لديّ ابنة، ولا أريد أن تشوب سمعتها شائبة، وبالأخص في المنطقة التي سوف تتربى وتكبر بها.
- لذلك قد أعطيت "مندو وحوده" تلك الكمية التي اشتريتها بعدما لم يمشي الحال في البنك، ولكن الأمر قد نجح جداً مع "ضاحي" هنا، ولذلك فلقد أعطيتهم حصتي أنا وأم سعيد.
- أم سعيد.. تلك الخبيثة لقد كنت في منزلها بالأمس ولم تخبرني بشيء.
- ولماذا ذهبت.
- شعرتُ ببعض التعب فقلت لا أذهب إلى أمي اليوم، وأردتُ إخبارها بالتليفون. كما أنني سعت خلفك كما أخبرتك.

يومئ لي متفهما، ومن ثم قال:

- ولماذا تتصورين أنها سوف تخبرك؟ هذه "مصلحة كتيبي" لا أحد يصل إليه عنها خبرًا.. حتى أنت نفسك لا تتحدثي بالأمر مع نفسك مرة أخرى.

ثم أشاح بوجهه وهو يغمغم في همس:

- تقول لك عن ماذا يا امرأة.. إنها ربحت أربعة آلاف جنيهاً في عشرة أيام.
لكنني سمعت ما قاله وفسرته كما لو كان قاله بصوت مرتفع.

أيمن بك

لقد اجتهدتُ حتى وصلتُ إلى ما أنا فيه، متحدياً بذلك كثيراً من الصعاب التي لا وصف لها. كم مرة وقفت وسط فصل دراسي يضم أكثر من ثلاثين طالباً لأقول إنني سوف أدفع مصروفاتي مطلع الأسبوع القادم، وحينما يأتي القادم أتوسل لتركي إلى القادم. كم مرة كان عليّ تحمل تلك النظرات الخبيثة من زملاء الدراسة، كم واحدا منهم سَخَر من فقريّ مرة تلو الأخرى دون أن أُجيبه. حتى ذات مرة عندما اكتشفتُ أنني إذا لم أمتلك المال؛ فعليّ أن أمتلك القوة. لقد بدأ الأمر حينما كنتُ في الصف الثاني الإعدادي، وسخر أحدهم من سروال مهترئ كنتُ أرتديه، يومها أتذكر أن والدته نفسها لم تتعرف على وجهه. يومها عاقبني وكيل المدرسة، ولكني لمحت نظرة الخوف بعينه في تلك الأثناء وعلمتُ أن جميعهم يخافون حينما يكون لدي أنا ما أخيفهم به، ولأن الضغينة لم تكن هي السبب، والدفاع عن نفسي فقط هو السبب، فلقد اخترتُ أن أمتلك القوة من طريق آخر، بعدما استخدمتها كحق؛ لأكمل دراستي ولقد ساعدت حقاً. لم يصدقني أبي حينما كثرت مشكلاتي وعراكي في المدرسة وخارجها، إنني أفعل كل هذا لأنني طامعٌ في إكمال دراستي كبقية الطلاب، وقد كان أبي نعم الأب، عمل في صغره في مصانع الحديد والصلب، وفي حادث أليم فقد بصره، ولم يتبقَّ له ولنا سوى معاشه القليل.

من حب أبي إلى المطالعة، ورثت بعض الكتب الكثيرة، والتي كانت تسليتي الوحيدة في صغري، فلم أكن أحب الذهاب إلى أحد الجيران لكي أشاهد التلفاز، أو غيره من الأجهزة الحديثة التي كانت في بعض منازل حيّنا في ذلك الوقت، كما كان

يفعل بعض الأطفال، وكنت منذ عمر مبكر أُلجأ إلى تلك الروايات والقصص والكتب العلمية، مما كان يجعل والدتي تبكي في بعض الأيام التي أعود فيها من المدرسة ومعني شهادة منها بأنني أحد المتفوقين فيها، ولكن بعض ملابسي قد أصابها التلف من جراء معركة مع زميل أو اثنين ممن تنمّروا عليه.

فرحت فرحة عارمة عندما وجدت أنني أستطيع أن ألتحق بهذا المعهد الجديد المسمى بمعهد أمناء الشرطة، عندما فقدتُ الأمل في الالتحاق بكلية الشرطة. كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة التي أستطيع بها الجمع بين الشين المتناقضين بداخلي، وهما القوة والعلم. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تجعلني أستخدم قوتي تلك في مساعدة الناس، وأن أظل أمام نفسي هذا الشخص المجتهد الحالم، الطيب كما كانوا يصفوني جميعاً. رجل مجتهد، ويحترم الناس قدر الإمكان، ولقد خدمتُ أهالي تلك المنطقة لسِت سنوات متتالية بعدما عينت مأموراً لتلك النقطة الصغيرة في هذا الحي الصعب، وصارت بيني وبينهم عشرة عشرة طويلة، جعلتني أعرف كل واحد منهم، وأعرف دواخله، ومنهم من أعرف عنه تفاصيل دقيقة، لا يعرفها سوى أهله. كل هذا توصلتُ إليه بفضل اجتهادي وتحمسي الذي حملته بداخلي منذ أن كنت طفلاً صغيراً يرتدي بزة الضباط في الأعياد، ويتمنى أن يصل إلى مرتبتهم يوماً ما، وحيناً لم يحالفني الحظ للالتحاق بكلية الشرطة، والتي كانت تحتاج إلى واسطة مهمة كي أعبُر من خلالها. فلم أياس في حينها، دُرت على معظم أقسام القاهرة، وفي النهاية استقر بي الحال في تلك النقطة. منذ ست سنوات مضت. وحينها عرفتُ القرار الجديد الذي يتيح للأمناء إعادة الدراسة مرة أخرى والترقي إلى مرتبة الضابط.. لم أتردد لحظة واتجهتُ على الفور للدراسة، ولقد حصلتُ العام الماضي على شهادة الثانوية العامة، والتحقْتُ هذا العام بكلية الحقوق جامعة القاهرة.

أحببت دراسة علم النفس الجنائي والقانون الجنائي، وشعرت بنشوة عالية في دراسة تلك المواد؛ أثبتت أن الدراسة لن تكون ثقيلة، وأني سوف أعبر الأربع سنوات بدون تعطيل.

ومنذ أن حضرت إلى هذه المنطقة وأنا أتعامل مع جميع الناس بعدل ومساواة حتى أصبح ضعاف المنطقة يلجئون لي في محنهم ومشكلاتهم. ما أدهشني حقاً هو: لماذا شردت في كل هذا الآن؟ ربما الإجابة هي ما حدث اليوم صباحاً عند مقهى الحاج عرفة. ذلك الشاب مديح، هذا الفتى الذي لطالما عرفته مهذباً وحسن الخلق واللسان. ما الذي حدث له جعل هيئته تبدو بهذا المظهر، وكيف أصبح فجأة يشتبك مع العاطلين على النواصي والمقاهي. لم تكن تلك الأحداث لتتقبلها عقليتي التي أحببت دائماً البحث والتدقيق في الأمور، وساعدني على هذا أنني كنتُ منهم، وعشتُ طفولة شبيهة ليست بعيدة عما يقاسونه، ويعانون منه هم الآن. لهذا فلقد تواصلت صباحاً مع أرقام السجل المدني، فلدي صديق يعمل هناك، وأخذت أرقام الوحدات التي تتوزع على الشرطة العسكرية، وتواصلت مع وحدته. ولقد أخذت موعداً للحديث مع المسئول بعد الغد. ذلك الفتى يستحق المساعدة. وأنا لن أبخل بها عليه. أسمع صياح طفل صغير وهو يعدو من أمام النقطة، ويصيح بصوت عالٍ بأن هناك معركة كبيرة ويذكر مكانها تحديداً. مما جعلني أنطلق عدواً قاطعاً تلك الحديقة الصغيرة بين مبنى النقطة وبابها، وأصيح منادياً على ذلك الفتى الصغير قائلاً: ياسين.. تعال هنا.

انتبه الطفل إليّ بعد أن سمعني أنطق اسمه واتجه إليّ على الفور. كنت أعرف الفتى الصغير، إن والده هو فتحي اللبان، وهو رجل طيب ولديه عائلة طيبة. حتى إن ذلك الفتى الصغير هو فتى خفيف الظل وجعلته مخالطته للناس بالشارع الذي لا ينقضي منه أبداً؛ أكثر عفرته. لقد كان الفتى الصغير لا ينفك أبداً

عن الدوران في المنطقة من أولها وحتى آخرها من ثلاث إلى خمس مرات يوميا.
بمجرد أن حضر الفتى قلت:

ماذا هناك يا يس؟ قصّ عليّ كل شيء.

وبدأ يس يقصّ عليّ كل ما شاهد من أول أن ضرب مديح "محمد" السمكري،
حتى صفع الحاج "سامح البرغوثي". فهو لم يشاهد ما حدث من بعد لأنه كانت
لديه مهمة أخرى، وهي نشر الخبر بباقي الشوارع والحواري التي لم تعلم بعد.
وهذا تطوعا منه وليس تكليفاً.

لم يكذ الفتى "يس" يعبر الباب نحو الخارج حتى ألمح من الباب الخارجي
حسين الحلواني، وهو يذلف إلى الساحة الخارجية للنقطة، ويقول وهو يصعد السلم
الصغير: مساء الخير يا أيمن بك.

مساء الخير يا حسين.

أشير إليه بالجلوس على المقعد المقابل لي من الجانب الآخر من المكتب، وما أن
جلس حتى قال بنبرة واثقة:

خير يا سعادة البيك، قالوا لي إنك طلبتني.

ماذا قلت يوم الجمعة الماضية في الخطبة يا شيخ حسين؟

هل تراقبون الخطبة يا سيدي؟

أجب عن السؤال يا حسين.. بدون مراوغة.

كانت تتحدث عن الفتوحات الإسلامية يا سعادة البيك.

وحت الشباب على الجهاد.. وإن الجهاد يجب أن يبدأ من المنزل.

بل من النفس أولا يا سيدي..

نعم.. نعم. من النفس أولا ثم الجسد ثم الحجرة فالمنزل.. الخ.

- وهل في ذلك خطأ يا سعادة البيك؟
- نعم يا حسنين، أنت تقول هذا في الخطبة العامة، وهناك أيضا حديث آخر يدور في الخفاء.
- أحب حضرتك أن آتي إليك قبل كل خطبة لتقول لي ماذا أقول؟
- ليته يجوز يا شيخ.. لكن أعدك أن أتقدم بطلب لضم تلك الزاوية إلى الأوقاف.
- انتبه حسنين على الفور، وبعد قليل من الحركات المرتبكة لشفتيه قال:
- يا سعادة البيك.. الأوقاف ليس لديها وقت لنا.. إنها فقط زاوية صغيرة، لا نتسع خمسين مصلياً، هل تعتقد أن الأوقاف ستهتم بها.
- إنها حقاً زاوية صغيرة، ولا تستوعب سوى خمسين مصلياً، ومع ذلك فلقد استطاع حسنين أن يجند منها عشرات الشباب الذين اختفوا من المنطقة، ولا يعلم أحداً إلى أين ذهبوا، لكن أحداً لا يستطيع إثبات شيء على حسنين، أو يصل إلى الطريقة التي يخرج بها هؤلاء الشباب، كان كل ما يريد رؤسائي معرفة من الشخص الذي يتسلم مهمة هؤلاء الشباب حين تجنيدهم. لذلك لم يتم القبض عليه وترك له مساحة محدودة من الحرية ليتحرك بها؛ حتى نستطيع الوصول إلى هذا الشخص الغامض. فأقول له بعد أن أشعل لفافة من التبغ:
- لماذا إذن يا شيخ لا تستغني عن تلك الزاوية، وتذهب أنت وهؤلاء الخمسون إلى المسجد الكبير.. ألا يوفر هذا عليك العناء؟
- بالطبع لا يا سيدي.. بل سيحرمني الثواب.
- عن أي ثواب تتحدث يا شيخ؟ هل تعلم؟! إن لدي فكرة عن هذا الأمر، ربما تخالف كل ما تعرفه أنت يا شيخ، ولكنها مع الأسف وجهة نظر شخصية.
- وما لنا وما وجهه نظرك الشخصية يا أيمن بيك؟ هل أنت أحد الفقهاء؟
- لا.. لكن أنا أحد المسلمين يا شيخ.

- تحدث يا أيمن بيك.. إن كان هذا سيجعلك مستريحا.
- أعتقد أنكم أنتم من فرقتم جمع المسلمون، وتسببتم في تشتتهم... أنتم من يبنون الزاوية في الشوارع والحواري الجانبية.. نعم، أنتم. عندما أقرأ عن الصحابة أجد أنهم اتبعوا السنة أيضا، وكان في كل مدينة مسجد كبير يجمع المسلمين جميعا في هذه المدينة، وعلى اعتبار أن المدينة وقتها تقدر بمنطقة في هذه الأيام، فسنعبر أن لكل منطقة مسجد كبير يجتمع فيه المسلمون.
- وما الفائدة يا سيدي إن كان في مسجد أم في عشرة مساجد.
- الفائدة أن تحقق أركان الإسلام الخمسة التي أمر بها الله.. أن تسلم وجهك لله وحده، وتشهد بوجوده ووحدانية الله، وأنه أرسل مبعوثا بدينه إليك وأنت تقبلته، ومن ثم جمع المسلمين في مكان واحد لخمس مرات كل يوم.. هل تدرك ماذا يمكن أن يحدث إن اتبع الناس هذا يا شيخ حسنين؟
- لا يا سيدي.. منك نستفيد، وإن كنت تسأل عن رأيي أنا، فسأقول لك أن لا شيء سيحدث أكثر مما يحدث.
- خطأ يا حسنين.. إن اتبع الناس هذا فلن يمر أكثر من ثلاثة أشهر فقط ويكون جميع من في المسجد يعرفون بعضهم بعضا.. وسيتحقق قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال صدقا، المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضا.
- صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن كيف يا سيدي سيشد بعضه بعضا؟
- إذا تغييت أنت مثلا عن إحدى الصلوات سيعرف من اعتاد رؤيتك أنك غائب، وسيخبر أصحابه. وسيخبر البقية، وتخيل أن تعلم المنطقة بالكامل أن هذا الرجل قد تغيب عن الصلاة، سيسأل عن ذلك الرجل نحو الربع، من هذا الجمع..
- كيف سيحدث هذا يا سيدي وسط ذلك العدد المهور الذي تريده؟

- سيتحقق لأن تلك طبيعة الإنسان، إن الإنسان بطبعه اجتماعي، وستتكون مجموعات صغيرة من تلك الجموع متألّفة ومتحابّة، يذهبون معا ويأتون معا، فإذا غاب أحدهم علمت البقية، وإذا علمت البقية سيتحرك أحدهم على الفور لمعرفة سبب الغياب، فإن كان نفاقا، شدو من أزره حتى غلب شيطانه، وإن كان لضائقة أو مال، فإذا وضع كل منهم جنيها واحدا لكان هناك مبلغ أكبر من حاجته، وإن كان مريضا لوجدوا من بينهم طبيبا، وإن كان يحتاج الانتقال فأكثرهم يستطيع، وهكذا إلى ما لا نهاية من العون.

- وبعد ذلك.

- لقد حققنا بذلك الصلاة والذكاة معا، فلن يكون أدرى بالفقراء إلا من عرف من هم؟! وقتها لن يستطيع أحد امتهان التسول، أو تصنع الفقر.. علي الأقل سيخدم الإسلام المجتمع بشكل كامل بهذه الطريقة.

- كف عن هذا الكلام الكبير يا بيك، فهؤلاء سوف تجدهم في كل وقت وفي كل عصر.. حتي في الزاوية.

- عدا عصر مثل ما وصفته لك، بل ستكون كل منطقة عليمّة من هم فقرائها وغنيها، سيكون لكل مسجد إمام حقيقي، يستطيع أن يؤم الناس، ويهديهم.. ويحكم بينهم أن لزم الأمر، وسيرضون بحكمه، وسيخفف هذا من الجريمة، ويمنع الشجار بين الناس. بل إنه يستطيع أيضا أن يعرف رأيهم بالكامل نحو قضية ما في أي وقت.. وتكون لكل مدينة مجلس لهؤلاء الأئمّة، يجتمعون فيه للمناقشة وسيطر على كل هؤلاء أمام واحد، وليكن شيخ الأزهر.

- إنك حالم جدا يا أيمن بيك!

- هل ما أقوله حلم؟

- بل أضغاث أحلام.. هل تعتقد أننا وإن وافقنا بهذا ستوافق الحكومة؟ وأين يذهب مجلس الشعب إذا كان لكل منطقة إمام، ويعلم ما يريده الشعب.
- الفرق بين أن يعلم الإمام وبين مجلس الشعب أن المجلس له آلية سياسية تعمل على إحصاء الرأي بين نواب بعدد قليل اختارهم الشعب للحديث عنهم، لكن تستطيع أن تقول إن الإمام سيكون رأيا عاما مما شاهده من انطباع الناس في المسجد. فإن كانوا يحتاجون إلى التفسير فلم لا يبحث الأمر ويأتي لهم به.
- وعلى فرضية أن ما قلت صحيح، سيبقى السؤال الأهم، ماذا إذا فعل شخص مثلي ذات يوم ما فعلته أنا في تلك الزاوية، وسيطر على أحد المساجد الكبيرة هذه، هل ستكون الحكومة راضية وقتها؟
- هل تعتقد أن مسجداً بحجم الأزهر سوف يخرج أمثالك من الجهال يا حسنين؟ أمثالك فقط من يستخدم المسجد باسم الدين لاشياء لم يأمر بها الدين.
- أنا من الجهال؟! الله يسامحك يا بيك، ولكن ربما تستطيع عرض تلك الفكرة على رؤسائك لتعلم إن كنت أنا على حق أم أنت.. اسمع يا بك، إن الحكومة لديها راحة بال متناهية مع هذا الوضع، ولن تذهب إلى آخر سواه، على الأقل.. تستطيع السيطرة على زاوية صغيرة، بها خمسون مصلٍ دون تعب أو إرهاق.
- ليس هناك فائدة بك.. أو بكم، دائماً ما تعلقون فشلكم على الحكومة.
- نحن لا نعلق على شيء، أو نعلق شيئاً، أنت يا سيدي من يعلق هذا الشريط فوق كتفه، ويتمنى أن يعلق نجمة أو اثنتين عما قريب.
- هل تهددني يا حسنين؟
- ما عاذ الله يا بيك.. أنا فقط ألفت نظرك إلى غضب رؤسائك.
- غضب رؤسائي أنا.. أم رؤسائك أنت؟
- ولم نغضب أياً منهما، فهما الآن في قمة صفائهم وسعادتهم، لم نعكر عليهم صفوهم؟

- أعلم أنه يصبر على تهديده لي فأصبح به في حزم:
- اسمع يا جدع.. لن أقولها لك مرة أخرى.. في المرة القادمة أنا لن أرحمك.
 - إن شاء الله لا تكون هناك مرة قادمة يا سعادة البيك.
 - أتمنى هذا.. تستطيع الانصراف الآن.

مديح

في عيون تبحث عن الرؤية بين سراب أدخنة، أو أبخرة تشوش رؤيتها، الملح ظلالاً لشخصين قادمين. يبدو لي أنها سرور ومندو، ما الذي جعلهم يأتون إلى هنا الآن؟ سؤال طرحه عقلي ولم يقوَ لساني بعد على النطق به.

لم يكد "سرور" و"مندو" يتحركان باتجاهي، حتى سمعوا جميعاً صوت "ضاحي" البرغوثي وهو يصيح من بعيد، وخلفه معظم من تبقى من أفراد عائلته، والذين تخطى عددهم خمسة وعشرين شخصاً يمشون خلفه حاملين في أيديهم تشكيلة من الأسلحة البيضاء والخشب. فخرج من بين الجمع الحاج رأفت قائلاً:

- ماذا بك يا "ضاحي"؟

- أريد من رَفَعَ يده على أبي يا عمي.

- الولد ليس في حالته الطبيعية يا "ضاحي".

تجذبني أصواتهم نحو الوعي شيئاً فشيئاً فأستفيق قليلاً مع كثرة التدافع، وبدأتُ أعي وجود "ضاحي" وحديثه مع عمه رأفت، الشقيق المتعلم للحاج "سامح". يعمل محامياً، وهو رجل لا يعجبه العجب، ولا يرضى عن تصرف أحد داخل الحي، ودائماً ما ينتقض الأحداث من حوله فقط وهو كاره لحسنين الحلواني علي الدوام على عكس كل من في الحي. ويتعامل معه "سامح" شقيقه وأبنائه على أنه مخبول العقل، ويسايرونه حتى لا يغضب فقط. لكنهم لا يمررون له كلمة، ولا يطيعونه في أمر. حتى حينما أتهم ابنه منذ أيام في جريمة قتل، لم يقم "سامح" أو

"صاحي" بفعل شيء للولد، وربما هذا ما يغضب رأفت ويجعله يقف في صفني في تلك الليلة الصعبة، والتي ربما تنتهي بقتيل.

قال "صاحي البرغوئي" بصوت أراده أن يظهر خشناً:

- اترك لنا هذا الأمر يا عمي.. هذه المرة نحن نتحدث عن هيبتنا وكرامتنا.. إنه والدي يا عمي.

ثم أزاح عمه بيده وهو يضيف:

- ابتعد.

أدور بعيني من حولي فأجد أني ملقى بجوار الجدار الذي احتجزني الناس عنده قبل قليل، ومن حولي جمع كبير من الناس، والسيوف الحاد ملقى هناك على بعد ثلاثة أمتار مني، ولا شيء يمنعني عنه سوى ذلك الثقل الذي أشعر به بجسدي والذي يجعلني كما لو كنت أزيح جبلاً حين أريد النهوض، وتحوم برأسي بعض أفكار شيطانية تحثني على البقاء في مكاني والاستسلام لصاحي دون حركة. حتى إنني كدت فعلاً أن أستسلم لولا أنني أسمع علو الأصوات من حولي، والتي تحاول منع "صاحي" عني. وأشهد ببصر مشوش حركة أقدام كثيفة من حولي، كما لو كانت هناك مجموعة تزيح أخرى، يجب أن أستغل هذا الأمر، وبالفعل أزحف على قدم ويد كقرود متسلل في برنامج عالم الحيوان. حتى أصل في سرعة البرق نحو السيوف مستغلاً اندفاع جميع الناس باتجاه "صاحي"، وما أن ألتقطه حتى نهضت وأنا أشعر ببعض من الحيوية على قدمي ملوحاً به في يدي وقلت بنبرة عالية بقدر ما استطعت:

- أين هو "صاحي"؟ هل يتصنع أنه رجل، فليأت إلي المخنث.

يندهشون جميعاً حينما يسمعون صوتي وكأنهم تناسوا وجودي من الأساس، وينظرون إلى جسدي الذي أخذ يترنح يمينا ويسارا وأنا أحاول إقناعهم بأنني قادر، ولكن ملاحظتهم قد تبدلت على الفور عندما أخذ أتباع "صاحي" يندفعون بين

صفوفهم متوجهين إليّ. لكنني شعرت بقوة تطغى على جسدي بغتة حين شرعت بضرب قدم أولهم وأنا أنهض بنصل سيفي بمجرد أن وصل الرجل إليّ. فتطايرت الدماء كالنافورة من قدمه. ومشهد الدماء يثير الرعب في القلوب، فتوقف أغلب المندفعين، وتراجع بعضهم. في حين أخذت الجموع في الانفراج عني صانعين دائرة كبيرة. فلم يعد يحول بيني وبين رجال ضاحي شيء أو أحد، والعكس صحيح. وأخذت عين "ضاحي" تتسع في ذهول. بينما أخذوا جميعاً ينظرون إلى بعضهم بعضاً في ندم، وقد أدركوا خطأ تركهم لي وحدي.

حتى في تلك الحالة التي أشعر بها، وأنا أكاد لا أتذكر اسمي. إلا أنني أتذكر جيداً من هو "ضاحي" البرغوثي، ولكم كرهته طوال الوقت، حتى إن عقلي وبطريقة لم أتفهمها جالت به بعض الأفكار الجنونية، ومن بينها أن ضاحي ذات مرة عندما كنت صغيراً تجرباً ذلك الخرتيت وتعرض لألمي ببعض نظرات الغزل. إنني لم أنس ذلك اليوم على الإطلاق أو ربما نسيتُه وتذكرته الآن، وبالأخص الآن.. كان يتصور أنني سأظل صغيراً إلى الأبد. فأقول لنفسي وأنا أهز رأسي نافياً: "لا يا معلم، إن الصغير يكبر"

إن "ضاحي" هو الرجل الأهم في المنطقة كلها، حتى إن أيام الانتخابات يربط المرشحين كلمتهم مع "ضاحي"، فإن قال فلان؛ ذهب الناس إليه، ومن قال عنه "لا" ابتعد الناس عنه. إنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في المنطقة كلها، وأنا بالنسبة له مجرد حشرة صغيرة.. لكن ليس بعد الآن.

أنظرُ حولي واستنتج أن هؤلاء الناس سوف يتبعونه في النهاية ولا يجب الاعتماد عليهم، اعتمادي الآن على سيفي ويدي، وعقل لا أجد منه سوى القليل.

ولكنني الآن لا أرى كل ذلك أمام عيني، وأرى فقط رجل كلما شاهده صارَت الدماء تغلي داخل عروقي، كلما شاهده تفجر بركان الغضب بداخلي ونفرت

عروقي وانتفخت عضلاتي، ومن ثم هجمت على اثنين من الرجال كان يحيلون بيني وبين "ضاحي"، فمددت سيفي كأني أحاول قطع هذا إلى نصفين فتراجع خطوتين، وإني أشق هذا طوليا فيتراجع أيضا، وهنا حانت اللحظة وأصبح ضاحي أمامي تماما، فضربت من الأعلى إلى الأسفل بسيفي كتف "ضاحي" الذي أصبح واضحا بعدما أزاح الخوف رجاله من أمامي..

وتنفجر الدماء..

إن الجروح في جسدي لا يقوى معها إنسان على الحركة، إلا أنني تحركت أمامهم بكل رشاقة حينما تقدم الرجال نحوي بعدما شاهدوا تلك الدماء وهي تنزف كالبركة من كتف معلمهم، واتجه نحوي أربعة منهم دفعة واحدة، مما جعلني هذا أتراجع لثلاث خطوات للخلف لأحسب خطواتي القادمة، ثم أربع، ومن ثم أوقفني الجدار. عندما وجدت ظهري بالجدار تفاديت ضربة من عود خشبي عريض كاد يهوي فوق رأسي، فغرست سيفي في جانب مسدها دون تفكير فلمسه رأس النصل المدب وجرحه. وضربت أخرى سددها الرجل الثاني من خلفي بالجدار مصدرة صوتاً عالٍ في أذني فجر الصداع مرة أخرى في رأسي. عندما تحركت نحو الأسفل، ولكن الثالثة ضربت هامتي بقوة في أثناء نهوضي من الأرض، فعدت إلى الأرض مرة أخرى، لتنهال الضربات التي لم أعرف مصدرها أو خاتمها، فمنها من الأخشاب، وأخرى من الحديد، ولكن لم يكن بها نصل، وتبينت أن أكثرها ركلات قوية تدفعني معظمها نحو الاستقرار فوق الأرض.

فجأة يعلو صوت الفتى يس في الأركان قائلا:

- الشرطة العسكرية.. الشرطة العسكرية.

فيقول "ضاحي" بعلو صوته:

- لا تتركوه.

فيجيب الحاج رأفت بصوت عالٍ:

- لن يتركوك يا ضاحي.. إنها مشكلة كبيرة تحكمها حول رقبتك إن كنت لا تدري!

- إنه من اعتدى علينا يا عم، وها نحن جميعا مصابين.

- ولكن هو أيضا مصاب.

- إصابة مقابل إصابة.

- لا يا ضاحي هذا الكلام في قسم الشرطة.. تلك هي الشرطة العسكرية، وسوف يحاكم

هو على كل حال لأنه احتك بمدنيين.. لكن الجيش لن يترك من أصاب أحد جنده يا

ضاحي.. اسمع لما أقول!

بعد وهلة من التفكير قال ضاحي لرجاله:

- إلى المنزل.. هيا.

فتركني الرجال لأسقط أرضا مستلقيا فوق الأرض، ويذهبوا خلف معلمهم

إلى منزل البرغوثي، في حين لمحت ظلين، أظن أنهم سرور ومندو. في سرعة حملائي

فوق أكتافهم وهرعوا يهربون بي من وسط ذلك الجمع الغفير، ويتجهون بي نحو

منزلي. عينايا لا تريان إلا قليلاً، ولا ألمح سوى علو الدنيا ثم سقوطها أمام عيني

حينما تحرك بي "سرور" و"مندو" بتلك السرعة التي يعدون بها. ومن بين كل تلك

الصور المذبذبة أمامي تلتقط عيني البيت الأصفر، وفتحة صغيرة من نافذتها، تظهر

من خلفها الجميلة ترتدي قميص نوم أسود، وتحرك كالغزال أمامه. فأغمض عيني

حتى لا أرى شيئاً آخر بعدها. وكأن الموت يدركني، وأريد الاحتفاظ بأجمل صورة

في هذا العالم قبل أن أفارقه.

إنني أعرف تلك المرأة جيداً، إنها "سماح"، أو "أم هالة" كما يلقبها أهل

الشارع، يقولون عنها في كامل المنطقة إنها امرأة جميلة، ولكنني لم أعتقد ذلك سوى

اليوم فقط أو ربما لم ألحظ هذا سوى الآن فقط. أتذكر تلك اللحظة التي ارتطمت بها

يدي بصدرها الناعم البلوئي. كيف شعرت، وكيف تمنيت أن أشعر. لكن كيف لم أرها من قبل بهذه الصورة؟ أنا لا أعلم؟ هل كان العماء قد أصابني كل تلك السنين؟ تلك المرأة الجميلة أتت بنفسها إليّ تحاول الاطمئنان، فصدتها وسخرت منها في الطريق. ما أنا سوى أحق يستحق السخرية، فلم تكن تلك هي الطريقة الملائمة لمعاملة تلك الفتاة، ألوم نفسي على ما فعلت كثيرا، وأعاتبها. وتحضر أمام وجهي صورة ذلك الرجل الطويل المسمى بـ "أشرف"، زوج تلك الجميلة "سماح"، وكيف يتهايل بخطوته وهو يسير بالحارة كالفتيات، وكيف يدق بكعب خفه القذر مصدرا صوتًا كما لو كان راقصة. كيف يكون ذلك "البقف" زوج تلك الجميلة.

أشعر ببعض الجلبة وبعض تحبط خطوات فوق درجات سلم، ومن ثم التفتيش بجيوبي، وأجد نفسي أتحرك قليلا إلى الأمام، ثم وجدت جسدي يهوي في الهواء حتى شعرت أنه سوف يصطدم بالأرض وامتدت يداي تعانق بعضها بعضا عند صدري، حينما وجدت نفسي أسقط فوق فراشي المتين أخيرا. لا أصدق أن هذا قد حدث أخيرا. أشعر أن كل قطعة في جسدي تتمنى أن ترتاح. وأشعر باسترخاء قوي تبعه دوار، وأخذت أصوات "سرور" و"مندو" في أذني تتقطع، ولم تعد واضحة، كما لو كنت مغشيا عليّ، ولكن ذلك لا يحدث، وتلك الحالة لا تنتهي. وكأني داخل أبدية الوعي، وأسقط إلى الأبد في اللاوعي.

ظل الحال هكذا لبضع دقائق أو ساعات، أنا لا أدري، أشعر بكل شيء حولي ولكنني لا أدركه، أو أتفاعل معه، غائب عن كل ما حولي ولكنني مشارك به. حتى عاد إليّ بعض الانتباه عندما وجدت "سرور" يقول لي:

لقد عرفت قصة الشرطة العسكرية هذه.. وعرفت ما قصتها.

أجوب بنظري في وجه الرجل ولا أستطيع إلا أن أطلب منه بعيني المغلقة من التورم أن يكمل. بالطبع لم تصل أي من إحياءاتي للرجل، ولكنه مع ذلك كان يردف من تلقاء نفسه قائلاً:

- إنها من ابتكار "أيمن بك"، هو من أرسل الفتى "يس" ليقول ذلك بين الجموع. لولا ذلك لكنت الآن في خبر كان.

- فكرة ممتازة

يقولها "مندو" وهو يحاول خلع حذائي من قدمي. ومن ثم يلقي بها تبقى من جسدي فوق الفراش فلا أسمع منهم كلمة أخرى لأنني غصت في أعماق نفسي وأبحرت خلالها حتى أصبحت لا أسمع عالمهم ولا أراه. بعد برهة فقط سمعت صوته يدوي في كامل أعماقي، وقد كان صوت نخري.. وكما لو كانت تلك الحقيقة التي أعلمها مسبقاً قد باغتتني الآن فأستفيق على دهشة مباغته، فلطالما كان صوت نخري هو سبب إزعاج الآخرين، ولكنه اليوم أصبح سر إزعاجي أنا.

أقلب رأسي محاولاً فتح عيني فألمح من جوار أقدام الفراش عند مدخل الشرفة، وأتعرّف على قدم "مندو"، الذي ما لبس أن سمعت صوته يقول لسرور الذي تفهمت أنه بجواره مع إنني لم أشاهده بعد:

- لكن في "بلاد برا" يا عم "سرور" الدنيا شيء آخر تماماً.

- في النهاية جميعها أرض الله.

- ونعم بالله.. لم نقل شيئاً، ولكن أحدثك عن الحياة يا عم "سرور"، النساء هناك غير، والمخدرات غير، حتى الشوارع والمنازل. هناك حياة يا عم "سرور".

الحديث بينهم يبدو في منتصفه، ويعني هذا إنني ربما قد غبت عن الوعي قليلاً قبل أن استفيق بتلك الطريقة الغريبة، فيعود سرور ليقول لمندو بصوت واضح:

- إذا كان كما تقول فمع السلامة يا سيدي.. توكل على الله.

- لماذا لا تأتي معي؟

- آتي معك إلى أين؟

- كندا.

- ولمن أترك محروسًا؟

أعرف محروسًا جيدًا، ما هو إلا الحصان العجوز الذي تعب من كثرة أفعال "سرور" به، ويطلب رصاصة رحمة منذ عشرة سنوات. فأبتسم مرغما، وأنا أحاول أن أنهض حتى أشاهدهم، ولكن جسدي كما لو كان قد كُبل في الفراش. شعور عجيب. إنني كلما أرتاح وكلما استرخي جسدي كما لو كان تيبس وطلب راحة أكثر، وأكثر. وعندما أبذل الجهد أشعر أنني لا أتعب، مهما كنت ألهث. لا أستطيع التوقف، وكلما زاد المجهود شعرت بأني أريد بذل أكثر، ثم أكثر. إنني لا أهدأ عن أي فعل أقدم عليه سواء كان الاسترخاء أم كان الشقاء. عداشيء واحد؛ إنه النوم..

مهما طلبته لا أناله، وإن غفوت وجدت ما أيقظني قبل أن تمر دقيقة.

أنهض بصعوبة، وكأن روحي هي من نهضت أولا ومن ثم تبعها الجسد. عندما أعود يأتيني صوت "مندو" واضحا وهو يقول:

- أنت إن رأيت بائعة الجرائد هناك ستنام تحلم بها لما تبقى من عمرك كله.

- إنني أنام أحلم بمن هم هنا، وها أنا ذا كما الفل، ولم أشك أبدا.. هم بالفعل لهم هيئة تفرع في بعض الأحيان حتى في الأحلام، ولكن يمشي الحال.

يضحك "مندو" ويقول:

- هذا لأنك لم تشاهد من هم هناك.

- في النهاية هذه امرأة وهذه امرأة.

- لا أنفي أن لديك حق بالطبع في تمسكك بالحارة.

- أعلم أنني لدي الحق.
- ليس حبا بالحارة بالطبع، ولكن حبا لمن هم بالحارة.
- ماذا تقصد؟
- يغمز "مندو" بإحدى عينيه ويلوح برأسه في اتجاه البيت الأصفر قائلا:
- أقصد..
- ثم يصمت لعل "سرور" يفهم وحده، وهذا ما حدث حقا حيث قال "سرور":
- صحن مهلبية بالعسل.
- المرأة فعلا كما القمر.
- يضع "سرور" يده فوق ذقنه كما لو كان مهموما، وقد كنت أعلم أن "سرور" غارقا في حبها حتى النخاع. ويقول العريجي:
- وانظر يا رجل بحضن من تنام كل ليلة.
- يمتط "مندو" شفتيه وهو يقول بصيغة السؤال:
- زوجها؟
- ألا ترى ذلك المخنث، إن حتى طريقة سيره تقول إنه مخنث.
- يضحك "مندو":
- كلمات يقذف بها رجل، لرجل آخر بداعي الحقد والحسد.. هل يُعرف المخنثون من طريقة سيرهم؟!
- وعلى ماذا أحسد ابن الهرمة هذا؟
- على زوجته.
- يفكر سرور قليلا ويتصنع الاهتمام:
- وهل الزوجة ستنضر من حسدي وحقدي على زوجها.

- لا.. فأنت تحقد على الزوج.
- إن كان هكذا فلتتركني أحقد وأحسد؛ حتى يأتي أجل أمه.. إن الحسد شيء قليل على ما يستحقه المخنث.
- ينفجر الاثنان بالضحك قبل أن يقول "مندو":
- كفانا الله شرك.

أعلم أن "مندو" يجب استفزاز "سرور" حتى يستمع إلى تعليقاته، ومن ثم يضحك. إن مديح يعرف "مندو" مما يقرب من الخمس عشرة سنة، إنه لا يسكن حارتم ولا حتى منطقته، بل هو من منطقة مجاورة، بجوار مقهى المثقفين. كل أحلام الشاب هو السفر خارج مصر، كما فعل أنبوب ابن عم سعيد من قبل. لم تكن علاقة مديح بأنبوب هذا علاقة صداقة أو علاقة قوية، فهو في الحقيقة كان مسيحياً، وقد أخبره عم حسين الحلواني وهو رجل مشهور عنه الالتزام، ويسير معظم الوقت مع هؤلاء المرشحين الذين يتخذون شعار الإسلام هو الحل، ويخطب الجمعة بالزاوية القريبة من منزله؛ أخبره ألا يصادق هؤلاء المسيحيين. فإن الله لا يحبهم. على أن مديح لم يعمق تفكيره في تلك النقطة من قبل، فلقد علمت أن حسين يجذب بعض من الشباب إلى تلك الزاوية ويتحدثون في أمور لا ترضى عنها الدولة، أو أمن الدولة، وبعضهم في المعتقلات الآن، ومنهم من لا يعرف أهلهم إلى أين ذهبوا، هكذا كان ذلك الفتى شريف بن عرفة صاحب المقهى، ذلك الفتى الذي كان صديقاً لي في الدراسة، والآن يمقتني بنظرات عدائية كلما التقينا صدفة في أحد الطرقات دون أن أدري لماذا، لم أشعر أن شيئاً قد تغير به بعدما اختفى وظهر فجأة سوى تلك اللحية الخفيفة التي تشبه أتربة اختلطت بعرق وجهه فأصابته بقق طينية، إلا أن ذلك لم يمنعني من أن أندesh من هدوء هذا الرجل عم سعيد المسيحي. لقد كان هادئاً لدرجة أنه يشبه الأصنام وهو يتأمل أوضاع المتنمرين به. حتى إن هذا الشاب أنبوب

عندما كانت تجمعها صدفة عندما يلتقيان هو و"مندو"، كان يرى أنه من أفضل الشباب الذين عرفهم على الإطلاق. "مندو" أيضا من أكثر أصدقائه المثقفين، والمطلعين على الغرب، فقد كان كل ما يتطلع له هو السفر. وكانت علاقة "مندو" بأبنوب علاقة صداقة قوية جدا حتى إن أحدهم كان يبيت في منزل الآخر بشكل اعتيادي. والآن يبذل أبنوب قصارى جهده حتى يستطيع مساعدة "مندو" على تحقيق هذا.

ثم يهمس "سرور" وكأنه لا يريد أن يسمعه مديح:

- هل تعلم أنني أحيانا أشعر أنها متعلقة بصاحبك.

- ومن صاحبي؟

يخفض صوته أكثر:

- مديح.

- مديح؟!

بدهشة يرددها "مندو"، ولكنها ترددت بداخل عقل مديح أكثر من مرة، وأكثر دهشة من "مندو" بأضعاف مضاعفة. حتى إنه نهض وجلس فوق طرف الفراش، وبدأ يلمح وجوههم وهم يقفون بالشرفة مستندين بسواعدهم على السور، و"مندو" يستند بركبته فوق المقعد. وعلى ما بدا له أن "سرور" قد لمح أنه استفاق، فقال وقد اتخذ وجهه جدية تامة:

- إنها أنت لم تقل لي؟ من أين ستأتي بتلك المصروفات كلها.. أنت لا يزال أمامك كثير.. على ما أسمع، وأنا صاحب سمع ثقيل كما تعرف أن السفر هذا يكلف.. يكلف كثيرا. يزفر "مندو" في تمنٍ ويقول:

- إنني أقوم بعمل ما، إذا لم أجد به معوقات، وصار كما أريد.. فلن يكون هناك مشكلة في كل ما تقول.

- ربنا يوفقك يا سيدي.

أنهض وأتجه نحو الثلاجة، وأخذ زجاجة الماء من أعلاها، وأنا أسأل نفسي هل
حقا ما يقوله "سرور" و"مندو" حقيقة، هل "سماح" حقاً تحبني أنا؟ لماذا يقول
"سرور" كلاماً كهذا؟ ليس لديه عليه دليل واحد.

سماح

لساعة أو أكثر، لم تهدأ تلك الجلبة الأتية من النافذة، وحينما فتحت النافذة قليلا لأحاول أن أتفهم ما يحدث، لم يخبرني أحد، لأنني لم أجد أي مارٌّ في الشارع طوال الفترة التي تطلعت خلالها من نافذتي لكي أسأله. لكنني حينما شعرت أن الأصوات تهدأ قليلا قررت العودة إلى الداخل، إلا أنني مشهد عودة مديح محمولا على أكتاف "حوده" وزكريا وآخرين، استوقفني، وجعلني أتطلع إلى الشارع مرة أخرى من حيث أقف. في منتصف الغرفة حتى لا يلحظ "أشرف"؛ بينما اختفى من بالي تماما أنني أرتمي قميص النوم. ولم أتذكر سوى بعد فترة من مرور مديح من أسفل النافذة.

بعد حين دار حديث بيني وبين "أشرف" استكمالا لما دار من قبل، تفهمت منه كيف أن هذا الرجل الذي هو صديق المعلم "ضاحي"، استورد ذلك الدواء من الخارج، وأدخله بطريقة شرعية، ولأنه غير مدرج على جدول المحظورات فقد زَيَّف بعض الأوراق التي أكمل بها عبور تلك الكمية، التي كانت أيضا كبيرة. ولكن يبدو أن الأمور معه لم تمضِ على ما يرام، وظهرت له بعض المعوقات التي جعلت الأمر يكاد يكون معروفا، ومن أجل ذلك فإن الرجل يريد أن يتخلص من كل ما لديه ولكن بأوراق سليمة، عليها ختم الشركة الأجنبية، وبذلك لا يكون سوى وسيط، وإن استطاع أن يعطل الأمر قليلا سيستطيع محو اسمه من خانة الوسيط أيضا، لكن "أشرف" يؤكد أن وزارة الصحة تتابعه بخطوات سريعة.. أما بشأن من يشترون منه، فإن وضعهم القانوني سيكون جيدا جدا لتوافر فرضية حسن النية، ولذلك كان يلزمهم عدة صيدليات صغيرة، ليكون الأمر أكثر قانونية، وهنا يأتي دور "مندو"،

فإن شقيقته لديها صيدلية صغيرة عند المحطة. وله أيضا ابن عم له صيدلية جيدة في وسط البلد. ولقد استطاع أن يشركهم في الأمر، فلقد كان العرض لا يرفض.. إنها كمية من الأدوية غير الشرعية، وذات التخدير العالي، تُشتري على أنها دواء بعدة قروش، وتباع على أنها مخدرات بملايين. مكاسب خرافية، جعلت زوجي "أشرف" يربح تسعة آلاف من الجنيهات في عشرة أيام، ولم يكن دوره في الأمر يقتصر على الشراء فقط، بل كان الأهم هو التوزيع، وهذا ما كان يفعله طوال تلك الأيام الماضية، وأم سعيد الخبيثة أربعة آلاف جنيه. ذلك الدكتور كما يلقبونه لا يهتم الآن بالربح أو بالخسارة قدر اهتمامه بالتنصل من الأمر.

بهذا أكون قد اطمأنتت من ناحية "أشرف"، ولكن يبقى ما أصبح مصدر اندهاشي الدائم هذه الأيام، وهو مديح الذي لا أعرف ماذا حل به. لكنني اطمأنتت حينما سمعت صوت "حوده" و"زكريا" وهما يتحدثان أسفل النافذة، وتفهمت أن مديح بهذا قد أصبح في حالة جيدة. وإلا لما كانا تركاه بمفرده.

بعد قليل خرج "أشرف" لكي يذهب إلى المقهى كعادته كل يوم، وظللت أنا قليلا مع هالة التي كانت متعطشة للعب، بعد فترة نوم طويلة. وعند الساعة العاشرة والنصف، سمعت صوت والدي وهو ينادي باسمي عند بئر السلم، فأفتح الباب، وأقول:

- تعال يا أبي.. أنا هنا.

- لم كل هذا الظلام يا ابنتي؟ إنني أنا من يسكن مقبرة، وبها ضوء كما الظهر.

أضحك وأنا أقول مازحة:

- انقلب حال الدنيا يا أبي، وأصبحت المقابر مضيئة والمنازل مظلمة.. أنت لا تدفع ثمن ما تستهلكه من الكهرباء يا أبي، أنت عالية على الأموات أيها العجوز حتى في الكهرباء.

بعد برهة يظهر عند بداية السلم أمامي وهو يقول:

- آه يا ابنتي.. لكم كانوا طيبين طوال العمر معي.. إنهم خير عائل.

- من هؤلاء؟

- بالطبع الأموات يا حبيبتي.. فلا خير في الأحياء.

أضحك ولا أزال أنتظر، حتى عبر تلك الصالة الخارجية في تواكل، ودلف من الباب. كان الملل قد فاض من كأسِي. أنا أعلم أن والدي حتى وإن لم يكن مريضاً فإنه يتصنع المرض أمامي، حتى يحصل مني على بعض الحنية التي يحتاج إليها من أبنائه دائماً. فإن والدي وأنا أشهد له بهذا أنه لم يحب أحداً في الدنيا أكثر مني، وإخوتي. ولذلك فأنا أتوقع أن أسمع منه كثيراً مثل "آه يا ركبِي، والواحد انهد حيله، وعجزنا يا بنتي." طوال الوقت. لذلك فلقد بادرت أنا وسألته في بداية الحديث حتى يفرغ ما لديه دفعة واحدة:

- ماذا بك يا أبي؟ هل أنت مريض؟

وما أن قلتها حتى أظهر الرجل كل ما في جعبته من أعاصير المرض، ورياح الألم، وأمطار الأوجاع، وكم دواء عجيب الاسم، مع كم اسم لبعض الأطباء المشاهير، وأنا أعلم مثل هذا الحديث وأحفظه فاستغلّيت ذلك الوقت لأطيب له كوباً من الشاي. أعود على إثره إلى حيث يجلس فوق ذلك المسند، وأجلس بجواره قائلة:

- أنت أيضاً يا أبي لا تريح نفسك.. دائماً ترهقها.. هل تستطيع أن تخبرني أين كنت إلى الآن في هذا الطقس البارد؟ ولا تريد أن تشتكي ركبتك؟! يجب أن تشتكي يا أبي من جرائر أعمالك.

يتعجب وهو يقول:

- في النهاية أكون أنا من أحضرت المرض لبدني؟

- لا يا أبي، لا أقصد.. سلامتك يا أبي وسلامة ركبتك.

ثم أميل على ركبته وأقبلها وأعود لأنظر إليه وبيدي كوب الشاي ليتناولوه وأنا أضيف:

- أمي كانت هنا اليوم.
- أمك.. تلك الفرس الرّماح.. لا أعلم من أين تأتي تلك المرأة بهذه الصحة، إنها تدور في الدنيا كما يدور الثور في الساقية. لكم كانت قوية على مدار عمرها.
- أمي طيبة يا أبي.
- لا يا ابنتي، إن كانت طيبة لما استطاعت أن تربيكم، وتحمل عبء مسؤوليتكم.. لم تكن امرأة ضعيفة أو طيبة لتستطيع أن تفعل هذا. كما أريد منك تكون أنت أيضا حتي تستطيع تربية ابنتك.
- إن صوتها عالٍ فقط.. إنها والنبي قلبها أبيض.
- ليس هناك طيبة في هذا الزمن يا بنيتي، ليس هناك مكان للقلوب البيضاء.. الأخ يقتل شقيقه من أجل المال.
- يمضي بي عقلي بالأفكار نحو "أشرف"، وتلك التجارة التي لا أعرف إن كانت شيئا صالحا أم طالحا. مؤكد أنها محرمة، وأكثر تأكيداً أنها ضد القانون، ولكن أي قانون يمنعني أن أمتلك تلك الأموال، ولماذا يترك القانون جميع تلك الأموال المحرمة التي لا يخلو منها بيت في هذه الأيام وينظر في أموالي أنا. وأسأل باهتمام:
- يعني يا أبي إن كانت الفرصة مواتية، وهناك خير كثير لي، فهل أدهس الخلق دون أن أفكر.
- وهل كان الخلق ليحرص على ألا يدهسك يا بنتي إن كانت فرصته وليست فرصتك.
- علي رأي والدي، أقنع نفسي وأنا أومئ له. إن الحق معه، تلك الأمور إن لم يفعلها "أشرف" لفعلها غيره، ولماذا يكون غيره رابحا، وهو لا. ثم أنظر إلى ابنتي التي كانت تلعب عند قدم جدها، وأسأل نفسي عن مستقبلها وما جرى به. فأحلم

بأن تكثر تلك الأموال إلى عشرين ألفاً، يا الله إذا امتلكت ذلك المبلغ. ترى ماذا سأفعل به؟ لسوف يفعل كثيراً من الأشياء. إنه بالحق لم يعد هناك خيرٌ بالمال كما كان زمان، ولكن عشرين ألفاً مبلغ ليس بقليل بالنسبة لي أيضاً.

فيخرجها من أفكارها صوت والدها وهو يقول:

الحياة يا بنيتي لا تريد المرأة الحانية في هذه الأيام، أو حتى المهذبة المستقيمة فقط. إن الحياة الآن تريد المرأة القوية، التي تستطيع أن تقف أمام الظروف وتتحداه وتخلق من صعوبتها رجالاً ونساء. ها هن أمامك انظري إليهن.. أمك ومن ثم حماتك.. إن حماتك، تلك المرأة القوية، التي تستطيعين أن تقولي عليها بملء الفم إنها بمائة رجل. انظري كيف تركها زوجها وكان أطفالها صغاراً!

هذا حدث بالفعل، على أن زوجي لن تنقطع علاقته أبداً بوالده، لكن الرجل لم يأتِ إلى هنا ولو مرة واحدة، ولن يراه أحدٌ هنا منذ أن ترك المنطقة.. إلا أن "أشرف" يحبه ويقدره أكثر من والدته نفسها. لا أتمنى أن تفعل هالة بي هذا.

أراقب والدي من النافذة وهو يمضي في طريقه إلى بيته، ومن بعد أتطلع نحو السماء التي اختنق قمرها بين تلك السحب القاتمة، والتي تتحرك في صعوبة من ثقل ما تحمل، ومن ثم إلى الشارع الذي لا يضيئه سوى مصباح واحد معلق في المنزل الوحيد في الحارة الذي ينافس المنزل الأصفر في طول العمر، ولكنه أصغر، وكانت فوق جدرانها أحد المصابيح القديمة التي كانت منذ عهد الملكية، وكانت تستعمل قديماً كي تضاء بالمشاعل، ومن بعد عدلها السكان لكي تضيء بالكهرباء، ووضعوا فوقها هذا الفانوس المربع الزجاجي الذي كان يصل ارتفاعه لنصف متر كامل معلق فوق ذراع من الحديد لكي يلتصق به في الأخير بالجدار المهترئ.

هناك عند الناصية في الظلام الذي لا يصل إليها ضوء المصباح يجلس كلب أسود اللون وعند أنفه رقعة بيضاء. كانت عيونه تلمع كلما تحرك يمينا أو يسارا، وهو يجلس كالأسد في عرينه. لكنني فجأة أجده يعدو عدوا وكأن ذلك الأسد أصبح يطارده. وبعد هذا الفرار العظيم نحو الجهة اليمنى يظهر "أشرف" وهو يعبر ذلك الالتفاف الصغير عند بداية الشارع من الجهة اليسرى. لم أكن أتوقع أن ذلك الأسد الذي فر من أمامه هذا الكلب هو زوجي، من الجيد أنه عاد مبكرا. فلا أعود من النافذة إلا عندما أشاهده وهو يختفي داخل بوابة البيت. وأغلقت النافذة وكان هو يدفع الباب ثم يعبر نحو تلك الوسادة.

يبدو عليه الارتباك، وأرى بعينه الشرود، وأنا أعلم بأمر ذلك التجهم على وجهه. إن "أشرف" ليس من نوع الرجال الذين يجنون تسيير الأمور، أو فرض شخصيته على الأمور. على العكس، لقد كان دائما ما يحتاج إلى من يدفعه على فعل شيء. وإذا صادفته مشكلة ولو تافهة فهو يغرق داخل شبر ماء. ويجلس بالطريقة نفسها، حتى أبدأ أنا بسؤاله:

- ماذا بك يا رجل؟

- هناك كثير من الأمور حدثت.

- مثل ماذا؟

- حضرت حالا من مكتب "أيمن بيك".

- وما الأمر؟ لماذا ذهبت إلى النقطة من الأساس؟

- لقد أرسل لي مجننا من النقطة.

إن النقطة بها اثنين من الأمناء في كل فترة، وأربعة من الجند، ولا غنى عن أي

منهم سوى للأمور الهامة. فأسأله:

- هل للأمر علاقة بالنقود؟

- ليس بالنقود، ولكن بما يجلب النقود.
- أتقصد الدواء؟
- إنه هو.
- تدفعني كلماته لأن أترك ما بيدي وقد كنت أشرع في طهي لقمة خفيفة للعشاء.
- ثم أعود لأجلس بجواره، وأقول وقد تملكني الاهتمام:
- لا.. قصّ عليّ الأمر بالتفصيل.
- يقول الرجل إن الداخلية كلها منقلبة بسبب ذلك العقار، وأن هناك بحث شامل على جميع المناطق المشبوهة، ويقول إن الموضوع كبير، وخطير. يقول إن كل من حضر ذلك الاجتماع من الرتب الكبيرة، وأنه حضر فقط لأنه مسئول عن نقطة ارتكاز مهمة. لولا ذلك فلم تكن مكانته أو رتبته لتسمح له بحضور أمرٍ شديد الخطورة كهذا.
- معنى هذا أن هناك خطورة كبيرة عليك.. ربما يطلبوك للتحقيق.
- لن يجدوا معي شيئاً.
- يصبني الوجوم، وحزن يطغى على أجزاء كبيرة من جسدي ثم يستقر في القلب فأقول:
- كنت أتمنى أن نستطيع تكوين قرشين من ذلك الأمر يسترنا في المستقبل.
- سوف نفعل.
- ماذا؟
- يا امرأة أنا أريد أن انتشلك أنت والبنات ونخرج من هذا الوباء الذي نحيا بداخله..
- أتمنى أن أسكنكم في سكنٍ معقول، وأصرف عليكم قرشاً معقولاً من عمل جيد..
- عمل ملكي أنا، وليس ملك آخرين يستأجروني.
- أومئ متفهمة وكأنه علم بما أريد أن أسمع، فيضيف:

- لم يتبق سوى يومين فقط، أنا جمعت كل ما معي واشترت بنصفه كمية جديدة، ولدي طالبيها من زملائي بالبنك. ضربة واحدة وأمتلك ثمانية عشر ألفا.
- أحلم بهذا المبلغ وأتحيل يدي تمسك به، تلك المحلات الشيك التي سأجوبها من أجل التسوق، وتلك "الموديلات" التي كنت أشاهدها على المذبة الفلانية أو "رداء رسمي" كانت ترتديه الممثلة فلانة. إنني حتى أخشى أن أصدق أن معي مبلغاً مثل هذا. هل سيكون حقاً لدي سيارة، حتى ولو قديمة، ولو صغيرة أيضاً. أنا لن أعترض. هناك مقاول صديق والذي اشترى سيارة جميلة أعجبتني لهذا السبب _لأنها كانت صغيرة_ وقال إن ثمنها كان أربعة آلاف جنيه فقط، ربما يستطيع "أشرف" أن يوفر لي مثلها، أو حتى أفضل منها، ربما يدفع بها ستة أو سبعة آلاف. سيبقى معي حينها عشرة كاملة، وهل العشرة مبلغ بسيط؟ فأنتبه وأسأل بارتباك نافضة هذا الشرود:
- وهل أنت مطمئن للأمر؟
- ليس هناك شيء مضمون.. لكن أنا لن أفوت الفرصة. أريد أن أضمن مستقبل البنت يا امرأة.
- أنا أيضاً منشغلة بهذا الأمر.. ولكن ماذا سنفعل أنا وتلك الفتاة إن أصابك مكروه.
- خليها على الله يا امرأة.
- الله لن يقف مع تجار المنوعات يا "أشرف". أنت وحدك في هذا الأمر، وعليك أن تتخذ كل احتياطاتك كي تعود من هذا الأمر سالماً.
- ماذا بك يا امرأة هل تغلقين في وجهي أبواب الرحمة.
- لا يا حبيبي، أنا فقط أحاول توعيتك.. فانظر من حولك وستعرف وحدك أننا في الجزء المنسي من العالم، وألا لما اتضررنا لان نبيع المخدر حتي نشاهد الدنيا ولو من بعيد.

- لا تقلقي، أنا لم أغامر بكل الأموال من أجل ذلك، وأيضا سألت محامياً وأكد لي أن العقوبة لن تزيد عن الثلاث سنوات، وإن لم يكن هناك دواء وقتها لن يكون هناك دليل ضدنا. هذا يعني أن احتمالات الفشل قليلة، وإن حدث فلن تكون العقوبة أكبر من مكسب المغامرة.

يختم كلماته وقد لمعت عيناه في ثبات جعلني أقول:

- إذن فعليك أن تفعل ذلك يا "أشرف" وفي سرعة، من أجلنا.

- لمعلوماتك.. أنا أشعر أنها ميسرة لي في هذا الأمر.. حتى إنه لولا انشغال "أيمن بك" بما حدث اليوم من ذلك الولد مديح.. هذا الولد في المنزل المجاور لتلك العمارة. تومئ بأنها تعرفه.

- لقد ضرب الحاج "سامح البرغوثي".

كما لو صعقتني:

- ماذا؟!!

أقولها وأنا أضرب صدري بكلتا يدي. أتوقع أن يخبرني بأن أبناء الحاج "سامح" تجمعوا على الشاب وقتلوه، ومن ثم تذكرت أنني شاهدت "حوده" وهذا السمج جمعة ومعهم عماد، وزكريا أيضا وهم يحملونه، فأريض قليلا ولكن بعد أن لاحظ "أشرف" الذي قال:

- ماذا بك يا امرأة؟

بتلعثم أجيب:

- لا شيء.. لكن الحاج "سامح" رجل كبير، إنه من عمر أحفاده.

- ليس ذلك فقط.. لقد جرح الحاج "ضاحي" أيضا، وفتح رأس عطية.

- فعل كل ذلك؟

- نعم، وحده.. ليس عند الناس حديث سوى عن هذا الأمر.. لكنه مات ضرب أيضا.
ضربه "عجينة"، الذي احتل المرتبة الأولى من حيث الشهرة هذا المساء قبل مديح
الذي احتل بالطبع المرتبة الثانية.
- أغلبهم شامت.

- بالطبع.. لقد كان أغلبهم يريد صفع الحاج "سامح" كما فعل الولد.
ثم أخذ يقص عليّ كل ما حدث. وأخبرني كيف أسهم هذا في تعطيل البحث
عن ذلك المخدر في المنطقة، وكان ضبط معهم كمية ليست بالبسيطة، استطاع
"مندو" أن ينقل مخازنها منذ قليل، وفي أثناء جلوسه هو في النقطة. وبدأ يقص عليّ
يومه بالكامل إلى أن انتبهت لذلك الموقف حينما ذهب أشرف إلى بيت البرغوثي
بعدهما أرسلوا إليه.

فأخذت أتخيل ما حدث في عقلي، وهو يروي علي كل التفاصيل.

يأتي الفرج من السماء بقطرة أولى يعقبها كثير من الأمطار، وقد هدأت الشوارع
بالكامل من المارة، وأظلمت جميع المنازل أضواءها، وأغلقت أبوابها ونوافذها،
وخيم صمت تام على الشارع الذي لا يزال يحمل بقعة دماء كبيرة، وربما كانتا بقعتين
والتحما ببعضهما بعضًا، إحداها ناتجة عن كتف "ضاحي" والأخرى من رأس عطية.
وسط ذلك الصمت الذي خيم على كل شيء عدا صوت قطرات المطر وعواء
الرياح، ومن نافذة تعد هي الوحيدة التي يصدر عنها الضوء في الشارع، يبصق الحاج
"سامح" من الطابق الثالث لمنزل البرغوثي ثم يعود إلى الداخل، وكأنه خرج ليبصق
فقط. في أثناء صعود أشرف لدرجات سلم المنزل الخارجية، ويتجه نحو الأعلى
لمقابلة الحاج ضاحي الذي ينتظره. لكنه انتظر خارج غرفة كبيرة أخذ يتابع ما
بداخلها.

على مقاعد مذهبة ذات كساء من الأقمشة الناعمة حمراء اللون، وقد نقشت عليها ورده مذهبة، ووضعت صينية مملوءة بأكواب فارغة للشاي وأكوام من أقذاح القهوة، بعض من "لاي" النرجيلة موضوع بشكل أفقي _بجوار الصينية_ فوق القرص البيضي من الحجر الجيري الأخضر "الرخام الأخضر"، والتي تغطي سطح الطاولة بالكامل. حول الطاولة جلس الحاج رأفت، و"ضاحي" الملقب بجسده مستندا لكي يريح ذراعه الذي كان مغطى بالشاش والقطن، ومعصوبا بقطعة من الشاش حول رقبته. في حين عاد الحاج "سامح" من الشرفة ليجلس فوق المقعد المجاور لرأفت، والمقابل لتلك الأريكة التي يستلقي فوقها "ضاحي".

يقول رأفت:

- علينا أن نطمئن أولا على أبنائك يا حاج، ومن بعد يحلها الحلال، ولن يهرب أحدا من البلاد.

- لن أترك ابن الكلب هذه ليوم آخر.

- أنا لا أقول اتركه.. لكن أقول نفهم أولا.. لا تنسى أن الشاب جندي بالجيش.

- ها أنت تقول.. جندي! ليس لواء أركان حرب يعني.

- كلُّ سواء في الأميري يا حج.. سيعاقبون رجلهم، ولكن لن يعني هذا أننا ناجون.

- الجيش لا يقبل إهانة أحد أبنائه يا حج.

ينهض منتصفا من موضعه ويقول "ضاحي":

- لا يفعل أحدكم شيئا؛ هذا الأمر لي أنا فقط.

- هل بك حيل لهذا الأمر يا بني.

- سيكون لدي حيل يا أبي.. غدا أو بعد غد.

يقول رأفت:

- غدا أو بعد غد تكون الأمور قد وضحت.. أنا أخشى عليك وعلى أبنائك يا حاج، يكفي ما حدث لابني، لا ينقصنا أن نفقد رجلاً آخر.
يظفر الحاج "سامح" وهو يقول:
وتكون هيبتنا قد ضاعت أيضاً.
- يكاد "ضاحي" أن يتعثر ويسقط من فوق الأريكة وهو يقول:
لن يحدث هذا.. قلت لك اتركه لي، لسوف أحمي وجوده من فوق وجه الأرض.
كانت نبرة صوته قاسية تفهم منها رأفت أن لا مجال لمناقشة الأمر، وصمت "سامح" عن قول شيء هم ليقوله، وانصاع الأبوين لكلمات الابن الذي يتولى كل أمورهم.

أخبرني أشرف تلك الرواية، وهو يحاول أن يشير إلى أن ضاحي هو من أرسل له لكي يحاول محو آثار الدواء، من تلك المخازن، وأن يجعل مندو ينقلها إلى أحد مخازن الأدوية التي تملكها شقيقته بجوار صيدليتها، وأنهم بالفعل استطاعوا فعل هذا بعدما انشغلوا جميعاً بتلك الحادثة التي لم يكن أحدهم يتوقعها مع الحاج ضاحي نفسه، وأهله أيضاً..

مديح

ليلة أخرى على التوالي لم تعطِ الأمطار فرصة لـ "سرور" لكي يضع نصبته، ويفرق مشروباته ويللمم نقوده، فكانت نغمات كركرة النرجيلة هذه المرة حزينة، ومغمّسة بالهموم التي أستشفّها وأنا مستلقٍ فوق فراشي بجوار النافذة المفتوحة أراقب زخات المطر المتزايدة. مضت الثواني والدقائق والساعات وأنا بلا همس، وبلا نوم، ومنعدم الحركة أيضا. كشوال أرز ألقى من فوق كتف أحدهم، بجوار جدارا منسيّ. نبتت فكرة أن أهبط لرفقة "سرور" كبذرة صغيرة، ومن ثم أخذت تتشعب وتكبر على مدى الساعات الماضية حتى أصبحت تجول بخاطري كله وتحمل الموافقة عليها الجزء الأكبر منه، فملأت عقلي. تمنيت لو أعرف متى انغrust تلك النبتة بين أفكارى، ولا أدرك كم مضى من الوقت حيث ودعتهم هو ومنذو. فدفعتني هذا السؤال أن أتحامل على نفسي وأنهض، لأوجه رأسي نحو الخارج دون أن أفارق الفراش بعد، فعلمت أن الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

أمسك رأسي الذي أرسل لي ما يشبه الموجة الكهربائية التي فصلتني عن الوعي للحظة؛ مرتين متتاليتين. ثم أخذت أنحني للأمام وأسترخي على تلك الوضعية قليلا قبل أن أنهض وأحاول التركيز حتى أتمالك نفسي. شعرت لوهلة أنني مسيطر على كل شيء عدا عيني، تلك هي التي لا أتحكم بها بعد. وكل الصور التي يعرضها عليّ عقلي كانت مشوهة ومقطعة. استقر على محاولة الهبوط والخروج من تلك الحالة الثابتة بما أن الأمل في النوم صار شبه منعدم.

ترنحت قليلا عند الباب، ولكن مع درجات السلم زاد تركيزي، وشعرت أنني أصبحت أكثر يقظة، وحين وجدت نفسي أمام الباب كنت أحتاج لمعاونة الجدار،

والاستناد عليه، وبتلك العيون المشوشة شاهدت الدخان القادم من البقعة التي يجلس بها "سرور" لم تظهر أمام عيني بعد. فأخذت أستند إلى الجدار حتى أكملت حارقي الصغيرة وأصبحت أمام البيت الأصفر، وأسندت يدي عليه.

يلمحني "سرور" فيهب من فوق مقعده لمعاونتي. ولكنني أستحي ان أستند على ساعده وأكمل طريقي بجوار الجدار حتى أجلس فوق الرصيف المبتل، والذي حاول "سرور" منعي عن الجلوس فوقه، وأن أجلس فوق المقعد، لكنني أصريت. فقال "سرور":

- لقد أصبحت عال العال.. أنا أعرف أنك رجل، ولن تتكوم من أجل حاجة بسيطة كتلك.

كنت أريد أن أجيئه بكثير من الكلمات، ولكنني لم أجدها فاكتفيت بقول:

- تمام.. تمام.

- المنطقة كلها تتحدث عما فعلته اليوم؟

- أنا؟

- بالطبع أنت؟

- وماذا فعلت؟

- مجرد شيء بسيط، بسط جدا.. صفت وجه الحاج "سامح البرغوثي".. فقط.

- لا أتذكر أنني فعلت شيئاً مثل هذا.

إنني حقاً لا أتذكر، لم يكن عقلي يتذكر شيئاً سوى تلك المرأة ذات القميص الأسود. لكنني مع بعض كلمات قليلة أخرى من "سرور" بدأ عقلي يسترجع جميع الأحداث فهبت واقفا بغتة جعلت "سرور" يلقي "بلاي" النرجيلة من بين يديه وكاد يسقط من فوق مقعده، وأنا أقول:

- "عجينة".. الولد "عجينة" ابن الزانية.

يهب "سرور" للإمساك بذراعي ومحاولة إعادتي إلى المقعد ويقول:

- ليس الوقت وقت "عجينة" الآن.. اجلس.. اجلس الله يهديك.

- معك حق.. إننا الآن في المساء، والناس نيام.

- بالضبط.

تشتد الأمطار فأبتسم وأقف بمنتصف الطريق حتى تغرقني المياه، بينما يقول

"سرور" كما لو كان وجد موضوعا يتحدث فيه معي حتى أجلس:

- ماذا ستفعل بشأن الشرطة العسكرية تلك.. ماذا لو أن "أيمن بك" قد أبلغهم بالفعل.

الشرطة العسكرية؟! أسأل نفسي في دهشة، ومن ثم أتذكر الأمر برمته بغتة

ودفعة واحدة. إنني مجند في الجيش، وإنني على ذمة الجيش، ثم أتذكر أن "أيمن" هو

معاون النقطة. وأتذكر مشادة كلامية حدثت بيننا منذ فترة قصيرة، ولكنني لا أدري

متي؟

فأقول متصنعا الانتباه:

- هل يكون أبلغ حقا؟

- ربما.. من يدري؟ لم يكن معه أحد حتى يؤكد أو ينفي، ولكن ماذا لو؟ ماذا ستفعل؟

- لن أفعل شيئا.. أنا أتمنى لو لم أكن خارج الجيش الآن، وأتمنى العودة الآن قبل غد..

سوف أذهب معهم.

بدأت أستعيد الذكريات شيئا فشيئا. فأضيف:

- لولا ذلك الضرر الذي جعلني أطلب منهم تلك العطلة..

أتذكر ضرسني فأسأله:

- هل تضاعل حجم الورم في وجهي يا عم "سرور"؟

بدهشة يتطلع "سرور" في وجهي وكأن الورم دقيق جدا ولا يراه ثم يقول:

- أي الأورام تقصد يا مديح يا ولدي؟

- ماذا؟

- وجهك ليس به ورم واحد يا مديح.. إن وجهك ضائع وسط مجموعة من الأورام والألوان أيضا. أنا لا أجد شيئا من ملامحك بينها.

- هل حدث كل هذا في وجهي، من جراء ضرر.

يمد "سرور" يده نحو قميصي ويرفعه أمام عيني، حتى أرى شيئا مقززا، وهو إفرازات ذلك التورم الذي كان في فمي، وربما قد هطل من فمي إلى قميصي دون أن أدري ربما وصل إلى معدتي أيضا. إنني لا أشعر بذلك الورم، ولكنني حين أتلمس وجهي لا أفهم ما الذي حدث لإبعاده، وكلما طلبت من نفسي أن تذكرني لأنظر في المرأة لا تذكرني بشيء. وأسمع "سرور" يقول:

- أعتقد أن ورم الضرر لم يعد موجودا، ولكنه ترك لك العائلة بالكامل لتتوب عنه.

نضحك معا ومن ثم يظهر عند التفاف الشارع من بعيد سيد الحانوتي. في موعده اليومي، والذي يتضمن جدول أعماله به خمس دقائق قد خصصها لـ "سرور" كل يوم، وكل يوم يضاف إليها ربع ساعة أو نصف، على حسب حالة "سرور" المزاجية.

بتلك الطريقة المتملقة التي أعرفها جيدا يقول الحانوتي:

- كيف حال البطل؟

ها هي طريقته التي أكرهها، ولا أحب الرجل من أجلها.. إنه يتودد لجميع الناس ويشكر فيهم جميعا ويريحهم جميعا. لكن ما أقوى الكلمة التي قالها "بطل". فأقول مندهشا:

- بطل؟! هل أنا بطل؟

- وهل يفعل ما فعلت سوى الأبطال!

يقول "سرور" وهو ينفث دخان الشيشة:

- لماذا أشعر أنك لست على دراية بما فعلت؟

- أتعاطيت شيئاً أم أن هذا من تأثير الضرب الذي تلقيته أم ماذا؟

- أتقصد أنني صفعت "سامح البرغوثي"؟

- بالطبع.

- لقد صفعتني وإلا ما صفعته.

تهللت أسارير سيد وهو يقول:

- المهم أنك صفعته.

أسمع صوت احتكاك أخشاب وكأن نافذة تفتح، ومن ثم أحد. إنها نافذة في

البيت الأصفر يظهر من خلفها "أشرف"، ينظر يمينا ويسارا ومن ثم يختفي خلف

النافذة بعد أغلاقها. فيقول سيد:

- لا يزال صاحبك مستيقظاً.

فيجيب سرور بعصبية ساخرة:

- ولو ظل عشرة ليالي بلا نوم يا رجل.. هذا الرجل مخنث.. كالخمار الذي يحمل ذهباً،

هل يعي الخمار قيمة الذهب؟

ليس هناك شك في أن "سرور" يضع تلك المرأة "سماح" في رأسه، بل إنه

مقتول عليها، ولربما كان ييوح ببعض من ذلك إلى سيد في إحدى جلساتهم اليومية،

ولذلك فإن "سرور" ربما قد أذاع في المنطقة بالكامل أن الرجل مخنث.. لا أجد

لذلك سبباً، هل بذلك سوف تبحت عن "سرور" مثلاً؟ إن كانت أكذوبة "سرور"

سوف تدخل عليهم جميعاً فالوحيد الذي يستطيع أن يؤكد أو ينفي هي تلك المرأة،

ولذلك فلن تدخل عليها كذبة هي متأكدة أنها كذبة. فماذا سيستفيد "سرور"؟ مجرد

تفكير عربي عاشر الحمير أكثر من النبي آدم. أنهي بها تفكيري عن الأمر.

- يقول سيد وهو يضحك وكأن "سرور" قدر على ما لا يقدر عليه أحد:
- لقد شهرته أنت يا معلم.
- يدعي "سرور" الاندهاش:
- أنا؟ وما لي أنا في ذلك يا عم سيد؟ أنا في حالي يابا.. لا أقول ولا أعيد.
- يتحول وجه سيد ويتخذ ملامح جادة وهو يقول:
- لكن أنا أريد أن أقول لك شيئاً هاماً يا عم مديح.. لم أكن لأقوله إلا لخوفي عليك.. أنت مثلـ
- أقاطع ثرثرته المتملقة:
- ما هو؟
- يرتبك سيد من طريقتي ومع ذلك يزدرد لعبابه ويقول:
- لقد أبلغ "أيمن بك" الشرطة العسكرية حقا.
- ولماذا يفعل؟
- لأنه خشي عليك من عائلة البرغوثي على ما فهمت.. انتبه يا أخي، لا يمنع هؤلاء
- الناس عنك سوى هذا الأمر.. إنهم لن يتركوك.
- لن يفرق في شيء فليفعلوا ما شاءوا.
- لقد أردت أن أنورك فقط، وأنت حر التصرف بالطبع.
- يقول "سرور" في شكل متحمس:
- سوف أذهب إلى الوسعاية وأرى إن كان هذا الكلام صحيحاً أم لا، وسوف أعود لكي أخبرك بذلك.

لا أعطي الأمر أهمية وأترك سرور ليذهب، فيقول سيد:

- أنا أيضا تأخرت كثيرا.. سأجد الأولاد نائمين وسوف أبيت في الشارع.. تصبَحون على خير.

لا أجيبه، فيمضي سيد في طريقه بلا جواب.

كلمات سيد مقلقة حتى وإن حاولت إظهار عكس هذا.. أنا لا أخشى الشرطة العسكرية، ولا تشغلني مسألة العقاب.. كل ما أخشاه هو أن يُقبض عليّ. وتمر عليّ فترة طويلة دون أن آخذ ثأري من ذلك الكلب "عجينة"، أو أولاد البرغوثي، وبذرة الزنا "محمد السمكري". حتى "أيمن" إذا فعل ذلك، واتضح أنه أبلغ الشرطة العسكرية حقاً.. لسوف يدفع ثمن ذلك.

بعد فترة ليست بوجيزة، يعود "سرور". عوده القصير وجسده النحيل يتأرجحان داخل جلبابه الواسع، ونعلاه الكبيران يكحطان الأرض من ثقل حملهما على قدمه. يقول عندما تصبح المسافة قريبة بينه وبينني، وهو يهمس:

- يبدو أن الحديث صحيح.. الشرطة العسكرية قادمة من أجلك بالفعل، ولقد سألوا كثيرين ولكنهم ضلّوهم خوفا منك. جميعهم الآن يهابونك، أنت صفت أكبر رأس في المنطقة على وجهه.

- ألن نكتفي من هذا الحديث بعد؟

- عليك أن تتحدث به كثيرا، حتى ولو بينك وبين نفسك.. إن أنت تركتهم فهم لن يتركوك.

- أنا لن أتركهم من الأساس، فلا تحش شيئا.

- ماذا ستفعل الآن؟

- لا أعرف.

- دعنا نفكر قليلا.

احتضن كفتي يدي فوق صدري وأشبكهما ثم أقول:

- لم أؤمنك.. رأسك فوق أكتافك، وعقلك بداخل رأسك، استدعي الأفكار.. وكلي آذان صاغية.
- يجب أن تختبئ.
- هذه الفكرة بالحق جديدة.. لم أكن أعلم أن عليّ الاختباء حقا.
- لا تسخر مني.. ووفر ذلك لتفكر أين تختبئ.. فليس هناك وقت.
- أعتقد أن المقابر هي خير مكان للاختباء.
- كان غيرك أشطر.
- لا تصلح؟!!
- بالطبع لا تصلح.. الشرطة تعرف كل سور، وكل مقبرة وكل طريق، وما يصلح للاختباء وما لا يصلح، هذا بخلاف عيونهم المصفوفة على مساحة المقابر بالكامل.
- عيونهم؟!!
- طبعاً عيونهم.. أنت لا تعلم بالطبع أن نصف سكان المقابر جواسيس للشرطة؟
- لا أعلم.
- ها أنت تعلم الآن.
- والعمل؟
- كنت سأقترح عليك "مندو".. ولكنهم سيبحثون عند كل شخص تعرفه.
- لا تقلّ جديداً مرة أخرى.
- نريد مكاناً لا يخطر على بال أحد.
- بالضبط.. أين هو ذلك المكان؟
- لدي واحد.
- انتبه مديح على الفور وسأله:
- هل لديك مكان حقا.

- ليس ملكي، ولكن أعرف مكانًا أدلك عليه.
- أين؟
- أشار "سرور" برأسه تجاه البيت الأصفر، وهو يهمس له في أذنه:
- الطابق الثاني، به شقة مهجورة، يخشى جميع الناس هنا أن يعبروا أمام بابها.. يعتقدون أنها مسكونة باللهم احفظنا وابتعد عنا الشر.. مسكونة بالجن والعفاريت.
- أبتسم:
- وهل لي أن أسكن معهم لبضع ليال.
- يجب "سرور" على الفور بعد أن قلب راحتيه ومط شفتيه:
- ومن أين لي أن أعرف؟! اسألهم بنفسك.
- هل ترى أنت ذلك؟
- أنا لا أرى سوى ذلك.
- وإن علم أحدهم أنني أختبئ هناك؟
- أكون أنا من أبلغه على الفور.. هل تحتاج هذه إلى كلام؟!
- والتمن؟
- يضرب رقبتة بيده ويقول:
- رقبتني.
- اتفقنا.
- أقولها وأنا أهم لأنهم، فيستوقفني "سرور" قائلاً:
- لا.. انتظر.
- ثم يتلفت حوله كاللصوص وهو يضيف:
- دعنا نترقب الجو، والوقت المناسب.

يذكرني سرور بلواء متقاعد، وهو والد القائد أحمد. حينما يتحدث معي، خاصة أن في بعض كلماتهم تشابه كبير، ومعتقداتهم أيضا. فأجيبه بطريقة عسكرية: - في انتظار أوامرك يا قائد.

أقولها وأنا أرفع جفني بمعاناة شديدة لكي أرى وجه "سرور" المبتسم. ثم أغلقهما مرة أخرى. لكنني ألمح هناك عند التفاف الشارع من أوله، شخص ما كان سيعبر الطريق، ثم أخذ يعود مسرعا وكأنه يهرب، فيهب الاستنتاج إلى رأسي على الفور، لا يوجد سوى شخص من اثنين، واحد منهم فقط من سيهرب بمجرد أن يراني، إما "عجينة"، أو السمكري..
بالطبع أتمنى الاول..

مديح

يصمت المطر، وتصمت معه كل الأصوات عندما اقترب الوقت على الفجر، في ذلك الطقس البارد، وقد خلت الشوارع من المارة، حتى ما ندر. لكني لا أزال مع "سرور" فوق الأرض المبتلة أنتظر تلك اللحظة المناسبة، ولم يكن يسكن البيت الأصفر سوى "سماح" في الطابق الأعلى، وفي الطابق الأرضي هناك حجرة استأجرها صاحب ورشة المنجد الإفرنجي لتكون له مخزنًا. فظل نظرنا معلقا بغرفة "سماح" حتى إذا انطفأ الضوء منذ عشرين دقيقة، ولم يفتح مرة أخرى كما حدث أكثر من مرة قبل الآن. قد كانت هي العقبة الوحيدة.

فأنا لن تصلح معي تلك الغرفة في الطابق الأرضي، وذلك لأن بها نوافذ مفتوحة، ومطلّة على الشارع، بحيث يستطيع طفل صغير لم يتخطّ الخامسة أن يشاهد منه كل ما بالداخل.

والسبب الآخر، هو أن ذلك المخزن يتردد عليه كثيرٌ من العمال على مدار اليوم، ولهذا فقد اقتنعت بالاختفاء في الطابق الأعلى. وهذا أيضا ما نصحني به "سرور" في إحدى مناقشاتنا السابقة.

فتلك المرأة "سماح" لن تخرج من منزلها سوى مرة في الصباح وأخرى بعد الظهر، وعلى ما كان يسمع من كلمات الجيران أنها تخشى أن تخرج من غرفتها إلى الصالة الخارجية لأنها تخشى مما يقوله الناس عن تلك الغرفة، وكيف هي مسكونة بالجن. وذلك سوف يحميه أكثر، فهو لو تحرك ذات وقت رغما عنه، أو افتعل أية من الأصوات غير المقصودة، فهي لن تحاول معرفة مصدر الصوت، وستنسب الأمر إلى العفاريات على الفور.

كان الوقت المنصرم منذ أن أغلقت "سماح" الأضواء، قد عبر النصف ساعة ببضع دقائق. وأصبحت هناك ثقة داخلي وأيضا "سرور"، بأن الأمر أصبح لا يحتاج سوى مسح كامل للمنطقة نحو الأعلى، والاطمئنان على أن جميع النوافذ والشرفات خالية تماما، ومن ثم أمضي إلى مدخل البيت الأصفر.

صعدت سلم المنزل على أطراف أصابعي، وتمهلنا قليلا حتى تأكدت من خلو الصالة الخارجية. ثم عبرت إلى الباب الذي لم يكن مفتوحا منه سوى معبر لا يتجاوز الأربعين سنتيمترا، ولذلك كاد أن ينكشف أمري، حينما أصدر الباب صوتا مزعجا وأنا أزيح بعض الأتربة وبقايا الأثاث الخرب، وبعضا من لون الحائط المهترئ يتطاير مع تيار الهواء الذي دلف قبلي إلى الغرفة مع فتح الباب قادما من النافذة الكبيرة بالصالة.

دلفت إلى الداخل وما كاد جسدي يعبر ذلك المعبر الضيق حتى دوى صوت الرعد في السماء عاليا. فأغلق الباب مسرعا من هول المفاجأة، ولحسن طالعي كان صوت الرعد أقوى من صوت انغلاق الباب. ومن ثم سمعت صوت الأمطار فوق السقف الخشبي، وكان صوت الأمطار قويا؛ حتى إنه لفت انتباهي وأنا في تلك الحالة. ولم تكن عيناى تكشفان شيئا داخل الحجرة، كان الظلام ثقيلا كما الهواء بالضغط. لكنني مع أول ضربة للبرق لتنير الأفق لمحت تلك الأتربة فوق الأرض بارتفاعها الحقيقي، وشاهدت بعضا من بقايا أثاث مكسور، ملقى في جنبات الحجرة. فأظلم في مكاني لبرهة حتى تعتاد عيناى المكان.

وجدت أحد الأركان الصالحة لمكوثي به دون أن أتسبب في حدوث أي صوت، فمكثت به لأقل من نصف ساعة، كما حسبته بالتقريب فأنا لا أملك ما أحسب به الوقت. وبعدها وجدت الأمطار تتوغل من ثقب افتعلتها بنفسها في سقف المنزل. لم يمض سوى قليل حتى سمعت صوت "أشرف" يتحدث في الحجرة

المقابلة. كان يقول شيئاً لم أفسره، وبعدها سمعت صوت "سماح"، وتفهمت أن الأمطار تسببت في إيقاظهم، وربما هطلت الأمطار عليهم من السقف كما هطلت وتسربت من سقف الغرفة التي أجلس فيها حتى أغرقت الأرضية بالكامل. لم تهدأ الحركة بعدها في الغرفة المقابلة، وكأنهم يحاولون السيطرة على منسوب الماء داخل غرفتهم، في حين أن منسوب المياه قد ارتفع جداً في الغرفة التي أنا بها، والرددة الخارجية للطابق بالكامل، ولا أظن أن غرفتهم أقل حظاً ووفرة مما أنا فيه بالطبع.

سمعت أصواتاً تأتي من الحارة، هناك من يتحدث في الوسعاية. قبل أن أصل إلى النافذة لأستوضح الأمر، كانت الأصوات أصبحت مختلفة النبرات والأشخاص. هناك عدة أشخاص بالشارع، ولكن لم يمضِ إلا قليل وأصبحوا مجموعة كبيرة مُشكلة من سكان جميع المنازل القديمة في الحارة، وقد هبط السكان إلى الشوارع خوفاً من سقوط المنزل فوق رؤوسهم وهم نيام، كان هذا مجرد استنتاج لم يتأكد بعد. لا تزال حالتهم النفسية متأثرة من الزلزال بعد مرور ثلاث سنوات.

يفتح "أشرف" باب الغرفة التي يسكنها، ويعبر بابها نحو الخارج وهو يهمس ببعض اللعنات والسباب غير المفهوم. شاهدته من ذلك الفراغ القليل بين الباب والقائم. إن "أشرف" يحمل بيده دلوّاً يعبئ بداخله الماء، ويتجه به نحو دورة المياه كي يصرفه هناك. ثم يعود محدثاً تلك الأصوات بهذا الخف اللعين بأقدامه. وسمعته يقول لـ "سماح":

يا بنيتي من أين نبدأ وأين ننتهي، إنه أمر ليس له أول أو آخر.

يأتيه صوت "سماح" من داخل غرفتها لاهثاً هذه المرة:

- وهل نترك البيت الذي يأوينا يهوي.. أين سنعيش بعدها؟ إن سقوط هذا المنزل يعني سقوط حياتنا.

- هيا بنا يا بنت الناس.. هيا نهبط ونسلم أمرنا لله.. على الأقل ننجو بحياتنا.

تظهر عند الباب بقميصها الأسود فتبدو كالظل في الظلام، وتقول في عناد:

- ما أفعله أنا هو النجاة بحياتنا.. حياتنا هي هذه الجدران التي سترتنا وسوف تسترنا..

إن أردت أنت فأنجُ بحياتك حيث تقف مع من هجروا منازلهم، أما أنا فلن أترك هذا المنزل قبل أن ينطبق فوق رأسي أولاً.. أو نساعد ليظل يحمي حياتي وحياة ابنتي.

لم أكن أظن أن هناك أم تحب ابنتها بتلك الطريقة التي تحب بها تلك المرأة ابنتها، كيف لم تحبني أُمِّي أنا حبا شبيها بحب تلك المرأة لصغارها؟ سؤال يدعو للبكاء. وما كان مدعاة للدهشة أكثر حينها سمعت "أشرف" يلقي بالقدر فوق الأرض وهو يقول مستسلما:

- لن أهرب يا سيدي، ولن أنجُ بحياتي.. ستظلين فوق رأسي حتى أفقد حياتي يوما ما..

لم أكن أظن أن "أشرف" أيضا سوف يطيعها في ذلك، وأنه سيربط حياته بحياة زوجته وابنته عند اللزوم. فكيف إذن تخلى عني والدي؟ ترى أن هذا الأهل أبو طويلة لديه غريزة أكثر مما كانت لدى والدي، أم أن والدي كان من نوع آخر، لا يملك غريزة أو غيرها من مشاعر يدعي الناس أن كل والد يملكها؟ الرجل لم يفكر حتى ولو مرة أن يعرف كيف أعيش؟ أو على الأقل إن كنت أعيش ولست ميتا أو مقتولا. قبل أن يغمغم "أشرف" وهو يعبئ الدلو بجرف بلاستيكي:

- امرأة ملعونة.. ملعون الزواج واليوم الذي فكرت به في الزواج.

فطنت أن منسوب المياه في الأرض، مشترك بين القطع الثلاثة، الحجرة التي أنا بها، والردهة الخارجية، وحجرة "أشرف" عدا الرواق عند نهاية الصالة، والذي لديه درجة سلم عالية قبل أن تظهر من الردهة دورة المياه الصغيرة. فيستعيد عقلي صوتهما

وهي تقول: "حماية المنزل" وبما أن تلك هي الفكرة المسيطرة على أفعال "سماح"، فإنها سوف تسعى لتجفيف جميع الماء، حتى التي في تلك الغرفة التي أنا بها. وهنا سوف ينكشف أمرى لا محالة. "الله يُحرِّقك يا سرور، ويُحرق شورتك السوداء" هكذا أُغمغم لنفسي في همس. بدأت بعدها أبحث بعيني عن مكان لكي أختمي به، ولكنى لا أستوضح ملامح الغرفة جيدا. إلا في تلك الثواني الخاطفة التي تبرز فيها السماء وترعد. وتكون للحظة واحدة أشاهد فيها ما كان نظري موجهها له مسبقا فقط.

لا تزال "سماح" تلتقط من "أشرف" الدلو الفارغ لتناوله آخر مليئا قد عبأته هي بكوب بلاستيكي وجرف، من داخل الغرفة، فيتجه هو نحو تصريفه في دورة المياه ليعود ويأخذ ما عبأته مرة أخرى. وبعد قليل كانا قد سيطرا على جزء كبير من الماء، ولكن السماء تمطرهم بما يعوضه، وقد سمعت أهل الحارة بالأسفل يفتحون أحد المصارف العمومية، ويسحبون المياه ببعض الماسحات الجلدية. يوجهون المياه عبر عصا طويلة نحو ذلك المصرف. وبين سيطرة أهل الحارة على المياه بالأسفل، وسيطرة "سماح" على المياه بالأعلى بدأت أطمئن قليلا، وبالأخص حينما بدأت بعض خيوط الضحا تلمع قليلا في السماء القاتمة الزرقة، والتي ألح الشؤم بداخلها كلما نظرت نحو النافذة.

يقف "أشرف" بمنتصف الصلاة ممسكا خصره بيديه، وينظر إلى السقف ليقول: يجب أن أضع مصباحا في تلك الصلاة.

يأتي صوتها أكثر وهنا وهنا وهي تقول باستنكار:

- هل هذا وقته؟ حتى وإن كان هناك ضوء، لقد فصلت الكهرباء منذ أن تسربت الماء من السقف.
- كيف لم أنتبه إلى هذا.
- ومتى انتبهت إلى شيء.
- لماذا لا نفعل مثل ما يفعل الناس في الشارع.. وننزع الماء عبر السلم إلى الأسفل.
- وأين ستذهب المياه للأسفل.. سوف تنحبس بالمدخل.. إن الأرض تحتضن المنزل بين أعماقها.. ستظل المياه بالداخل، وتذيب الجدران، وكما لو كنا لم نفعل شيئاً.
- معك حق.
- انقطع صوتها وصوت نزع المياه لبرهة وكأنها كانت تفكر في شيء ما ثم أتاني صوتها تقول لزوجها:
- ولكننا علينا أن نجد أحد تلك الماسحات، وننزع بها الماء من داخل تلك الغرفة نحو الصالة لنعبئها.
- وما لنا بهذه الغرفة هي الأخرى؟
- ما كان لنا بباقي البيت.
- ليس لدينا ماسحة جلدية.
- حاول أن تقترض إحدى تلك الماسحات من أحدهم.
- وهل سيعطيني أحدهم ماسحته.
- ولم لا؟ إنه ظرف قهري، والناس لبعضها بعضاً.
- سوف نرى.
- إن لم تجد ماسحة فسوف تنزع تلك المياه وحدك.. أنا لن أدخل تلك الغرفة أبداً.

سوف أجد واحدة.. أعدك سوف آتي لك بواحدة.. حتى ولو اشتريتها، ولن أتركك حتى تجف المياه بالكامل، وسوف تنزح المياه بالكامل من أجل خاطر مخ أمك الحجر هذا.

ليس أمامي سوى تلك الفترة القصيرة بين هبوط "أبو طويلة"، وبين صعوده؛ حتى أختفي. لكنني لا أعلم أين أختفي إلى الآن. لقد تحول لون السماء إلى الأرجواني، وبدأت أصوات العصافير تدوي في الأفق، ولكن لا تزال مظلمة بغيوم المطر.. معتممة بهذه السحب الرمادية الكثيفة. ليس هناك أمل في الاختفاء بالداخل.. عليّ أن أخرج من الغرفة وأن أجد مكاناً آخر لي أختبي به.

ربما أذهب نحو دورة المياه إذا أعانتني الفرصة على ذلك. لكن "أشرف" سوف يذهب إلى دورة المياه، حينما يريدون تصريف المياه. لا أفهم السبب الذي جعل الأمطار تفعل هذا بي. لقد مرت الأمور معي بمنتهى السهولة في البداية. لولا سقوط تلك الأمطار لكنت الآن قد دبرت كل شيء.

أتلفتّ حولي للبحث عن أي شيء أستوضحه من جديد في الغرفة، ومن ثم أتجه إلى الباب حينما لم أجد ما أبحث عنه، وأحاول أن أعبره بجسدي في خفوت، وتسلسل. لكنني لم أكد أفعلها حتى لمحت باب غرفة "سماح" يتحرك؛ فأتراجع على الفور بشكل غرائزي، وأخفي جسده خلف الباب.

لقد عبرت "سماح" ذلك الباب إلى الخارج وهي تحمل بين يديها ذلك الدلو الممتلئ، ولقد سمعت صوت خطواتها تتجه إلى دورة المياه، فانتظرت حتى عبر صوت خطواتها بابي، وأخرجت رأسي قليلاً لكي أتطلع على الأمر. فوجدتها تتجه نحو دورة المياه التي بدت لي من مكاني هذا صغيرة. لأنني أشاهدها حينما وصلت إليها رفعت قدمها فوق مصد صغير من الحجر عند فتحة الباب، وأطلقت العنان إلى

المياه لتنتقل نحو مصرفها. فتساءلت عن المساحة الباقية في الخلف، والتي تظهر جلية في مدخل المنزل. ترى ما ذلك الرواق؟ وإلى أين يؤدي؟

عادت "ساح" وهي تمسح هامتها بساعدها وترفع بعض شعرها قد ترك مكانه وسقط. فتتسع حدقة عيني عن آخرهما حتى أستطيع تفسير تفاصيلها، ولكنها لا تظهر لي وسط الظلام المحيط بالمكان، وبالأخص عند تلك البقعة التي تقف هي بها. فليس بها أي منفذ للضوء الذي لا يزال لم يسطع حتى الآن إلا قليلا. يظهر لي هذا حينما أنظر في الجهة المعاكسة لدورة المياه بطرف عيني لأشاهد من تلك النافذة الصغيرة، في الجدار المواجه للشارع، والذي يأتي منها صوت "أشرف" الذي صادف أحد معارفه فأخذ يتحدث معه عند مدخل البيت، وتسلفت إلى مسامعي بعض كلماته. كلمات كـ (ربنا سترها، ونحمد الله أننا استيقظنا) وبعض كلمات شبيهة جميعها تنصب داخل العنوان الكبير لهذا الموضوع وهي أن الأمطار باغتتهم، فعدت إلى "ساح" التي كانت قد التقطت بعض أنفاسها عند مدخل الصالة، ومن ثم دلفت إليها لتجلس على ركبتيها في الأرض، وتبدأ بنزح المياه بالجرف في تعب يصحبه الإصرار.

لا يزال صوت "أشرف" يظهر بالأسفل على فترات، وقد بدأ بصيص من الضوء يعبر من تلك النافذة التي تحتل واجهة الردهة، ولن تعبر من خلال النافذة في غرفتي، هذا لأن فوق نافذة الغرفة ستارة قديمة من أقمشة حمراء ثقيلة، لا تزال محتفظة بموضعها فوق النافذة. كنت أعرف هيئتها الخارجية المميزة، فلقد شاهدتها كثيرا في أثناء عبوري من الوسعاية، ولقد كنت دائم النظر إليها. أما من الداخل فقد كانت المرة الأولى لي التي أشاهدها فيها. لكن أجزاءها واضحة بالنسبة لي الآن وهي الشيء الوحيد الذي أصبح مضيئا ببعض الخيوط الرفيعة عند الأطراف. لتبشرني بحسن طالعي. ستظل الغرفة مظلمة لفترة أطول.

أمام النافذة، وعند الجدار المقابل لها ينتهي الضوء الذي يظهر في الغرفة وكأنه ظلٌ، ولكنه مضيء وليس مظلمًا. عند طرف هذا الظل يتضح في الضوء عمود من المسلح، وهو الشيء الوحيد الحديث في أدوات البناء المستخدمة في المنزل، ولكن هذا العمود لا يحمل شيئًا، ولا يشترك بشيء، إنه مجرد عمود ملقى بالغرفة ليستند فوق الجدار، يبدو أنه أحد المحاولات الفاشلة التي قام بها السكان القدماء للاحتفاظ بصلابة المنزل. بالطبع دون جدوى.

يعود بنظره إلى "سماح" التي بدأ نصف جسدها يفترش بضوء الصباح فتضيء معه بشرتها الناعمة بفعل مياه الأمطار التي أغرقتها بالكامل. لكن "سماح" لا تشعر بأي من برودة الطقس نظرا لذلك المجهود الجبار الذي بذلته، والذي اختلطت معه مياه العرق بمياه الأمطار.

كانت تعبى الدلو بالجرف من مطب هابط كفجوة بالأرض تجمعت بها المياه في منتصف الصالة بالضبط، وأمام باب الغرفة التي تواريت خلف بابها. فأتطلع إلى كتفها الذي أظهرته إضاءة النافذة، وأخذت أدق النظر من داخل فتحة طويلة بالباب القديم الذي تباعدت مسامه ونحتت بفعل الزمن. وأخذت أتطلع إلى حركة يدها التي تتحرك معها حاملة قميصها، وبالتالي يهتز معها صدرها الذي كان نصفه مغطىً عليّ من تلك الفتحة الدائرية في قميصها ذو الحاملتين الطاولتين عند ظهرها؛ والذي كان يظهر أمامي جليًا وهي تنحني لتجرف المياه. فتسارعت أنفاسي وأنا أفقد الذاكرة، وأفقد الإحساس بكل شيء من حولي، ولم يتبقَّ بعقلي تركيز على شيء سوى تلك الحالة المتسارعة داخل عروق وأعصاب جسدي، والتي لم أعد أفهم اتجاه سريانها بجسدي حتى تجمعت جميعها بين فخذي وركبتي وكادت تفقدني السيطرة على أدق أعصابي، ومن هول قوتها شعرت برجفة، لم يعد لي أدنى سيطرة عليها.

قبل أن يمتلئ الدلو بعدة تصرفات أخرى كانت حاملة القميص قد زهدت تلك الحركة الدائمة لأكتاف "سماح"، وبدأت تتحرك من أسفل رقبته لتتجه نحو عضلة الكتف، ومنها تنزلق مع حركة يدها ومن ثم تعود، وكلما تحركت انكشف لي قليل من صدرها، وما أن رأيته حتى لمست في ذاكرتي عند سلم أم سعيد، وكدت أفقد الوعي من فرط دقات قلبي المتسارعة. فأنا لم أتجرأ ولمست صدر امرأة من قبل سواها، فمع كل تلك الوسامة التي تحسني عليها العيون، إلا أنني لم أتجرأ من قبل على لمس أيٍّ من الفتيات اللاتي عرفتهن، ولم يكن عددهن كبير في الحقيقة. إنهن اثنتين فقط. فأتعمق بنظرة داخل قميصها حتى كادت عيني تخرج من محجرهما وتقفز خارج وجهي. وشعرت بجسدي كله يتبدل، وبتغيرات تحدث لكل شعرة من جسدي قبل كل عضلة. وشعرت أنني انفصل عن كامل الدنيا وما فيها، وأغرق داخل حاملة صدرها إلى الأبد، فلم أعد أسمع تلك الأصوات الآتية من النوافذ، ولم أعد أرى تلك الستارة، أو أراقب صعود "أشرف"، أو حتى أستفيق لموقف الصعب الوشيك على الفضيحة. لم أعد أرى شيئاً أو أشعر بشيء سوى ذلك الصدر الذي ترك مكانه وخرج، عندما سقطت الحاملة إلى أسفل ساعدها في إحدى تلك الحركات، ولم تفق به "سماح" على الفور، بل استمرت في تجريف المياه ثلاث مرات إضافية قبل أن تترك الجروف من يدها وتعديل حاملة القميص ثم تنهض لتحمل الدلو إلى المصرف. تاركة حالتي الصعبة تملك من عقلي، مغمض العينين، أتمنى لو أن بين جفوني آلة تستطيع نحت هذا المشهد عليها، فأراه أمامي كلما أطبقتهما أمام عيني.

صوت نعل "أشرف" يلطم السلم يدق في أذني، وتبعث المياه عالية المنسوب داخل الغرفة بعض الموجات الدائرية مع خطواته الثقيلة. لم أفتح عيني بعد، ولم أنتبه أن تلك الأصوات التي تلتقطها أذني لـ "أشرف"، ولا أشعر بقرب صعوده، وكأن

تلك اللحظة قد خدرتني، حتى عن مراقبة "سماح" نفسها. ما هي إلا ثوانٍ، وأقع بين يدي "أشرف" في أغلب الاحتمالات. إلا إن استطعت التركيز على ذاكرتي، يجب أن أتذكر تلك الغرفة، لقد زرتها من قبل، عندما كنت صغيرا. أذكر نفسي ربما أستفيق، وأدور بعيني في المكان، ولكن لا مفر، وصوت خطوات "أشرف" تقترب أكثر فأكثر..

ويقترب معه فضح أمري أمام أهل الحارة جميعا.

سماح

أسمع صوت أقدام "أشرف" وهو يصعد السلم، فنظرت إلى النافذة التي قد اتضح منها ضوء النهار قليلا، وعلمت أن "أشرف" سيؤنبني على وقوفي في الردهة بهذا القميص الشفاف، فلطالما حذرني من خروجي بهذه الهيئة عندما تكون نافذة الصلاة مفتوحة، وأنا لا أستطيع أن أغلقها، فهي لا تملك ضوءاً في تلك الصلاة، والمصدر الوحيد له هو تلك النافذة. ولكيلا أتحمّل مشقة كل هذا دلفت إلى حجرتي قبل وصوله وبحثت عن ذلك الجلباب الذي كنت أرتيه ليلة أمس وشرعت في ارتدائه حينما عبر هو إلى الغرفة وهو يدب في الأرض قائلاً:

- لقد أحضرت واحدة.

- كل هذا الوقت؟

- لقد قابلت الولد حمص.. توقفت معه قليلا.

- كانت قد أكملت ارتداء الجلباب فقالت له:

- هيا بنا إذن.

- تعبر من الباب إلى الصلاة وتقول:

- سوف أنزع تلك المياه إلى أن تجف، وأنت هات بتلك المياه من داخل الغرفة.

- يعبر من أمامي إلى تلك الغرفة الفارغة ويدفع الباب بقوة، فيتحرك الباب

بليونة لم أكن أتوقعها، وينفتح، وعندما دلف إلى الداخل يأتييني صوته يقول:

- إذا فعلت ما تريدين فلن تعود تلك الصلاة نظيفة إلى طبيعتها سوى بعد شهر على

الأقل.

- ماذا هناك؟

- شاهدي بنفسك.

فأنهض وأدخل إلى الغرفة أنا الأخرى فتفترش الغرفة بضياء الصباح الذي بدأ يسطع من نافذة الصالة، وأدور بعيني بها. فأجد تلك النافذة هناك؛ ذات الستائر الحمراء المرصعة بالورود عديدة الألوان، على أن ألوانها صارت باهتة وكثيبة إلا أنها لا تزال تحتفظ بأصلها ولو بقليل منه. أنظر إلى الأرض فأجد أن المياه قد احتضنت التراب مكونة طبقة كبيرة من سائل ثقيل لزج من الطين.. أدور نحو الجهة الأخرى فأشاهد جزءاً من مقعد لصالون قديم ملقئ بجوار الجدار، وبجواره عمود من المسلح أعرفه جيداً لقد أحضره "أشرف" ذات يوم متوقفاً أن تستند به الحجرة من المنتصف حتى لا يهبط السقف فوق رؤوسنا بالمساء، ولكن العمود هو من سقط فوق رؤوسنا في تعنت وتعمد واضح منه، فطلبت منه التخلص منه على الفور، ولكيلا يحمله تركه في تلك الغرفة ليرهق به على السقف أكثر، أحيانا يكون زوجي بعقل ثور أيضاً وليس جسده فقط؛ فهو على بنيانه القوي هذا الذي استطاع أن يحمل عموداً بهذا الحجم، قد وجده بجوار أحد المباني المنهدمة غير مبالٍ بوزنه، إلا أن عقله لم يع وقتها ما حدثته عنه، وعن مدى ثقل وزنه الذي لن يحتمله السقف، فأتى به إلى هنا وكأن هذا السقف لبيت آخر، بالطبع لا يمكن أن أهد عليه بالحديث عن هذا الأمر الآن، لقد نال من الشقاء كفايته لهذا اليوم.

بالأعلى، كان هناك ما يشبه نافذة صغيرة قريبة من السقف. حتى إن مكانها مظلم وملامحها غير واضحة، والغرفة بالكامل لا توحى لي بالراحة، فهي مليئة بالذكريات التي تلهد حتى الهواء، فأنا لا أحب الذكريات، فهي تذكرني دائماً بنهاية شيء ما، وأنا أخشى النهاية دائماً. إنها تعيد عليّ مشهد الموت كلما فكرت في الأمر، وهو فكرة غريبة في عقلي. فلقد تقبلته قبل حتى أن أفهم معناه. لقد شاهدت عديداً

وعديداً من الجثث وهي تهبط أسفل الأرض وحيدة وتسدل عليها الرمال وأحجار الغلق بمنزل والدي؛ الذي هو مقبرة قبل أن يكون منزلاً. ولم أكن أفهم وقتها لماذا يترك الناس الأرض في الأعلى ويهبطون إلى الأسفل. حتى بدأت أفهمه مع الأيام، ولكنني تصورت أن من يموتون هم العجائز فقط، فلم أكن أفهم وقتها أنها حينها تمر السنون سأكون عجوز أنا أيضاً، بل كنت أتصور أنني سأقف عند سن قريب من سن أمي، كما فهمت أيضاً أن أمي نفسها لن تكبر عن هذا الشكل حينذاك، وأن هذه الملامح هي ملامح عائلتها، ولامح العجائز أيضاً تخص عائلتهم فقط. تفهمت فيما بعد أن هذا الانطباع بسبب أن أجدادي لم يكونوا متواجدين، لربما كنت عرفت وقتها، كيف تكون المراحل العمرية، من الابن إلى الأب إلى الجد، فلقد ماتوا جميعاً قبل أن أولد أنا، فلم تكن هناك عجوز في عائلتي أفهم من خلالها أن ملامح العجز ستصيبني أنا أيضاً في يوم. إنني خالدة، وسأظل أحياء مع أمي وأبي إلى الأبد. يا لها من مفاهيم طفولية بريئة، وقد تركتني كل الطفولة والبراءة منذ عهد مضى.

أما الآن، عندما فهمت أن كل يوم يؤدي بي إلى خطوة نحو النهاية، وأن الأيام اتضحت ملامحها، وأظهرت لي وجهها القبيح، وفهمت أن عدادها تنازلي وليس تصاعدياً كما كنت أظن وأنا صغيرة. فعرفت معنى الخوف من الموت.. الخوف من النهاية، وهو الخوف الذي يولد مع الإنسان منذ اللحظة الأولى لتنبع منه الصرخة الأولى، والتي يسمونها صرخة الميلاد. ثم يتوارى داخل أنسجته وشرائينه، ويظل يحفر في الأعماق حتى يتحول إلى جزء منا لا غنى عنه، نظل في محاولاتنا للتخلص منه على مدار عمرنا بالكامل حتى نتفاجأ به قد زال دفعة واحدة، وأنه قد تبدل بداخلنا ليكون رضا.. رضا بتلك الحقيقة الفريدة وهي الموت.. النهاية الحتمية، وكانت ملامح تلك الغرفة مليئة بمعاني النهاية؛ حتى إن جسدي يقشعر وأنا أشاهدها لأول

مرة منذ أن سكنت هذا المنزل. فأعود إلى الخارج على الفور يدفعني الخوف، وأقول له:

- ليس منها ضرر كبير.. على أن نرحها كان أفضل، ولكن مادامت المياه اختلطت بتلك الأتربة سوف تجف سريعا، ولن ترهق المنزل كثيرا.

كنت أعلم أن موافقتي ستجعل "أشرف" يجلب لي كل تلك الرمال والأتربة المعجونة بالمياه إلى الصالة، وسيكون عليّ أن أظل لأيام أنظفها ولن تنظف أبدا، وستأخذ أياما تتسبب لنا في الانزلاق في الذهاب والإياب حتى تجف، وستخف المياه على كل حال عندما أستطيع تجفيف الصالة، وهذا هو المهم. يأتي إليّ صوت "أشرف" يصيح:

- ماذا أفعل؟ ماذا قررت؟ لدي عمل بعد قليل وعليّ أن أجهز.

- كما تشاء.. اتركها إن شئت فلن يكون منها ضرر كبير.

أسمع صوت شهيقة وهو يسحب دخان سيجارة ويقول وهو يلقي بها لأسمع صوت انطفاء نارها بالمياه:

- خيرا فعلت.. أحبك عندما تكونين عاقلة.

- هيا، ادخل أنت سوف أكمل وآتي إليك، ولكن أعد غلق تلك الغرفة كما كانت تماما، لا أريد أن أراها مرة أخرى.

حينها أكملت وعدت إلى الداخل كانت الساعة قد اقتربت من السابعة والنصف، كان "أشرف" بجوار هالة المستيقظة تداعب فمها بيديها وتضرب بأقدامها، وهو لا يشعر لا بهالة ولا بمخلوق آخر سواها. صوت نفير يضرب الصمت من نخير أنفه، وعيون نصف ملتحمة كأن مادة لاصقة قد حاكتها بجفونها. لا أدري بهاذا أبرر له عدم إيقاظه في موعد عمله، ولكنني لم أكن أدري أنه قد رقد.

أقبل عليه وأربت كتفه برفق، فلا يشعر بي، فأزيد من قوة يدي قليلا، ولكنه لا يستجيب بأية ردة فعل، فأتساءل هل عليّ فعلا أن أوقظه وهو في هذه الحالة من أجل عدة قروش لا تغني ولا تشفي من جوع، وهو المقبل على الخطوة الأولى نحو ثروة. سوف أتركه نائما. لكن بعد لحظات أخرى من التفكير وجدت أن تواجهه بالعمل سوف يكون في صالحه من ناحية أخرى، فهو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوارى خلفه فعلته، ويحتبئ داخله دون أن يبحث خلفه أحد.

"أشرف"

أقولها فلا يستجيب فأزيد من حدة صوتي في إصرار، حتى ينظر لي بفزع، وكأن مصيبة ما قد وقعت فوق رأسه فأضيف برفق:

لا تنزعج، ولكن الساعة السابعة والنصف، وسوف تصل إلى العمل متأخرا بحوالي نصف ساعة، هذا إذا استيقظت الآن.

بالطبع.

يقولها وهو ينهض من أعلى الفراش مهرولا، ويتجه نحو دورة المياه. أتجه أنا لكي أصنع له بعض طعام بسيط داخل نصف رغيف من الخبز، وأغلغه بأوراق الجرائد القديمة، لكي أعطيه له قبل أن يذهب. إنه في النهاية مجرد مسكين، تتلاعب به الدنيا كما تتلاعب الأطفال بالنرد، كلما كف عن الدوران ألقته به مرة أخرى بطريقة أقوى حتى لا يكف عن الدوران أبداً.

وأنا أمر من أمام المرأة في أثناء عودتي لأداعب هالة قليلا، حتى ينتهي "أشرف" من غسيل وجهه، أجد نفسي في حالة يرثى لها، ولا أحلم بشيء سوى الذهاب لأخذ حمام ساخن، بعد أن يغادر "أشرف"، وأنها رضاعة الطفلة لتنعم هي الأخرى بنوم هادئ في هذا الطقس البارد.

مديح

الخوف؛ ذلك اللعين الذي يسيطر على جميع أنسجة الأعصاب، ويشي بنا للقلب على الفور حتى يبدأ في زيادة دقاته ليفضح أمرنا بعدما علم بأننا نرتكب خطأ ما، لم يكن علينا إخباره بذلك، ولكن ليس نحن من نخبره على كل حال... بل هو خائن آخر اسمه الضمير، والذي نصب محكمته لي منذ قليل وأفتى بأن موقعي خاطئ منذ البداية، ولم يكن عليّ الاستماع للقصير اللعين "سرور"، لقد دفعني لاقتحام حياة عائلة لا تستحق أن تقع بمشكلاته، ومتاعبه، بالأخص تلك المرأة الرقيقة سماح.

هذه المرة الأمر مختلف تماما، ومن يطاردني هو الشرطة العسكرية بنفسها، وما يقدر على القدرة سوى الله. عليّ أن أظل محتبئا، لذلك فلقد تحملت تلك المشقة الرهيبة في تسلق تلك الجدران المهترئة والاختباء داخل صندوق خشبي معلق بسقيفة الحجرة، كانت مثل هذه الأشياء تصنع في المنازل القديمة، وكانت تسمى بالمسروقة، وهذا لأنها مساحة مسروقة من أصل مساحة الغرفة، وتستخدم كمخزن صغير في المنزل.

إنني أعرف من كانوا يسكنون تلك الغرفة قبل أحداث زلزال اثنين وتسعين، إنه شاب متدين وملتزم جدا اسمه "إبراهيم"، وعلى خلق. كان يساعدني في بعض دروسي في الماضي، حينما كانت والدتي لا تزال تسكن المنزل نفسه معي، ولقد كانت والدة ذلك الشاب صديقة لوالدتي، ولعدم قدرتي على أخذ دروس خصوصية فقد كان من الطبيعي أن أحتاج إلى شخص مثله لمساعدته فهو يدرس بالجامعة، وأنا وقتئذ في الإعدادية، ولقد كنت أرتاح في صغري لهذا الشاب لأنني أدرك تماما أن ليس له غرض من هذا سوى مرضاة الله ومساعدة الآخرين فقط، كما أنني أتذكر أن

إبراهيم قد صحبني ذات مرة إلى جامع الأزهر الشريف، والتقيت يومها بشيخ الأزهر ولقد قبل الشيخ يدي الصغيرة في ذلك اليوم، فلقد كنت طفلا ورؤية طفل في ذلك العمر المبكر، في مكان مثل هذا قد أفرحت الشيخ كثيرا لدرجة أنه قبل يدي الصغيرة. كان شيخًا مريخًا جدا، ليس كشيخ تلك الزاوية، والذي لم يكن شيخا في الحقيقة بل متطوعا، أو ربما متطفلا.. لقد ظهر من هؤلاء كثير في الآونة الأخيرة. حتى إن حسنين الحلواني أصبح أيضا إمام زاوية، أنا لا أقلل من قدره بالطبع، ولكني لا أعتقد أن حسنين يصلح لأمر كهذا، على أنه يصلح تماما لأن يكون رجلا متدينا وفاضلا يستريح له المرء بمجرد رؤيته.

أشعر بالخجل الآن. ماذا يمكن أن يقول عني هذا الشيخ الجليل إذا علم أنني أختبئ الآن داخل تلك الحجرة الخشبية المسروقة من مساحة الغرفة أعلى السقف، مختبئ من سكان المنزل أولا ومن جيش وطني ثانيا؛ والذي أكون أنا أحد أفرادهم، كيف أفسر له أو لغيره، إذا علم أيا من كان.. أنني أتخلص وأتجسس على الناس. كيف دفعتني الدنيا لفعل هذا؟

كدت أن أقبل تلك الغرفة الصغيرة حينما أنقذتني من تلك الفضيحة، ولكن كان عليّ أن أهبط. ربما اقترب ظهري أن ينقسم إلى جزأين. لكنني حينما سمعت خطوات "أشرف" التي تهز المنزل بالكامل تراجعت عن هذه الفكرة سريعا، وعدت نحو الداخل مرة أخرى لقد كانت خطواته تشير إلى اتجاهه إلى دورة المياه، وتأكد لي هذا بعدما سمعت صوت المياه وهي ترتطم به ثم بالأرض من بعد ذلك.

بعد قليل كان "أشرف" يرج البيت مرة أخرى وهو يقفز من فوق السلام. تتوجه نظراتي الواهنة، والتي تحمل من القتامة ما يجعل كل شيء حولي مظلمًا، في اتجاه النافذة المحكمة الأغلاق بتلك الستارة القديمة ثقيلة النسيج. أستنتج من الضوء المنعكس على ذلك الستار أن الشمس قد سطعت منذ ساعتين على الأقل، وأن

الساعة قد تخطت الثامنة بقليل. ومن هذا تأكد لي أنه متجهٌ إلى العمل. وفي دهشة أسأل نفسي إن كان "أشرف" يستطيع حقاً بعد تلك الليلة الطويلة المليئة بالمعاناة؛ أن يذهب إلى عمله.

لكن ما أثار فضولي حقاً، هو أنى سمعت صوت خطوات رقيقة فيما بعد، ناتجة عن أقدام "سمّاح". فأسأل نفسي هل بعد هذا المجهود لا تزال تلك المرأة قادرة على الخروج لقضاء احتياجات بيتها. بعد دهشة لم تدمْ على وجهي كثيراً، وجدت أن الفرصة مواتية لي لكي أكتشف المكان بالكامل، لأجد مخرجاً لي ومهرباً أيضاً، ومكاناً بديلاً في حالة الطوارئ. لقد سطعت الشمس ولا معنى لخروجي من المنزل الأصفر الآن على الإطلاق.

أنا لم أحاول أبداً اكتشاف هذا المنزل من قبل، حتى وإن كنت قد حصلت على الفرصة لذلك كثيراً في الماضي. فأنا لم أكن أكثر الأطفال فضولاً، ومن طبيعة الأطفال _حتى الفضولين منهم_ أن يخافوا المجهول. وخاصة إن كان على أبواب ذلك المجهول _أي البيت الأصفر_ عجوز قصيرة القامة، تخطى عمرها المائة، وانكمش جسدها بالكامل عدا أنفها الذي أخذ يتمدد. في فترة كانت تتبع فيها جميع الأمهات طريقة واحدة لردع أطفالهم بالترهيب من شيء مخيف، وهي: "العجوزة ذات المنقار". وقد كانت الحاجة "بديعة" التي كانت تسكن تلك الغرفة المستخدمة كمخزن للمنجد الآن، هي تجسيد حقيقي لأسطورة العجوز ذات المنقار بالنسبة لي. لذلك فأنا لم أكن أقرب أبداً من ذلك المنزل الأصفر في صغري، فحتى بعدما ماتت وأنا في الإعدادية، لم تترك لي سوى ذلك النفور تجاه المنزل فقط، حتى بعد أن نسيته، ولم أعد أتذكر ملامحها، أو حتى أخشائها.

لا أعلم لماذا أتذكر كل هذا الآن؟ لقد عفى الزمن على تلك الأشياء.

وعندما أصبحت شابا كانت اهتماماتي مختلفة كثيرا عن اكتشاف منزل كذلك، حتى حينما كنت أدرس مع هذا الشاب إبراهيم الذي يكبرني في العمر بنحو عشرة أعوام، والذي كان يسكن تلك الغرفة، فلم أجرؤ أبدا أن أنحرف ولو قليلا عن ذلك الخط المستقيم الذي رسمته لنفسي من مدخل المنزل حتى تلك الغرفة. ولذلك فأنا كنت أعرف تلك المسروقة التي اختفيت فيها عندما عبر "أشرف" ومن بعده "سماح" إلى الغرفة، فلقد شاهدت إبراهيم وهو يسحب من هناك كتابًا ذات يوم، وقد سألته عنها، وعند رؤيتي لها عرفت أن حجمها يستوعب طفلاً في عمر الثانية عشر ليسقط جسده بالكامل بداخلها، أما إذا كان بحجم رجل، فعليه أن يكون قابضا قدميه مقوسا ظهره وإن كان طويلا سيتخذ وضعية الجنين؛ وهو الوضع الذي اتخذته أنا. لهذا فقد أرهقني الأمر كثيرا، لكن ليس عن ألم؛ فأنا لم أشعر بالألم، ولكنني كنت أعلم أن تلك الوضعية لفترة طويلة تسبب ألماً جمًّا؛ لم يتمكن مني بعد. لقد كنت أتمنى أن يكشف لي ولو خطأ بسيطاً من الضوء مكانها لأنني لم أكن أستطيع تذكر في أي الاتجاهات كانت.

انتظرت قليلا حتى أطمئن أن "سماح" قد غادرت المكان، ومن ثم قفزت برشاقة من تلك المسروقة المعلقة بسقيفة المنزل، ومع هذا فقد شعرت أن المنزل تراقص قليلا. تسللت على أطراف أصابعي إلى الباب، وأخذت أوسع من معبره برفق حتى لا يصدر عنه أي أصوات، ومن باب الغرفة إلى ذلك الدهليز الذي يحوي دورة المياه، وكنت أشاهدها لأول مرة. فوجدت الدهليز أمامي غارقا في الظلام فيه انحراف يبعده تماما عن تلك النافذة بالصالة وعن رؤية شعاع الشمس، ولا تستطيع عيني إدراك كل شيء به.

في آخر الرواق الذي كان يمتد لثلاثة أمتار لمحت انعكاسا بسيطا لضوء يتراقص على الجدار. فعلمت أن هناك شيئا يضيء على يسار الممر، وبدأ عقلي ينتبه إلى

ذلك الصوت الذي ترسله لي أذني منذ قليل دون أن أدري. صوت يشبه صوت دراجة بخارية. بل إنه صوت الوابور.

في دهشة عارمة أتجه نحو ذلك الممر وأتطلع من بعيد مع كل خطوة نحو ذلك الرواق، الذي يتضح رويدا رويدا على يسار الممر. عندما وصلت إليه وجدته بابا خشبياً متأكلاً ومهترئاً، وبه كثير من الفتحات والفجوات والتصدع، وفي المنتصف تتضح لي عارضة خشبية كبيرة خلف أخشاب الباب الخارجية. ثم يظهر أمامي بغتة، جسد "سماح" العاري وهي تعبر لتحضر شيئاً ما، ومن ثم تعود مرة أخرى. إذن فهي لم تترك المنزل!

فأتسمر مكاني وأنا أبحث عن لعاب أسيفه ولا أجد.. فلقد جف حلقي وتصلب.

عقلي يخبرني أن هناك خطورة من اقترابي من الباب، وأنني سوف أنكشف على الفور. لكن مما شاهدته لم يعد عقلي هو المتحكم بي، بل إن عقلي لم يعد متواجداً في مكانه بعد، وما أصبح ينهي ويأمر عليّ بعد، ولكن كانت غريزتي هي الأمر الناهي. لذلك فلقد اقتربت من الباب، وشاهدت من إحدى الفتحات تلك الفاتنة التي تخيلت أنني أراها لأول مرة، ولم أصدق أبداً أن تلك المرأة الفاتنة هي "سماح" التي يتحدث عنها جميع الناس، وأنا الوحيد الذي لا أصدق ما يقولونه. فأقول في عقلي: "إنها أجهل كثيراً من كل رسومات "سرور".

سماح

يتداخل في فمي الغناء من لحن إلى آخر ومن مغنٍ إلى آخر، بصوت يغرغر بالماء الذي ينهمر فوق شعري الذي تحول من الذهبي إلى لون كستنائي غامق، ومن كوب أزرق بلاستيكي، يتلع الماء من قدر وضع فوق الوابور، الذي أجلس بجواره فوق مقعد خشبي، ثم يلفظ الماء فوق رأسي. فلم يكن أحب على قلبي من تلك السعادة التي أشعر بها بعد أن أغرقنتي مياه الأمطار الباردة، وأيضا كل هذا المجهود الذي بذلته حتى سيطرت على المياه. لقد شعرت أن فوق جسدي طبقة أخرى غير بشرتي تكونت بفعل كل ما حدث، ولم يكن هناك أجمل من حمام ساخن بعد كل هذا العناء. صوتي منخفض، حتى إذا صرخت هالة أسمعها، وأنا أعلم أن ذلك لن يحدث، فهالة معتادة النوم طوال فترة الصباح حتى بعد الظهر، وتستيق قليلا لتنام كثيرا حتى بعد المغرب حيث تظل تلعب معي، أو تبكي لتزعجني، وتعود إلى النوم مرة أخرى مع الساعة السابعة تقريبا، لتستيقظ في الساعة الثانية صباحا، وتظل حتى بعد أذان الفجر.

لم أشعر بخوف كما شعرت اليوم حينما ظننت للحظة أن ذلك المنزل سوف ينهدم، لقد كان إحساسا عجيبا. شعرت أن نجاتي بدون المنزل ستكون نجاة تعيسة، وغير مفرحة. ستلقي بي نحو الحافة، لأسقط مع أول هبة ريح. إن المنزل هو كل ما نملك، ولا يساوي أحدا شيئا بدونه، ولن تكون للحياة قيمة من بعده سوى حكايات المآسي والمعاناة. وكيف ظلت تلك الأسرة تعاني وتعاني حتى انتهت أيضا. لذلك أصبح المنزل هو الأهم بعد نجاتي، واخترت أن أربط نجاتي بنجاته. فأشعر بدفء حانٍ يحيط بالمكان كاد يصل إلى قنوات الدموع في عيني وأنا أصب الماء

الساخن فوق رأسي وأحتضن جسدي بيدي، إحساس غامر بالسعادة. بعد ذلك التعب الوافر، فتكون تلك المتعة بوفرة أيضا.

في تلك اللحظة، أشعر بخوف كبير إذا تكرر الأمر في المستقبل، ليس في كل مرة تسلم الجرة. قلت هذا وأنا أعلم أن الطريق ميسر أمام القلق على المستقبل والشعور بعدم الأمان. وليس هناك حل لكل هذا سوى تلك الأموال التي يتحدث عنها "أشرف". هي فقط من تستطيع أن تؤمن مستقبلي ومستقبل ابنتي. وقتها سوف أفعل كل ما أريد، حتى إنه يمكنني أن أفكر في المصيف، وربما تركني "أشرف" هناك لألبس "المايوه" وأنزل إلى البحر. من ثم أخذت أردد بعض أغنيات لها علاقة بالبحر.

من ثم وجدتي أحتضن صدري بذراعي وأقول: "سوف أكون ملكة.. تلك النقود ستجعلني ملكة"

تبحر بي الأفكار في بحر من الثراء والأوهام، ومزيد من الأفكار التي لها علاقة بالأعمال والمشاريع. مزيد من الطرق الناجحة التي تؤهلني لأجلس أمام أحب المذيعات إلى قلبي ممن أشاهدهم في التلفاز، لأتحدث إليها عن الكفاح والمعاناة حتى بلوغ النجاح. كيف لم يكن هذا سهلا، وكيف تتطلب منا من عناء ومشقة. كيف نحت في الصخر مع زوجي حتى وصلنا معا إلى تلك المكانة الرفيعة. ثم أنفض كل هذا عن عقلي وأنا أقول ساخرة من نفسي: "كل هذا بعشرين ألفا فقط؟"

تنسدل المياه فوق رأسي من ذلك الكوب البلاستيكي، وتغرق عيني، ومن ثم أفرك بكلتا يدي عيني حتى أعيد فتحها. لوهلة يظهر أمام عيني مشهد تلك الغرفة المقابلة لغرفتي من الداخل، كيف كانت مخيفة بستارتها القديمة وخيرير الماء من سقفها واصطدامه بالاتربة المتكومة بالأرض. أحاول جاهدة أن انفض الفكرة عن رأسي، حتي إنني كففت عن صب المياه حتي استمع إلي أصوات قلبي، وأنتظر حتي

تهداً أصوات المياه التي تقطر من فوق جسدي على الأرض تدريجياً. وتصمت الدنيا من حولي، ولكن هناك صوت آخر لا يصمت. بل هو يزداد علواً وسرعة. إنه كما لو كان اللهم أحفظنا صوت أنفاس في مؤخرة رأسي. فارتجف جسدي وشعرت بالخوف، وبجسد مرتجف وقلب يضرب بكلتا قوته على باب صدري ألفتت نحو الباب، وأنظر بتمعن، فأجد أن هناك ظلاً أو ظلالاً خلف الباب، جسم معتم، ولكنه أكثر ظلمة مما حوله، أكثر قتامة وسواد. إنه لن يكون سوى..

عفريت..

فأردد في همس وجسد منتفض مرتجف:

بسم الله الرحمن الرحيم.

كما لو كان الظل قد انتفض أمام عيني وأنا أعيد ترديدها مرة ثانية، فأخذت أرددتها، ولكن هذه المرة لم تؤت ثمارها. فأخذ جسدي يتراجع إلى الخلف دون أن أدري لماذا أترجع، ولكنني وجدت يدي تمتد نحو المنشقة، فتذكرت أنني كنت عائدة لكي أرتدي ملابسني. بيد مرتبكة ومرتعشة، وجسد منتفض خرج كل جزء منه عن السيطرة أحاول أن أمسك بشيائي وأنا أكاد أفقد وعيي.

ينفتح الباب فجأة فأنفض، وأكاد أن أسقط في مكاني، ولكنني أجاهد كي أظل فوق أقدامي وليس فوق أرضية الحمام. أمعن النظر في رعب نحو الباب ليصطدم بصري بمديح الذي كان يقف أمامي مباشرة.

مديح بتلك الهيئة المخيفة، وجه متورم في معظم الأماكن والجروح تملؤه. ملابس لا تظهر ألوانها من كثرة الوسخ والأتربة. عضلاته منتفضة وأنفاسه بالكاد يلتقطها، ويديه تنتزع معطفه القذر من فوق أكتافه وتجذب حفنة من الملابس لينتزعها دفعة واحدة من بعده، ومن ثم تتجه أصابعه نحو حزام سرواله ويشرع في حله من بعضه.

- أستوقفه بكلتا يدي في مكانه فيقول:
- كنت أسمع كثيرا عن جمالك، وكنت أعلم أن في يدي أن أصل إليك في أي وقت، ولكنني لم أكن أتصور أنك بمثل هذا الجمال مطلقا. هيا لا تضيعي الوقت.
- أدفعه بيدي وأنا أقول:
- اخرس.. أنت مجرد حيوان.
- يقول وهو يلتقط أنفاسه المتقطعة بصعوبة ويعود ليهجم عليّ مرة أخرى:
- لقد رأيته وأنت تتحدثين إلى "مندو" ذات يوم، وإلى حسن العطار. عرفة البقال أيضا، وكثير غيرهم.
- أندهش وأدفعه بقوة أكبر سحبها غضب عارم وأقول:
- وماذا في هذا؟
- هل يعلم زوجك المخنث أنك على علاقة بكل هؤلاء.
- أصفعه:
- اخرس.. أنا أشرف من عائلتك بالكامل.
- يردد هو يمسك برسغه المتورم ضاحكا:
- "أشرف"؟! هل هذا وقت "أشرف".. مالنا بهذا المخنث الآن.
- أرجل منك ومن أهلك جميعا.
- أقولها وأنا أضربه بركبتي أسفل الحزام، وأزيح به عن طريقي بكل ما أوتيت من قوة وأحاول أن أضع فوق جسمي تلك المنشفة الصغيرة التي لا تصلح لأن تستر ولو كتمًا فقط من كتفي. وأتجه نحو الباب، ومن ثم أترنح قليلا وأنا أعدو بالمر، وأتعثر مرتين في الصالة قبل أن أصل إلى غرفتي.

مديح

لم أتلقَ في حياتي ضربة بمثل هذه القوة وفي هذا المكان، مما جعلني أجلس فوق الأرض أتألم وأتوجع، لم أشعر من قبل بألم مثل هذا، حتى عندما ألمني ضربي، ولم أكن أشعر في تلك الآونة الأخيرة بأية آلام أو أوجاع. مما دعاني أتساءل بداخلي، كيف كانت الذكورة دائماً مركزاً للقوة، في كل المخلوقات، وكيف يكون رمز الذكورة عند الرجل بمثل هذا الضعف، وبمثل هذا الألم؟ لقد شعرت بكافة أعصاب جسدي وهي تُشد من أسفل أحشائي، حتى تصل تلك الانتفاضة إلى مؤخرة رأسي وتضرب جزءاً حساساً لا أعرف له اسماً، يجعل كامل جسدي ينتفض مرتجفاً، فتأخذني آلام بظهري وجانبي ليس لها مثيل. حتى إن أقدامي أصدرت بعض التشنجات وأنا أحاول النهوض لكي أتبعها إلى الغرفة. التي لم أتبعها إليها بسرعة، وكأني كنت أراجع الأمر، والألم في رأسي، ثم مضيت نحو الغرفة فكانت قد عبرتها وأغلقت الباب من خلفها، وشعرت بجسدها وهو يلقي من خلف الباب، ثم أخذت تضرب بيدها وهي تقول لي في بكاء:

- امضي من هنا.. امضي من هنا.. قبل أن أصرخ وأملأ الدنيا كلها بالصراخ.

- ماذا بهم أفضل مني؟

- قلت لك أن تخرس.. اخرس يا حقير.

- هل تتصورين أن حسن العطار و"مندو" أفضل مني في شيء؟

كما لو لم تجد "سماح" من اختيار آخر، فأخذت تصرخ بعلو صوتها:

- ألحقوني.. ألحقوني.

لم تمضي سوى دقائق معدودة، وكانت الحارة بالكامل قد أحاطت بالمنزل. ظهر عماد أولاً ومن بعده جمعة، ومن ثم "حوده" وعم الشيخ حسنين "بياع الحلويات" ثم تختلط النساء بالرجال داخل الصلاة دون أن يدري من أين أتوا بهذه السرعة، وهل هم من أتوا بسرعة أو أنه هو من تفهم الأمر ببطء. ليس هذا هو المهم الآن. يعود ببصره لينظر إلى نفسه، وإلى هيئته وتلك الحالة التي يقف أمام الباب عليها، وقد فتح سرواله عن آخره، وانتزعت ملابسه العلوية بالكامل. وصوت "سماح" يقول من الداخل:

- لقد تهجم عليّ ويريد أن يغتصبني..

استوعبت الأمر عند هذه النقطة، ولم أجد من التراجع فائدة فتهرّبي أو تراجعني الآن سيفقدني حياتي، ولهذا فلقد تماديت لأخلع حزامي من السروال وأنا أقول:

- نعم، لقد أردت هذا، وهل جاءت حتى عندي أنا وتوقفت؟! إنها تصاحب بعضاً منكم، ومن تبقى منكم يعلم بالأمر أيضاً، وتتهامسون فيه فيما بينكم.
يقول حسنين على الفور:

- أستغفر الله العظيم.. ما الذي تقول يا ولدي.. إنك تقذف محصنات.

إن حسنين الحلواني من هؤلاء الذين يطلقون عليهم اسم الإرهاب، ويأتي إليه أمن الدولة من حين وآخر، وخاصة بعد كل عملية تفجير تحدث أو شيء من هذا القبيل؛ بيت للإرهاب من بعيد أو من قريب يقولون إنه يعمل مع المنجد إمام الزاوية في الخفاء. يقولون إنه رجل طيب، وأنه يعامل الناس بمنتهي الحسنة والطيبة، ولكن دائماً ما يكون للحكومة رأي آخر.. كذلك هم الحكومة في بلادنا، يترصدون كل من أطلق لحيته أو سجد ركعتين في المسجد. لم أكن أستطيع رفع عيني به، فله عندي كثير من التقدير، لقد تعلمت منه كثيراً في بعض الأوقات. لكن حسنين هذه المرة يستغفر ليس لحالي كما جرت العادة، ولن تطالني دعوتين من الرجل الصالح. بل إنه يقولها

متقززا من فعلتي، وسوف تنهال عليّ سيول من اللعنات والتوبيخ الآن. يُجتمها بطلب رجمي حيا.

بدهشة يردد جمعة:

- مديح؟! هل يعقل؟! لقد كانت كنيثك بيننا هي "الواعظ"

يضرب بعض الحضور كفا بكف ثم يقول أحدهم:

- قطعوا ذلك السافل الذي لم تمر عليه التريبة.

ينهال بعضهم بالضربات عليّ، فما كان مني سوى انفجار لغضب كامن لم أحدد موقعه بالضبط، والذي أخذت أزجر لكي أنفسه عليهم، وأغلبهم تذكر ما دار بالأمس للعائلة الأكبر التي وقفت في وجهي، أعرف هذا بدون تفكير؛ إنها طبيعتهم. وجعلهم هذا يقتربون خطوة ويبتعدون عني خطوتين، وحينما حاولت الهرب من وسطهم فتح أغلبهم لي مجالا لفعل هذا، ومن لم يفعل طالته يدي التي صفعت ولكمت عدة مرات حتى وجدت طريقا بينهم بعد أن صفعت الأرض بحزامي عدة صفعات، فعبرت من خلاله عدوا باتجاه منزلي. لكنني فجأة وعندما أصبحت هناك مساحة فارغة أمامي في الساحة الواسعة أسفل البيت الأصفر، وعند مدخل الزقاق الصغير، وجدته هناك..

إنه هو الشخص نفسه الذي لمحت بالأمس. فقلت بصوت مرتفع لكنه يحمل كثيرا من الوهن واليأس أيضا، فلقد كانت حالتي عند خروجي من البيت الأصفر كمن أزاح جبلا منفردا:

- انتظر في مكانك.

لكن الفتى لم يفعل، وانطلق يركض نحو مضيق الحارة بكل سرعته. إنها ليست الساعة نفسها التي شاهدهت بها في الليلة الماضية. لكن اليوم أنا لست كليلة أمس، فقرة أمس أصبحت ماض فقط الآن؛ حتى إنني لا أتذكر أغلب أحداثها، لكن هذا

الشاب أنا أتذكره جيدا، وقد صرت متأكدًا أنه هنا من أجل مراقبتي، ليس لدي القوة كي أركض خلفه، يكفيني ما بذلته من مجهود حتى عبرت تلك الجموع إلى المنزل.

لم أدر بنفسي إلا وأنا ملقى فوق تلك الأريكة التي تحتل معظم أجزاء الردهة بمنزلي. لا أفهم إن كان داخل واقع حقيقي أم أنه مجرد حلم، ربما هو حلم مفزع، أو كابوس. لا أدري حقا ما أمر به على وجه التحديد، ولكنني أشعر أنه لو على طبيعتي لما فعلت تلك الأشياء، وهنا بدأت تهب إلى عقلي فكرة أن تكون تلك الحبوب المخدرة التي أخذتها من "مندو" هي ما تفعل بي كل هذا، ولكنني أشعر أنني في كامل الوعي، في الحقيقة أنا لا أدري. إن بداخلي كثيرًا من التناقضات، فأنا لا أعرف إحساس المنتشين بالمخدرات، ولم أجربه من قبل، ولا أعلم كيف هي حالتي الآن حتى أحدد إن كانت هي كحالتي السابقة أم أن بي شيئا غريبا.. كل ما أشعر به هو أنني لم أر النوم منذ يومين وقريبا جديا سأكون على أعتاب الليلة الثالثة.

الليلة الثالثة

سماح

رعب ينفجر داخلي يجعل يداي تضرب فوق رأسي وأقطع في شعري دون ذنب اقترفه. كلما تذكرت أن هذا الحيوان هو من أضعت عمري كله أحلم به، وأتمنى لمسة منه. بعد كل ما حملت به، وبعد كل ما حملته له من محبة كان هو لا يرى بي سوى زانية وخائنة، وربما عاهرة. فتزداد الضربات بقبضتي فوق الأرض وفوق رأسي.

أنا داخل دوامة من بكاء لا أعلم منبعها من مصبها، كيف ألصق بي هذا الحيوان كل تلك التهم. كيف استطاع أن يقول عني هذا؟ كيف لم أرَ أنا أنه ينظر إليّ منذ البداية على أي مجرد عاهرة. تدور على حل شعرها، دون أن تجد من يوقفها. أقول هذا فتندفع من عيني دفعة جديدة من الدموع لتغرق وجهي الذي تلبدت بشرته بفعل الدموع.

لم يتغير مكاني أو وضعي منذ أن أغلقت باب الغرفة، وجلست خلفه، وأخذت أحضن ركبتي بين صدري العاري، وأنفض في خوف وفزع، يختلط مع البكاء. تبكي هالة فتجذبني قليلا إلى الواقع، فأهرول إليها مسرعة لأحتضنها، وأخذ في إرضاعها، وأنا أجفف دموعي بيدي. كان ذلك شيء أطمأن قلبي له، وجعلني آخذ وهلة للتفكير، وأحاول السيطرة على نفسي. إن ابنتي بحاجة إليّ ثم يأتي السؤال المهم بغتة، ماذا لو علم "أشرف" بما حدث؟

أذكر اسمه فأنفض وأهرع إلى خزانة الملابس فألقي بجلباب فوق جسدي في سرعة، وأعود بارتباك لأدور حول نفسي بالغرفة دون أن أحدد عمّا أبحث، ثم أعود في الأخير إلى ابنتي فأكمل رضاعتها. ثم أجلس وأنا أضرب ركبتي براحتي وأقول

لنفسى: "لقد ضاع الرجل". أنا أعلم الآن أن لدى "أشرف" خيار من اثنين فقط، إما أن يقتل مديح، وإما أن يقتله مديح.. في الحالتين سيكون "أشرف" ميت لا محالة، إما على يد مديح وإما بالإعدام على قتله مديح. وهذا ليس له سوى تفسير واحد.. لقد ضاع الرجل. ليتني لم أصرخ، ولتيني لم أجمع الناس من حولي.. هل أنا سعيدة الآن بلمة الناس من حولي؟ سيضيع الرجلين معا، ثم أراجع عن تلك الفكرة، فمديح يستحق أن يرجم حيًّا. أما "أشرف" فما ذنبه؟

تمر الساعات ولا تهدأ الحارة، الجلبة هي نفسها منذ أن نزلوا من بيتي إلى الحارة. أحاديث جانبية وبعض النسيج في بعض الأوقات، وبين احتياج أحدهم ومحاولة تهدئته من الآخرين وبين محاولة إلقاء الخطب. أخذت الدقائق تمر؛ لتمضي بلا عودة. ويمر وقت الظهيرة، الذي خفت معه حدة الجلبة قليلا.

لم أكن أعلم أن الرجال بالأسفل لم ينتظروا حتى تنتهي فترة عمل زوجي ويعود من نفسه إلى المنزل، ولكنهم بحثوا فيما بينهم عمن يعرف مكان عمله وفي حدود الساعة العاشرة اتخذوا قرارا بإرسال من يحمل الأنباء إلى الرجل، ليترك "أشرف" عمله ويعود إلى الحارة.

تهاجم الأصوات مرة أخرى بعد هدوء لم يدم ساعة واحدة، فأهرب إلى النافذة لأجد عند الملف الضيق بأول الحارة "أشرف" الذي يتقدم عدد غفير من الرجال أصحاب الأصوات العالية، وكثير من السباب مع كل جملة، ولم تحمل جملهم سوى التهديد والوعيد المنصبين جميعا فوق رأس مديح. ثم اتخذ "أشرف" موقعه عند ناصية الحارة الضيقة التي يقطنها مديح وهو يصرخ بكل ما أوتي من قوة قائلا: مديح.

عندما سمعته أهب من مكاني، وأعدو نحو الباب تاركة هالة التي كانت تبكي فوق الفراش. وصوت سباب "أشرف" وصراخه وهو ينادي على مديح يتردد في كل مكان حولي إلى أن أصبحت عند المدخل، فتوقفت. وأنا لا أعرف إن كنت أعدو إلى الخارج أم لا.

كان "حوده" ممسكا بـ "أشرف" من ذراع، و "مندو" يجذبه من الذراع الآخر. حتى "مندو" قد علم بالأمر. أضرب براحتي رسغي وأنا أردد في عقلي: "لقد انفضحت في المنطقة بالكامل"، بالتأكيد إن من أخبر "مندو" بالأمر قد أخبر الحي بالكامل. وإلا فلماذا حضر من آخر الدنيا في هذه الساعة المبكرة. إن جميع الشباب في المنطقة والمقاطيع والعاطلين لا يظهرون سوى بعد أذان المغرب. لكن هذا اليوم مختلف، هذا هو اليوم الذي أصبحت فيه سيرتي على جميع الألسنة.

يظهر أمامي مديح من بعيد مترنحا وسط الجموع، هبيته الفوضوية وينقض من أعلى الجموع مباغتاً "أشرف" بلكمة طالت فكه، وترنح إلى الخلف على أثرها وتعثر، وقبل أن يحاول النهوض أمسك مديح بحجر كبير من الأرض وضربه به فوق رأسه فخرت قوى "أشرف" وانصهر فوق الأرض. لتغوص رأسه داخل بركة من الدماء. وينتهي الأمر الذي ظل معلقا في ضجيج منذ فجر اليوم، في ثوانٍ. وبأقل من ضربتين من الشاب المترنح.

ووقف الجمع يترقب عبر دائرة صنعوها بأجسامهم دون أن يقودهم أحد في ذلك. وأخذ كل منهم ينظر إلى الآخر في ذهول ودهشة. بعض من مهمات، وكثير من الدعوات وبعض من السباب، تفسر بعضه ولا تفسر بعضه؛ يضرب بكلتا أذنيها من كل مكان. عندما كنت أتجه نحو ذلك الجمع وأزيجه بيدي لحي أمر، أنا لا أرى "أشرف". لقد كان هنا منذ قليل واقفا بين تلك الجموع، أين ذهب؟ لماذا جميعهم في

مكانهم فوق أقدامهم وهو ليس بينهم، ويستمر بحثي إلى أن أجده؛ ملقى على الأرض كما الجثة، والدماء تحيط به من كل مكان.

أشاهد مديح وهو عائد مرة أخرى إلى منزله دون أن يمسه أحد، وأشاهد نظراتهم الزائغة بين بعضهم وبعضهم. كم من مرة يسقط أحدهم وهم يشاهدون. يشاهدون فقط. هذا ما يحبونه وينجحون به، المشاهدة، ومن ثم عودة سرد ما شاهدوه مرة أخرى، بعد إضافة بعض المحسنات. فماذا أنتظر منهم وقد مات زوجي أمام عيونهم. أركع فوق جثمانه وأهزه بين يدي عله ينطق. في حين هرع حسنين نحو منزل أم سعيد وهو يقول:

اتصلوا بالإسعاف.

ظللت أنا زائغة البصر بينهم أبحث عن إجابة لما تشاهده عيني. أمأت "أشرف"؟ أم أنه فقط مغشي عليه؟ لم يجب عليّ سوى صراخي الذي تواصل تدرجيا نحو الأعلى ثم انخفض بعدما ضاع صوتي من بين أحباله، وأصبح مجرد بحيج لزوجته مذبوحة بوفاة زوجها.

صوت بوق سيارة الإسعاف يصيح من بعيد، وينبئ باقتراب وصولها بعد ما يقرب من النصف الساعة التي ظل خلالها أشرف ملقيا بين يدي دون حراك. أعلم أن السيارة سوف تتعطل قليلا حتى تصل، فهناك ذلك الشارع الضيق عند منتصف الشارع، وذلك الدوران الذي تتراجع من أجله السيارة وتتقدم لثلاثة مرات على الأقل. ولكن بعد عدة دقائق اخترقت سيارة الإسعاف الوسعاية. ومن بين الجموع قاد سائقها وهو يرشد هذا ويرشد ذاك بأخلاء الطريق؛ حتى وضعها عند بداية الحارة الضيقة، وأمام المنزل الأصفر بالضبط.

هبط من مؤخرة السيارة اثنين من المسعفين، أحدهم يحمل فراشاً نقالاً في يده، والآخر يهرول مسرعاً نحو "أشرف" ليفحصه، ومن ثم قال لصديقه وهو يشير له بيده لكي يسرع:

لا يزال حيّاً.

أسترد روعي عندما قال ذلك، ولكن لم تكف دموعي عن الانهيار إلى الآن. لم أكن أريد أن أعرف أكثر من أنه على قيد الحياة، مهما حدث له فوجوده أفضل كثير بالنسبة لي من موته. شاهدتهم يحملونه فوق الفراش المتنقل ويتجهون به نحو سيارة الإسعاف، وما أن حدث حتى انطلق سائقها عائداً إلى الخلف، حيث تولت إطارات السيارة العمل على إبعاد الناس عنه. حينما أصدرت ذلك الصرير المرتفع مع بداية دوران عجلتها بالأرض. ولقد كان السائق متمكناً فقد استطاع الدوران بالسيارة حول الوسعاية ليتوجه مباشرة نحو الطريق الخلفي المؤدي إلى المقابر، ومن ثم إلى الطريق العام. لكن قبل أن ينطلق السائق متجهاً إلى الطريق صحت به:

إلى أين؟

أجابني السائق وهو يدهس بقدمه فوق مضخة البنزين:

مستشفى أحمد ماهر.

لا أعرف إن كانت حياته ستظل متعلقة بجسده حتى يصل إلى المستشفى أم لا. أركع على ركبتي دون أن أدري، ربما لم تحملني قدمي، ولكني لا أجد سواه وقت أن نظرت إلى السماء، فأخذت أدعوه كي يخفف عني عناء تلك الحياة بعودة الرجل إليّ، وعد بعض من مشاهد مستقبلية لحياتنا بدونه أنا وابنتي، أخذ دعائي يكون تضرعاً، وتمنيت ألا يعطل صوتي شيئاً حتى يصل، وأن تفتح أمامه جميع الأبواب حتى يسمعه الله.

تأتي إليّ أم صبحي وأم جمعة وأم سعيد ويسنداني إلى أن أصعد إلى شقة أم سعيد التي كانت قد طلبت من النساء هذا. وتأخذ كل واحدة منهن بكلمة كي أستفيق. منهن من نادت عليّ ومنهن من لطمت وجهي برفق، وأخرى ألقت بالماء فوق وجهي مباشرة. وأم سعيد تقول:

يا عيني يا بنيتي، إنها لا تزال تحمل طفلة صغيرة على ذراعها. ترى من سيربي تلك الفتاة إذا حدث لأبيها مكروه لا قدر الله؟

فتقول أخرى وقد بدأت شقة أم سعيد تزدهم بالنساء:

وهل سيصمت الرجال يا أختي على هذا؟

تقول أخرى بعد أن يذهب فمها يمينا ويسارا:

وماذا في يدهم يا أختي لكي يفعلوه؟

هل سيذهبون إلى أعمالهم ويتركون نساءهم في المنازل، وذلك الشاب طائح هكذا بنسوان الحارة قبل رجالها.

تقول أخرى بهدوء وصوت المتعلمين من أبناء الحارة الذين يتقلدون بالأطباء:

لماذا لا يبلغ أحدهم الشرطة، طالما أنه ليس هناك من يتغلب عليه.. لا يقدر على القدرة.

تقول أم سعيد وهي عائدة من الداخل تحمل في يدها كوب ماء:

يقدر على من يا أختي، إن كانت عائلة البرغوثي نفسها لم تقدر عليه، هل سيقدر عليه رجالنا الطيبون.

آه يا أختي والنبي إن زوجي لا يستطيع أن يؤذي دجاجة.

والنبي يا أم سعيد.. كفى عن جلب سيرة أبناء البرغوثي بالأمر، نحن يا أختي لسنا ندا لهم، وإن كان ذلك الولد قد قدر عليهم فهذا لأنه مقطوع لهم، وليس له هم سواهم، أما رجالنا فكما تعلمين كل واحد منهم في رقبتهم كوم من لحم يجري عليه.

لم أنفهم كيف تجمعوا بين جنبات مصيبتني، وألتفوا هكذا من حولي وتطرقوا إلى تلك الأحاديث فوق رأسي هكذا؟ رأسي المنشغل بزوجي الراقد فوق فراش الموت، ومن ثم أعود لكي أسأل نفسي: ماذا أفعل هنا، ومن ثم أقول بصوت ذهاب ولم يعد كمن زارته صحوة الموت فقط:

- زوجي.. الرجل، ابنتي.. أين ابنتي؟

- تجيب عليّ نجلاء من وسط الجمع الكبير:

- إنها معي؛ لا تقلقي.

- فأنهض على الفور وأتجه نحو الباب وقد بدأ لساني بنطق تخاريف عقلي:

- الرجل.. "أشرف".. إلى أين أخذوك يا "أشرف"؟

أجذب ابنتي بكلتا يدي من فوق ذراع نجلاء وأتجه نحو السلم وأنا أحاول السيطرة على جسدي فلا يتهاوى بين درجة والأخرى. أتكئ بيدي على درابزين السلم، واليد الأخرى تلتف حول وسط ابنتي التي كانت قد انزلت من فوق صدري إلى أن وصلت إلى بطني وتوشك على السقوط من بين يدي.

أسفل العمارة التي تسكن بها أم سعيد يقع نظري على والدتي ووالدي وهما قادمان وسط الجموع المثرثرة ملئ الحارة، فأندesh: حتى إن الخبر وصل تلك المنطقة البعيدة، التي يفصل بيننا وبينها ما يقارب الشوارع الستة من المقابر، وطول كل واحد منها ما يقارب النصف كيلو. يزيد قليلاً أو يقل قليلاً أيضاً.

أعود بنظري تجاه الشرفة التي تطل على الحارة من شقة مديح. فأجده واقفا ممدد اليدين فوق سور الشرفة ويحدق في هذا الجمع من حولي، وما أن التقت عيناى بعيني حتى دلف إلى الداخل في سرعة، جعلتني أظن أنه يعدو إليّ وأنه سوف يظهر حالا من باب منزله أمامي. لكن هذا لم يحدث، بل أأاني صوته من الأعلى وهو يصيح ويسب في الجموع، ويلقي بأحجار البناء الحمراء من أعلى السطح.

كان قالب الطوب الأحمر يصطدم في الأرض الخالية تماما من البشر فينقسم إلى عشرين جزء ويتطاير في كل مكان. وما أن يستقر كل جزء منه في مكانه حتى تعود الأقدام وتغلا الساحة مرة أخرى، وحين يلقي مديح بقالب آخر يبتعدون، وهكذا، ويستمر مديح في إرسال السباب واللعنات والأحجار من الأعلى ليتلقوها هم من الأسفل دون رد. فيقول والدي:

- هيا بنا من هنا يا ابنتي.. لقد أصبح هذا الوضع خطيرا، لا يجب أن نصمت على هذا!

- ماذا سنفعل يا أبي؟

- سندهب إلى زوجك بالمستشفى.. يجب أن نطمئن على الرجل.

لقد خدعتني كلمات والدي وتصورت أنه ربما يستطيع أخذ حقي وثأر زوجي من مديح، لقد كنت ساذجة إذن حتى ذهب خيالي إلى ذلك دون أن أدري. ماذا سيفعل والدي حيال هذا المفترى المتجبر، والرجل العجوز الضعيف الذي يشكو من كل عظمة من عظام جسده. إن كل هذا الجمع لن يقدر عليه، فلقد أصبحوا جميعا الآن لا يتحدثون سوى عنه، وأصبح كل منهم يحسب له ألف حساب قبل أن يقترب منه. إنهم لن يفعلوا شيئا، لطالما حوت مثل هذه المنطقة عديدا من هؤلاء، لأن أهلها لن يكون بيدهم حيلة تجاههم. لطالما اختبأ بها سارق أو قاتل أو غير ذلك من المجرمين، وكم من مظلوم مثلي ضاع حقه بسبب صمتهم. سيظل مديح يتطلع إلينا من شرفة منزله، وحينما يجد من لا يعجبه بنا سيقذف عليه حجرا من أعلى سطح المنزل. سيخضعون ويتكيفون مع وجوده، ربما يحصنون منازلهم بشكل أكبر، أو يعتادون غلقها، ولكن لن يحاول أحدهم رده، بل ربما بعد عدة أيام سيتحاكون ويتفاخرون ببطولاته ومعجزاته.

أطلع إلى الحارة الممتلئة بالناس الذين يتهامس كل مجموعة منهم فيما بينهم دون أن يعلو صوت واحد منهم، ومن ثم أتجه مع أمي وأبي نحو الوسعاية الكبرى ومنها

إلى المحطة العامة للذهاب إلى المستشفى.. لمعرفة إذا كان أشرف على قيد الحياة إلى الآن أم لا.

أمام حجرة لها باب عريض جدا، وكأن طوله يقارب عرضه، كُتب عليه _غرفة الإنعاش_ توقفت مع والديّ. يدخلن أبي لفافة تبغ في عصبية، وبشكل يتضح معه أنه لا يشرب السجائر وإنما يحتاج إلى التدخين فقط من أجل نفخ دخانها. أمي تتحدث إليّ في بكاء:

- إن شاء الله ربك هيستر يا بنيتي.

- يا رب يا أمي يا رب.

لم أفهم ماذا عليّ أن أفعل، وماذا فعلت لكل ما حدث هذا. أو ماذا سيحدث لـ"أشرف" ولي أنا الأخرى فيما بعد. كيف لي أن آخذ حق زوجي، وفجأة يباغتني الحل عند بداية الممر المقابل لغرفة الإنعاش. إنهم إخوة "أشرف" الثلاثة كيف لم أفكر بهم؟ يهرولون عند أول الممر، فأخذت أندفع نحوهم وأنا أقول بصوتي المبحوح:

- هل رأيتم ماذا حدث لأخيكم؟ لقد قتله، قتله وظل يتطلع إلى جثته بعدما قتله. أين كنتم حين حدث هذا، أين كنتم؟

لكن كبيرهم يبعدي عن الطريق بطرف يده قائلا لي:

- ابتعدي عن الطريق أنت.. كلها جرائرك يا وجه الفقر.

يعبر الثلاثة الممر نحو الغرفة ثم يتوقفون ويحاول كل واحدا منهم أن يبحث عن طبيب في إحدى الجهات. وأتطلع أنا إليهم غير مصدقة، إنه يلومني على ما حدث لزوجي، هل ما فهمته صحيح؟ هل حقا يتهمونني بأني من دفعت أخيهم

نحو هلاكه؟ أكان عليّ أن أترك مديح ليغتصبني وأصمت. أم كان عليّ أن أقاومه بمفردي وكأن ليس لي رجل؟

إنني هي الضحية أيها السادة، كيف حولتموني إلى المجرم. إخوة زوجي حولوني إلى الجاني هكذا، وفي غمضة عين. لا أصدق هذا. يتوقف أحدهم مع الطبيب فأترك من رأسي كل شيء إلى حين، وأتجه على الفور لكي أعرف حالة زوجي من الطبيب. الذي قال في هدوء:

الأمر أفضل الآن.. لقد أوقفنا النزيف، ونحاول السيطرة على الوضع حتى يعود من الغيبوبة.

فأضرب صدري بيدي في دهشة:

غيبوبة؟! -

نعم يا سيدي غيبوبة.. لقد كانت الضربة قوية جدا.. نحمد ربنا، كنا أين وأصبحنا أين، لقد كنت أتصور أن به إصابات بليغة، ولكن جسده بالكامل سليم بنسبة كبيرة، لم تؤثر عليه سوى تلك الضربة فوق رأسه وهي ما تسببت له في غيبوبة وعندي أمل كبير أنها لن تطول.

ثم أضاف الطبيب بهدوء وهو ينصرف:

استأذنكم. -

يمضي الطبيب وهو يشير لأبي نحو السيجارة ويلقي عليه بعض الكلمات التي استشفيت من وضعية الطبيب؛ إنها توبيخ، فيلقي بعدها والذي بالسيجارة ويدهسها بقدمه. فأتطلع إلى إخوة "أشرف" الثلاثة، والذين كانوا يتطلعون إلى بعضهم بعضاً أيضاً ومن ثم قلت:

- ماذا ستفعلون؟ هل ستشاهدون أخاكم وهو يضيع؟ وهل ستتركون من فعل به هذا دون عقاب؟ يقف بشرفته ويده كوب شاي؟
- اصمتي يا امرأة.. لن نفعل شيئاً قبل أن نطمئن على شقيقنا أولاً.
- قلها فتحي الشقيق الأكبر لـ "أشرف" وهو يكاد يبكي لما سمعه من الطبيب عن حالة شقيقه. لكن الشقيق الأصغر محمود يعترض بأن أشاح بيده وهو يتمتم في سره قائلاً:
- ماذا ننتظر؟ ليس لديه صديق سوى الانتظار، كل شيء ننتظر.. لا يعرف سوى الانتظار.
- فيقول "محمد" الشقيق الأوسط والأصغر من "أشرف" مباشرة:
- أنا لن أصمت يا فتحي.
- ماذا ستفعل؟
- سوف أقتل ابن الزانية.
- باستنكار يسأله:
- هل ستفعل ما لم يستطيع فعله أبناء البرغوثي؟
- يحدق "محمد" في عين شقيقه في تحدٍّ تعجبت له، وأنا أعلم أن ذلك الشاب هو أخطر أشقاء زوجي، وأكثرهم حباله. يقول "محمد":
- أبناء البرغوثي لم يتعرضوا للقتل.. أما أخي فهو بين الحياة والموت.
- تهللت أسارير محمود وهو يقول:
- يسلم فمك.. أنا معك في أي شيء.
- يعيد نظره إلى فتحي وهو يسأله:
- هل أنت معنا؟
- بعد برهة من التفكير يقول فتحي:

- هلا أمهلتموني حتى أطمئن على أخي ومن ثم نفعل ما تريدون.
- يضرب محمود كتف شقيقه الأكبر وهو يقول له:
- إن أمهلناك أمهلناه.
- صحيح الحديث.
- أعلق أنا بها، فهو على حق، إن الوقت الذي يمهلوه لفتحي سيكون مهلة كافية ليهرب مديح. فيرمقني عطية بنظرة قاتلة لكي أصمت ومن ثم يقول:
- حتى الصباح فقط.. نطمئن على "أشرف" ومن ثم أكون معكم.. لا، بل قبلكم.
- اتفقنا.
- فأقول قبل أن يجيب "محمد":
- وهل يمهلكم هو للصباح دون أن يهرب؟
- هذه المرة يجيب "محمد":
- سوف يمهلنا.. إنه الآن لا يملأ عينيه أحد، ولا يخشى أحداً حتى يهرب.. سيظن أننا سوف نصمت عن فعلته.. وإن هرب فلقد رتبت حسبتي على هذا أيضاً.
- تخرسني كلماته عن الكلام فقد كانت إجابته شافية لكل أسئلتي، ثم أشاهده يوجه كلماته نحو عطية قائلاً:
- كما يمكن أن يفكر بعضنا.. لكن هذا لن يحدث، وفي الصباح سنترحم على ابن الزانية.. أليس كذلك يا عطية.
- هو كذلك.
- اتفقنا يا عطية.

مديح

تتفرق الجموع أخيراً، ولا يتبقى من الرجال بالحارة سوى قليل، وهم المعتادون على تلك الناصية كمقر لهم، وهم جمعة وعماد وحوده"، و"مندو". ينضم لهم بعض المارة لبضع دقائق لكي يسألوا السؤال الأثقل على قلب "مندو"، وهو: ماذا هناك، وماذا حدث؟ حتى إنني كنت أسمعه يصيح في بعضهم وينهر بعضاً آخر. كما كان يقص تفاصيل التفاصيل إذا كان من يسأله أحد كبار الحارة، أو إحدى النساء. كنت أسمع أحاديث تطول مع بعض السيدات، تبدأ بسرد قصة حياة مندو وتنتهي بنوع الطعام الذي قامت هي بطهوه اليوم في المنزل، وأعجب زوجها أم لا؟ لكم كان "مندو" يحب مثل تلك الأحاديث الطويلة، وبالأخص عندما تكون تلك المرأة مفضلة لديه، ومن كان ينتظر فرصة كتلك للحديث معهن. هذا إن لم يكن جميعهن مفضلات لديه.

فأسمع صوت طرقات على الباب وأهم بالنهوض في صعوبة وتعب. أمضي نحو الخارج فأجد "سرور" ومعه سيد الحانوتي. يدلّقان من الباب أمام عيني بعدما شاهدوني بالداخل. فأشبح بيدي مستنكراً. فلم يكن هناك حاجة إلى تلك الشكليات التي جعلتني أنهض من مكاني، كان عليهم أن يدلّفوا طالما وجدوا أن الباب مفتوحاً دون إزعاجي. أعود مرة أخرى إلى الفراش فيتبعوني، ويقول "سرور":

- هل استطعت النوم وسط كل تلك الجلبة من حولك؟
- أنا لا أنام يا عم "سرور" .. هذه هي الليلة الثالثة التي لا ترى عيني بها النوم.
- ماذا تفعل إذن؟

- أحاول النوم.
- ينظر "سرور" إلى سيد في دهشة ويسأله:
- هل تفهم شيئاً؟
- في الحقيقة لا.. لكن أعتقد أنه مجهد ومتعب من تأثير تلك الكدمات في رأسه ووجهه.
- بالتأكيد هو كذلك.. إن رأسه به كدمات لو كانت في رأس ثور لرقد بها يومين يا جدع.
- الله يكرم أصلك يا عم "سرور".. هل أنا ثور؟
- لا يا مديح يا ابني، العفو.. أنت ثور أكثر من الثور نفسه. إن لم تصدق هذا فانظر بنفسك إلى حال الحارة بالكامل.
- يقولها ثم نضحك جميعاً قبل أن يضيف سيد:
- إنها أنت بطل فعلاً يا سي مديح.. أنت يا رجل، ثلاث ليالٍ لم تجعل الحارة ترقد لدقيقة واحدة خلالها.
- أندعش.. حتى إنني أنهض من مكاني، هل حقاً أنا سبب عدم هدوء الحارة منذ ثلاثة ليالٍ ماضية؟ ربما يكون سيد لا يبالغ هذه المرة كعادته. فأسأله وعلى وجهي دهشة أكبر:
- هل أنا حقاً السبب في عدم هدوء الحارة في الأيام الماضية؟
- طبعاً، وهل يحتاج هذا إلى تفسير؟!
- يؤكد "سرور" كلام سيد وهو يومئ برأسه.
- أسمع صوت طرقات جديدة على الباب، صوت "مندو" لم يعد يأتي من الشارع، وتلك الطرقات تشبه طريقته في طرق الباب، فأقول بتأفف:
- ادخل يا "مندو".
- يأتيه صوت "مندو" من الخارج:
- لست وحدي؟

- من معك؟
- يأتيني صوت أم سعيد:
- أنا أم سعيد يا مديح يا بني.. أتيت لكي أطمئن عليك وأرى إن كنت تحتاج إلى شيء، أنت تعلم مدى معزة والدتك لدي.
- تفضلي يا أم سعيد.
- تدلف أم سعيد ومعها "مندو"، الذي يقول:
- ماذا بك يا رجل.. هيا انهض، لماذا هذه الضجعة التي ليس لها لزوم.. سيتفهمها بعض بشكل خاطئ.
- في دهشة أقول:
- شكل خاطئ؟! ماذا تقصد بشكل خاطئ؟
- أقصد أنهم سيتفهمونها على أنها خوف واختصار لمشكلات يمكن أن تقع إذا عرف أحدهم مكانك.
- هل أنا مختبئ؟
- سيظن بعض أنك مختبئ.
- ومن سوف أختبئ؟
- أبناء البرغوئي مثلاً.
- ها أنا ذا، من كان منهم يريدني فأنا هنا بجوارهم.
- سوف يأتون على أية حال.. عاجلاً أم آجلاً، ولكن.. يمكن أن يقولوا أنهم جعلوك تختبئ بالمنزل قبل أن يأتوا إليك بأي عدد من الأيام.. إذا أرادوا قول هذا.. هم لن يتركوك، وأنت تعلم هذا جيداً.
- وهل تظن أنت أنني خائف منهم؟
- ربها!

يقولها "سرور" وهو يتسم.

فيقول مديح:

- أنت تظن أنني خائف من أبناء البرغوثي؟

- لا يا رجل.. أنا لا أظن شيئا، ولكن أنا أحاول فقط أن أفكر كما سيفكر الناس.

يقول "سرور":

- الناس تتحدث عنك كما البطل.. ليس لديهم سوى سيرتك منذ يومين.. لكن..

يصمت قليلا حتى إنني حشثته على الكلام بحركة من رأسي. فعاد يقول:

- إلا أنهم يتحدثون عن الولد "عجينة" الوحيد الذي استطاع أن يضرب مديح في

المنطقة كلها، لمرة متتاليتين.

أفكر قليلا ثم أوجه سؤالي نحو "مندو":

- أين "عجينة" الآن؟

- لقد شاهدته منذ قليل يتجه نحو المقهى، إن الورشة مغلقة منذ ليلة أمس.

- هذا جيد.

يقول لي سيد وهو يتسم في مكر:

- لقد فهمتك يا عم الناس.. أنت تريد أن تضربه في المكان نفسه، أمام عين جميع الناس.

أبتسم له وأقول وأنا أنظر إلى سيد:

- بالضبط.

فتقول أم سعيد:

- إلى من تتحدث يا مديح يا بني؟

- ليس غريبا، إنه سيد الحانوتي.

يخرج سيد الحانوتي مظهرها لها جسده من داخل النافذة وهو يشير لها بيده.

فتتعجب وتنظر نحو "مندو" وعينيها تسأله شيئا ما لم أفهمه، فيقول "مندو":

- تقوم لنا بالسلامة يا صديقي.
- تسلم يا "مندو".
- هيا بنا يا أم سعيد.
- هيا بنا يا ولدي.. تركتكم بالعافية.
- تقولها أم سعيد ثم تنصرف مع "مندو"، وما أن تلاشت أصوات خطواتهم من فوق السلام حتى قال "سرور":
- هذا الولد "عجينة" مجرد ولد تافه ولا يستدعي التفكير به.
- يجز أسنانه وهو يقول:
- لا أريد ضربه حتى يقولون إنني تغلبت عليه، ولكن ذلك الفتي ضربني مرتين بالغدر.. أنا لن أتركه على ذلك.
- يباغتني سيد قبل أن أكمل كلماتي:
- حقك يا عم الناس.. حقك.
- يهدئ "سرور" من غضبي قائلاً:
- لكني لا أراه يستحق.. أرى أن نتركه حتى تجده في مكان ما بالصدفة.
- يرفع سيد يديه الاثنين وكأنه يقدم شهادة بين يدي الله وهو يقول:
- لا! إذا كانت النية قد عقدت لله على ضربه.. إذن فلا نؤجل عمل اليوم إلى الغد.. علينا أن نجد بزة الزنا هذا، والآن.
- معك حق
- أقولها وأنا أحاول النهوض، وأتجه معه نحو الباب، ومنه إلى مدخل العمارة، ومن ثم إلى الحارة، التي كانت خالية من الناس. حتى من المارة. فتوقفت لأستوضح ضوء النهار بين حدقتي عيني، والتي أخذت تنكمش حتى تنغلق في بعض الأحيان عندما وصل إليها الشعاع الأول من الشمس، على الرغم من أن الساعة قد تجاوزت

الثالثة بعد الظهر. إلا أن الضوء في عيني لا يزال قويا. بالطبع ليس هذا بفعل تلك الحبوب التي أخذتها من "مندو"، فلقد توصلت مسبقا إلى أن تلك الحبوب لن يذوم مفعولها لأكثر من عدة ساعات وقد انتهى بالطبع بعد تلك الفترة القصيرة التي قضيتها نائما بعدما أخذتها بوقت قليل. ربما يعود هذا إلى عدم النوم، فأنا قد أوشكت على دخول يومي الرابع دون نوم.. ساعات قليلة أشعر أنني قضيتها في النوم في تلك الليالي الطويلة الماضية.

أخذت أعبر معهم نحو الوسعاية وأنا أتمنى أن تفسر لي عيناى تلك السحابة العالية في السماء، أهي سحابة رمادية بالفعل كما أراها أم أن ماذا؟ حتى أخذ جسدي يدور حول نفسه، لا أستطيع رؤيتها بالشكل الصحيح. هل ستمطر مرة أخرى بعد تلك الليلة غزيرة الأمطار التي مضت. ربما.. لم لا. ليس للأمطار موعد أو أسلوب حياة حتى نعرف منه ما يعقل وما لا.. وقتنا تشاء تمطر.

أنظر حولي عند بداية الوسعاية الخارجية نحو المقهى الصغير وأنظر بوجه كل من يجلس عليه باحثا عن "عجينة". وحينما لم أجده أشير لهما بأن يتحركا معي نحو المقهى الكبير، فلاحتمال الأغلب حتى من قبل وصولنا إلى المقهى الصغير هو أنني سوف أجده هناك، وبخطوات مسرعة أفاجئ جميع من بالمكان أبحث وأنظر في كل وجه عن "عجينة". ولقد كانت الإجابات المدعورة أحيانا والمرتبكة أحيانا أخرى، دائما بأنهم لم يشاهدونه.

أعود لكي أقف بجوار "سرور" عند صنوبر الماء العام. فلقد تحول "سرور" و"مندو" إلى موقف المتفرج بمجرد أن عبروا إلى الساحة الخارجية، التي بها المقهى الكبير. أنا أعرفهم جيدا، دائما ما يدفعوني أنا نحو المصيبة، ومن ثم يقفان ليتفرجا عليّ. حتى إنني كنت أتوقع مسبقا أن يكون هذا هو تصرفهم. فأقول:

لقد اختفى.

- نعم.. إنه يعلم أنك تبحث عنه، حتى إن جميع الناس صاروا يعلمون الآن أنك تبحث عنه، وتلك في حد ذاتها بمثابة ضربه أمامهم جميعا. فهو من يختبئ منك وليس العكس.
- معك الحق.
- لكنني كنت أتمنى أن نجده.. حتى إنني شاهدته مقطعا أمام عيني في أحلام اليقظة.
- يقولها سيد وهو راسم بعض الحزن فوق ملامحه الجامدة. فجعلني أقول له في إصرار:
- سوف نجده.. أين سوف يذهب.
- أين ستذهب إلى أن نجده؟
- سوف أذهب إلى مقهى المثقفين.. أخرج قليلا عن الحي.. ربما أسترخي قليلا وأستطيع النوم حين عودتي.
- أقولها وأنا أرمق ذلك الولد الصغير الذي يجلس على رصيف بجوار محل البقالة بنظرة خاطفة. إنه الولد "غريب". أحد أحفاد البرغوثي، على الأرجح سوف يذهب إلى جده على الفور لإخباره أنه شاهدني ويقص عليه كل ما حدث. تلك العائلة الملعونة، لا أحد يعلم بماذا يفكر أحفاد إبليس هؤلاء الآن. لن يمر ذلك الأمر مرور الكرام.. سيكون لهم ردة الفعل عاجلا أم آجلا، ولكنني لن يفرق معي كل ذلك.. حتى وإن قتلوني، ماذا سيحدث أفضل لي من هذا؟ سأترك كل هذا العالم بمن فيه لمن فيه. سأتركه إلى والدي وزوجها، وإلى تلك العاهرة "سباح" التي فضلت عليّ بعضاً من المخنثين أمثال زوجها. سأتركه لأبناء البرغوثي الملاحين، وسأتركه أيضا لكل هؤلاء الكارهين الحاقدين على بعضهم بعضاً. ماذا سيحدث لي أفضل من الموت؟ سؤال ليس له سوى إجابة واحدة فقط في عقلي: لا شيء أفضل.

أُتجه نحو شارع النقطة وأمر من أمامها بعد حين، وأتذكر تلك المشادة التي حدثت بيني وبين "أيمن بيك". ولكنني لا أتذكر سببها أو لماذا حدثت؟ لكنني في العموم قد اتخذت قرارا داخليا أنني لن أترك حقي لدى أحد مهما بلغت قوة حبي له أو احترامي. فليس هناك من يستحق هذا الاحترام من الأساس.

لم تزل جفون عيني ثقيلة ولا أقوى على حملها، حينما كنت أتطلع إلى الطريق العام يمينا ويسارا لأجد الفرصة المناسبة لعبور الطريق. أعبر بعد إحدى تلك "الحافلات الصغيرة" المليئة حتى العنق بالناس عبر الطريق، لأنني كنت أعلم أنه سيتوقف ليلقي بنصف حمولته فوق تلك المحطة قبل أن يمضي.

أعبر فوق الطريق المبلل بالأمطار ولم يحف التراب في الشارع بعد، مكونا طبقات وطبقات من الطين. تغرس أقدام المارة دون قصد في بعضها كل حين وآخر. وكدت أتعثر بوحدة من تلك الكثبان الطينية، حتى إنني استندت بيدي على الأرض، ولم يكن هذا هو ما أدهشني، وإنما أدهشني حقا ردة فعل الناس، والتي لم أعتد عليها هكذا مسبقا.. أبدا. إنني قد اعتدت على أنهم يحاولون مساعدة من سقط أو يقف ليسخروا منه على الأقل. لكن ما رأيته الآن هو عدم وجود أية ردة فعل على الإطلاق.. لا أشعر أنني قد أثرت في قلب أحدهم، ولا أثرت سخرية أحدهم. فنفضت يدي ونهضت وأنا أنظر إلى الوجوه من حولي فأجد أن جميعهم يحاولون تجاهلي. والتعامل معي على أنني شيء ليس له وجود.

أمضي في طريقي نحو المقهى، وهي عبارة عن مقهى كبير من الداخل لديه شرفة تطل على رصيف بالخارج، يجلس فوقه مجموعة من الزبائن فوق مقاعد وطاولات كما التي في الداخل بالضبط، وعند الرصيف المقابل والجانبى للمقهى فرشت مقاعد لها شكل آخر، أكثر راحة وأجود صنعا. وبجوارها بعض الطاولات المرتفعة وصغيرة السطح، وقد وضع فوق بعضها بعض المشروبات الطبيعية

كالفراولة والمانجو، أو حتى بعض أفداح القهوة وأكواب الشاي الفاخرة، والتي لا تشبه تلك التي يشرب بها زبائن مقاهي الوسعاية الكبيرة، والتي يظهر عليها أنها رخيصة حقاً. كما المشروبات بداخلها.. أما هنا فكل شيء يشع بالنظافة، حتى الحضور.

عم سعيد طحلب. موظف قديم في إحدى الجرائد الشهيرة، وكان مسئولاً هاماً في حركة التوزيع، والتي حينما فكرت فيها ذات مرة توصلت بعقلي أن هذا المنصب له علاقة بكون صاحبه سائقاً، وليس كاتباً كما كنت أظن حينما علمت أنه يعمل في صحيفة. لقد كان الحاج سعيد مجرد سائق داخل تلك الجريدة، وأخذ يعلو في المراتب حتى أصبح مسئولاً عن حركة توزيع تلك الجريدة بشكل يومي.. هذا هو التفسير الصحيح للمسمى الوظيفي للرجل. لكنني مع ذلك لا أزال أتعامل معه على أنه ذلك الرجل المثقف الذي أحترمه وأقدره، وأحب الحديث إليه، والاستماع له في أغلب الأوقات. فقلت وأنا أتجه لكي أجلس على إحدى الطاولات المحيطة بالرجل: مساء الفل يا عم سعيد.

أجاب عم سعيد دون أن يرفع عينيه عن الجريدة في يده، فهو منذ أن أصبح على المعاش يهبط إلى المقهى التي يسكن أمامه مباشرة عند الظهر من كل يوم. ليأخذ قدح قهوة على الريحة ويستمتع بقراءة الجريدة، والتي لا أظن أنه لا يزال يستمتع بقراءتها.. ربما هي أصبحت مجرد روتين يومي يقوم به، أو ربما يحاول أن يتذكر بها الأيام الخوالي له في تلك الجريدة، والتي لا يقرأ سواها، ربما هذا نوع من الشعور بالانتماء للجريدة التي كان يعمل بها. لكنه يكون مركزاً جداً حينما يقبع في قراءتها، حتى إنه لا يجب أن يقاطعه أحد، وإلا لم يأخذ منه سوى بعض الأصوات غير المفهومة كتلك التي أجاب بها سلامي الآن. التي تفهمت منها أنه مشغول ولا يريد الحديث الآن. فنظرت إلى قدم الرجل التي وضع أحدها فوق الأخرى، وهذا الجورب الأسود

الذي يرتديه على حذاء أبيض وسروال أبيض أيضا. وذلك "التي شيرت" ذو اللونين الأحمر والأبيض، من ماركة لأكوست العالمية. رأسه المصاب بصلع يواريه أسفل بعض الخصلات الجانبية التي يضبطها بيديه كل بضعة دقائق، وتلك النظارة السوداء من ماركة بيرسول. ثم أتركه لحاله وأطلع نحو مدخل القهوة باحثا عن طارق القهوجي. وحينما أجده أشير له بخمسينة شاي ثقيلة ويومئ لي الشاب من بعيد وهو يردد بصوته العالي:

- خمسينة شاي على مزاجك لسي مديح هنا بالخارج.. أحلى كوب شاي يا سي مديح.. حالا.

لم أكن معتادا على تلك اللهجة من طارق القهوجي، في العادي كان يكتفي بأن يومئ لي برأسه فقط. لم كل هذه الجلبة التي أحدثها، وتلك الشرثرة التي تفوه بها؟ كل شيء تبدل اليوم، عم سعيد الذي لم يكن يترك الجريدة لاحد في الدنيا إلا لي؛ أصبح منشغلا بها عني تماما ولا يتحدث إليّ، وذلك القهوجي الثرثار الذي كان يستغلي عليّ الكلمة أصبح يكثر من الحديث معي وعني. ماذا حدث؟ إذا كان صيتي قد وصل إلى تلك الحدود، وأصبح هذا الفتى طارق يعاملني بكل هذا الاحترام والتقدير، فلم إذن على النقيض منه يعاملني عم سعيد بتلك الطريقة وكل هذا الامتناع؟

يعبر من أمامي الحاج ماجد عبده. إنه أحد الدائمين الجلوس على تلك المقهى، وصديق قديم للحاج سعيد، ولديهم معا باع طويل في المنطقة. لذلك فلقد كان عشمه عند محله عندما تدخل للجلوس بجوار سعيد قائلا:

- ماذا بك يا سعيد. شكلك اليوم ليس هو.

- لا شيء.. ما نسمع به كل يوم من أشياء تسد النفس. لقد أرسل لي ابني صادق بأنه عائد إلى مصر قريبا.. يريدني أن أذهب أنا ووالدته لنعيش لديه في مدينة نصر.

- وهل هذا شيء يجعلك بهذا الحزن.. حقك تفرح يا رجل.. لقد رببت وكبرت وقد طمرت في ولدك تربيتك ويرد لك الجميل الآن.
- هذا ما شعرت به أولاً يا حاج ماجد، ولكن فيما بعد شعرت أنني كمن ينتزعون روحه من جسده.. أنا لا أستطيع أن أحيا خارج تلك المنطقة ليومين فقط.
- يهياً لك هذا يا حاج.. هذا الكلام ليس صحيحاً.. لديك أنا كمثال، فعندما ذهبنا إلى المعادي شعرت أنها نهاية العالم، ولكنني اعتدت وتأقلمت على الحياة هناك.. وها أنا ذا أمامك كلما اشتقت لكم أتيت وقضيت معكم النهار بطوله على المقهى، ولكن حينما أذهب للمنزل كل يوم أذهب إلى مكان نظيف.. صالح للحياة حقاً.
- هل أصبحت الحياة في المنطقة الآن غير نظيفة؟ وغير صالحة للحياة يا أبو محسن؟ أم أنكم من حولتم خيرها إلى شرها، ومن عاداتها الجميلة التي رسخناها بها أجيالاً تلو الأخرى إلى قبائح يتحدث عنها الناس، وأخذوا جميعاً يتفاخرون بكل ما هو قبيح. لقد أصبح أقبحكم سيدكم، وأكثركم خطأ هو كبيركم. هل تعرف شيئاً يا أبو محسن؟
- يقول أبو محسن وهو يجذبه من يديه ليجلس:
- أعلم ماذا؟ ما لم أكن أله حقاً هو هذه العصبية التي أصبحت بها، كل كلمة تثور عليها وتغضب. اهدأ قليلاً واطرکنا نعرف نتحدث سوياً.
- وانتظر حتى جلس سعيد وهدأ قليلاً ثم استطرد ماجد:
- يا رجل بالأمس سرقت محفظتي، كنت عائداً من مشوار، وأردت المرور بسيارتي عند السمكري، عند الطريق العمومي العلوي، وقلت لنفسی سوف أترجل سائراً تلك الطرقات كي أترك الدماء تجري في عروقي حتى أجلس معكم قليلاً.
- جذب حديث ماجد انتباه بعضاً من زبائن المقهى فإنهم كسائر باقي السكان يحبون الحكايات والاستماع لها أكثر من أي شيء في الدنيا. فيردف ماجد بعد أن أخذ

رشفة من كوب به الحلبة بالحليب التي لا يتركها من يده منذ أن يدلف من باب المقهى وحتى يذهب في المساء:

- الولد أخذ المحفظة من يدي في أثناء ما كنت أحاسب التاكسي. وهرع يجري نحو المقابر العلوية. تلك التي تصعد لها ذلك المنحدر الإسمنتي. المهم.. حينما تتبعته إلى هناك.. لم نعثر له على أثر لا أنا ولا سائق التاكسي الذي تتبعني إلى هناك.

يقول له سعيد بانتباه:

- فيه الخير والله.

يومئ ماجد:

- ابن حلال.. هرع خلفي على الفور، ولكننا لم نجد للشاب أثرًا، فاتجهت نحو القسم لأحرر محضرًا.. لقد أخذ المحفظة بالكامل ابن الكلب.. وبها الأوراق والبطاقة وكل شيء.. ومبلغ أربعمئة جنيه.. حظ أمه.. لقد كنت قد حصلت عليهم من معاشي من يد أم الأولاد بطلوع الروح.. أخذهم ابن المرة على الجاهز.. المهم يا سيدي. في القسم.. شعرت وكأنني أنا المجرم ولست المجني عليه، كلما تحدثت إلى أحدهم تحدث إليّ وكأنه يحقق معي أنا في ارتياب. كأنني أبلغ عن سرقتهم لكي أفعل شيئًا آخر.

يتجرع قليلا من كوب الحلبة فيقول سعيد متعجلا:

- وماذا بعد؟

- لم تعجبني طريقتهم معي، وكانت لابنة أخي شياء صديقة مقربة، شقيقتها هو معاون القسم، فكلمت البنت في التليفون من القسم وأخبرتها، وما هي إلا دقائق وتحولت معاملتهم معي من النقيض إلى النقيض. وأتى إليّ ضابط محقق بديلا من أمين الشرطة الذي كان يحدثني وكأنني في مكتب سيادة اللواء. بيني وبينك يا حج سعيد أنا ثرت عليه من تلك المعاملة، وقلت له: ماذا هناك يا سعادة الباشا؟ لماذا تلك المعاملة التي ألتقاها.. يفترض أنني مواطن صالح أتى للإبلاغ عن تعرضه لعملية سرقة.

ثم ينظر ماجد إلى سعيد وهو يقترب منه مضيفاً:
- كنت مطمئناً لأن لديّ واسطة رفيعة المستوى.. إنه معاون القسم. فتحدثت إليه
منتفخاً هكذا، وقلت: قل لي يا سعادة الباشا.
يعيدها وهو يقلد نفسه ومنتفخاً بجسده فوق الكرسي فيضحك سعيد وهو
يقول:

- وماذا بعد؟
- نظر لي الرجل ثم قال لي: انظر إلى عنوانك الذي أبلغتهم به في المحضر.. إن عنواني في
البطاقة لا يزال كما هو على شقتي القديمة هنا في المنطقة، وحدث لي ما حدث لك الآن
عندما كنت أحدثك، وأخذتني العزة والوفاء للمنطقة بأن أثور مرة أخرى على الرجل
وأقول له: وماذا بعنواني بالبطاقة. فأجابني بهدوء وهو يلقي بالمحضر فوق مكتبه
قائلاً: إنك من منطقة نسبة المسجلين خطراً بها تتخطى الخمسة والثمانين بالمئة من
سكانها، هل تريدنا أن نعامل الأغلبية على أنهم الأقلية حتى يثبت العكس.. أم الأقلية
على أنهم من ضمن الأغلبية حتى يثبت العكس.. طبعي أننا نشك في كل من نجد
عنوانه من تلك المنطقة، ونعامل معه على أنه مسجل خطر حتى يثبت العكس.
- لكن هذا خطأ.

يصيح بها الحاج سعيد ثم يضيف:
- يفترض أن المتهم.. حتى المتهم.. الذي دخل القسم للاشتباه في ذنب قد ارتكبه، يظل
برئاً حتى تثبت إدانته. إنه يقول بلسانه أن بها نسبة خمسة وثمانين بالمائة فقط، أي أن
هناك نسبة خمسة عشر بالمائة محترمون وملتزمون، لماذا يأخذونهم بخطأ غيرهم. إن
نبتهم لنا بمثل هذه الطريقة سيجعل من النسبة ترتفع لا تنخفض. يفترض أن
مهمتهم هي خفض نسبة المجرمين قبل عقوبتهم.

ضحك الحاج ماجد وهو يجيب:

- هذا ما قلته بالضبط.

- وماذا قال لك؟

- قال لي: إن هذا هناك في الأحلام وفي الكتب، أما في الواقع فلن ينتظر السارق أو الإرهابي أو القاتل الضابط حتى تظهر إدانته، ربما يأتي وقت الإدانة فيكون الضابط قد قتل وما أكثر الأمثلة، وأخذ يعد لي عدد من استشهد من الضباط وعدد من نجا من كم لا بأس به من الإصابات. هل تعلم لماذا أنا هنا اليوم، على الرغم من أنني كنت هنا بالأمس؟

- لماذا؟

- لأنني قد ذهبت اليوم لكي أتقدم باستخراج بطاقة جديدة، وقد طلبت أن أرفق بداخلها عنواني الجديد. كي أتخلص من تلك النظرة التي كنت ألمحها فوق وجه ذلك الضابط ولا أشاهد مثلها مرة أخرى أبدا.

- أنت، وذلك الضابط، وجميع من ينظر إلى الأمور من هذا المنظور مخطئون.

ثم أشار إلى مديح بيده وقال الحاج سعيد في غضب:

- أنت وأمثالك من فعلوا بي أنا وأمثالي هذا.. أنت يا فتى اغتصب جارتك اليوم صباحا، وها أنت ذا تجلس بجوار مجموعة من المحترمين في المنطقة كما لو كنت لم تفعل شيئا، على العكس أنا أرى أن جميع الناس هنا يميّونك أكثر ويعطونك التحية. كما أنك نفسك سعيد بما أقدمت عليه وتشعر كما لو كنت بطلا.

- ماذا بك يا عم سعيد؟

أقولها في دهشة من الرجل. لا أعلم لماذا صبّ غضبه مرة واحدة عليّ، ولم أكن أعلم من أين لي بخبر كهذا أيضا، ولكن الجواب أتاني سريعا عندما ألقى إليّ الحاج سعيد بالجريدة، ووجدت بداخلها صورة لي وأنا أزيح في الجموع أسفل منزلي،

وفوقها كتب، "جندي بالجيش اغتصب جارته وشرع في قتل زوجها، وبخط صغير بالأسفل كتب: "لم يبلغ أحد السلطات المختصة لخوفهم من ذلك المجرم ومن بطشه الشديد عليهم."

كانت للكلمات وقع مؤثر عليّ، وقد خلقت في عقلي ألف سؤال وسؤال، وأنا منشغل للإجابة عنها فنسيت سعيد الذي كان يتحدث إليّ والذي أخذ حديثه يتطرق إلى جميع الحضور في شكل محاضرة قائلاً:

- إن كل ما يحزنني أن بعد كل هذا قد التصقت فعلته الشمطاء بالجيش.

أجاب عم سعيد أحد الشباب الصغير، فتى لم يكمل ثلاث عشرة عاماً بعد قائلاً:

- كل ما يهكم بالأمر هو ما كتب عن الجيش، ولم يهكم ما قصه عليك صديقك من فساد في طريقة التعامل، وعدم العدل الذي يحظى به الناس أمام رجل الشرطة. أن هذا التعنت هو ما يجعل كل صحفي يتربص بخبر عن الجيش أو الشرطة، ونتيجة لهذا فتجد مثل هذا المجرم منسوب الي الجيش في هذا الخبر.

- الناس يا ولدي هم من فعلوا ذلك.

- لا يا عم سعيد.. الناس لم تفعل شيئاً.. الناس لم تقتل لهم أن يجوعوا حتى يبحثوا عن اللقمة ويبحثوا عن اللقمة حتى يتناسوا ما يحدث حولهم وسط تلك الطاحونة.. حتى أصبحوا جهلة بالفطرة وجوعى بالفطرة أيضاً.. ماذا تنتظر من شخص نشأ مثلاً نشأ هذا الشاب.. أن يكون طبيياً؟ إن أسفل منزله هناك متجر لبيع المخدرات.

- أنت تدافع عن عملته السوداء؟!

- أنا لا أدافع عن شيء، ولكن كل تلك المشكلات الصغيرة ناتجة عن مشكلات أكبر. تخصنا جميعاً.

أترك المكان دون أن أركز ولو في كلمة مما يقولون، وأنا الآن أعلم أن الأمر أصبح كبيراً، وليس فقط على مستوى المنطقة أو الحي، أو حتى النقطة، إن الأمر أصبح أكبر من قسم الشرطة نفسه. لقد أصبحت سيرتي على كل لسان في البلد بالكامل. من الذي فعل ذلك، من الذي التقط تلك الصورة، لا يوجد سواه.. إنه بكري ابن أم كريمة.. هذا الفتى الذي يعمل مصوراً في تلك الجريدة التي كان يعمل بها عم سعيد، هو من توسط له للعمل بها أيضاً. وحياة أمه لن ينعم بنوم هادئ بعد اليوم. يفعل بي أنا هذا؟ أتعجب وأنا أسأل نفسي.. ثم أتوعده قائلاً:

- الصبر.. الصبر يا ابن أم كريمة.

سامح

قبل أن أترك المستشفى وأذهب وجدت الشرطة تضع على باب غرفة زوجي حارساً، وشرع بعضهم في السؤال عني، ولذلك فلقد تسلل الخوف إلى قلبي قليلاً، ولم يخطر على بالي سوى فكرة واحدة، وهي أن الشرطة قد علمت بأمر ذلك المخدر الذي يتاجر به ذلك الشقي زوجي.. هؤلاء الكفار، لن يرحموه حتى في تعبهم، ومرضهم. ماذا سيفعلون بي أنا إذن؟ فتركت المستشفى على الفور واتجهت نحو المنزل، لكي أُللم بعض الأشياء الهامة لي ولابنتي وأتجه صوب أمي، وسأحاول إقناعهم بإخفائي هناك لبعض الوقت. لكن في أثناء الطريق استوقفتني فكرة جعلتني أبدل كل شيء من رأسي مرة أخرى، كيف لم أفكر في ذلك من قبل؟ إن كل شيء فعله زوجي كان يشاركه به "ضاحي البرغوثي".. لماذا لم أُلجأ إليه؟ إنه في المركب نفسها مع زوجي فإذا غرقت فسوف تغرق بهما الاثنان.

عند باب منزل البرغوثي توقفت وقد سمعت صوت كحة الحاج "سامح" آتياً من الطابق الثاني من المنزل، وتفهمت أن الرجل بالمنزل، وأخذت أفكر في طريقة أستطيع من خلالها أن أتحدث إلى "ضاحي" دون أن ألفت انتباه الحاج "سامح" لي، ولم تكد الفكرة أن تأتي إليّ حتى وضعتها حيز التنفيذ على الفور. لقد فكرت في أن أدخل عليهم وكأنني أستنجد بالمعلم "ضاحي" من أجل مساعدة زوجي حينها أنفرد به أقول له أنني لا أطلب مساعدة، بل إن الموضوع يرتقي لأن يكون تهديداً.

فأطرق الباب بيدي بمجرد وصولي إلى منزل البرغوثي وأنا أبكي وأتصنع الخوف، حتى إذا فتحت لي الحاجة الباب فقلت على الفور:

والنبي يا ست الحجة.. أريد أن أتحدث إلى المعلم "ضاحي" في موضوع هام.

- ماذا بك يا بنيتي.. هل فعل لك أحدهم شيئاً؟
- لا يا ستنا أنا بخير، ولكن زوجي ليس بخير.. أتمنى أن يسأل لي المعلم "ضاحي" أحد معارفه، ويطمئنني على وضعه.. إن زوجي رجل طيب والنبى يا ست الحاجة.
- حاضر يا بنيتي انتظريني هنا وسوف أرسل له.
- كما تأمرين يا ستنا.
- تتأخر الحاجة لسبب ما بالداخل، وتغيب لدقائق كاملة بلا خبر أو حس.
- تذكرت أنني قد سمعت صوت المعلم "سامح" آتيا من الأعلى منذ قليل، فأخذت أقطع متسللة نحو السلم وأنا أسترق السمع. حتى إذا بلغته فهلّ على سمعي صوت الحاج رأفت أيضا. فحاولت أن أقرب أكثر فوجدت أن رأفت يقول:
- لم يكن أمامي سوى أن أفعل ذلك.. هذا ما يقوله العقل، وتفرضه المصلحة.
- أي عقل في هذا يا عمي؟ الولد غريب أخبرنا أنه بالخارج، وأنت لا تريدنا أن نتعرض له؟
- يأتيني صوت رأفت وهو يقولها.
- العقل الذي أعرفه أنا، ويفكر به كل عاقل يا أخي.. لقد تصرفت في الأمر ولا أريد منك التدخل.
- في انفعال مبالغ به يقول "ضاحي" متصنعا القوة:
- العقل أن تدخل الشرطة بيننا وبين مجرد ولد صغير صارت لنا معه عركة.
- إنه ليس مجرد ولد، كما قلت لك إنه عسكري في الجيش، وضربه سوف يدخلنا في متاهات، أولها.. إن ذلك الفتى مخدر، ونوع المخدر الذي يجري بجسده أنت الوحيد الذي يتاجر به يا "ضاحي".
- يتلعثم "ضاحي":
- ماذا تقول يا عم؟

- أقول الحقيقة يا "صاحي" .. الحقيقة التي تعلمها أنت ولا يعلمها والدك. لكن بما أنني قد عرفت، فمن السهل أن تعرف الشرطة أيضا.

يشرد "صاحي" دون أن يجيب. فيضيف عمه بعد دهشة من عدم ردة فعل "سامح" قائلا:

- إن حدث لهذا الشاب أي مكروه حتى ولو من شخص آخر لا بيت لعائلتنا بصلة، سوف نتهم فيه نحن. وإن تركناه يحيا بيننا فسوف نعيش بعار ذلك طوال العمر. إنما بما فعلت أنا وهو شيء بسيط لم يكلفني سوى أربعمئة جنيه فقط. أعطيتهم للولد ابن أم كريمة وقلت له أن يراقبه حتى تأتي اللحظة المناسبة، كنت أعلم أن تلك الحبوب الذي أخذها سوف تدفعه إلى فعل شيء آخر، وفي الحقيقة، وبدون أن تغضب مني يا "صاحي" .. لقد أصبحت أخشى عليكم من ذلك الشاب يا بني .. بعدما شاهدته في تلك العركة معكم .. لذلك فلقد أبلغت عنه بطريقة غير مباشرة عن طريق هذا الخبر في الجرائد، فلا يستطيع أحدهم أن يتهمني بأنني قد أرشدت عنه الشرطة. وضمنت أن بلاغي سوف يصل إلى النائب العام شخصيا، وأن الفتى لن يتحول فقط إلى مجرم مدني، بل إلى مجرم حربي، وهذا سوف يبعده عنا لسنوات، كفيلة لأن يعرف جميع الناس أننا من لا نستطيع أن نطوله بأيدينا فإننا أيضا واصلين إلى مراتب عليا، نستطيع أن تمحو كل من يقف أمامنا من على وجه الأرض محوا.

- أحسنت يا عمي.

يقولها عطية بصوت واهن.

- أmaal .. لقد استغلّيت الموقف .. وقلبت رأسا على عقب .. من موقف يحسب علينا لموقف يحسب لنا. وفي النهاية لم يكلفنا شيئا. كل ما هنالك أنه عندما تحضر الشرطة وتقبض عليه تذيبوا أتم الأمر بين النساء ليدخل السر إلى جميع البيوت؛ بأننا من قمنا بحبسه عن طريق معارف لنا. ثم إنه عندما يفيق إلى أنهم يحققون معه سيكون قد استفاق من

ذلك العقار، وضمننا أنه كان داخل أربعة جدران حتى ينتهي مفعوله. إن تلك الفكرة تخدم جميع الاتجاهات معا، ولقد درستها جيدا. أنا أؤيد كلام عمك يا "ضاحي".

يقولها الحاج "سامح البرغوثي" بعد أن أخذ يسمع ويدير الكلمات في رأسه. أفيق إلى نفسي فأجد أنني قد صعدت بعض درجات السلم نحو الأعلى لكي أسمع جيدا، وأتذكر أن الحاجة ربما تعود لي في أية لحظة، ولن يكون هناك مبرر لوقفتي تلك أمام المرأة العجوز اللئيمة. وستفتح لي محضرا وسين وجيم؛ فأعود أدراجي دون أن أهمس بأي صوت، لا من نعل عالٍ ذو كعب خشبي أرتديه بقدمي، ولا بأنفاس متقطعة ألتقطها بصعوبة وأنا أسير على أطراف أصابعي حتى بلغت الباب. فإذا بي أفتحه وأعبر منه إلى الخارج. وما أن أغلقته خلفي حتى سمعت صوت خطوات الحاجة تعود إلى حيث كنت أنا في انتظارها، وتصورت نظرة الدهشة على وجه المرأة وهي تبحث عني في المكان وتسأل نفسها إلى أين ذهبت؟ لكن من الطبيعي أن أذهب لقد تركتني المرأة أنتظرها لأكثر من عشرين دقيقة كاملة، ماذا كانت تنتظر مني. إنني حتى ولو متسولة قد حضرت لكي تتسول منهم اللقمة فليس عليهم أن يعاملوها بهذا الشكل. حتى إن السبب الرئيس في أنني أمشي من هناك كان هو ذلك، وليس فقط لأنني سمعت ذلك الحديث الهام الذي دار بينهم بالأعلى.

لقد أعاد إليّ حديثهم جزءاً من كبريائي واعتزازي بنفسي، وهذا جزء كبير كان غاضبا بداخلي. كان ذلك الجزء غاضب من أجل أنني وبعد كل هذا الحب الذي أحبيته لمديح اتضح لي أنه يراني على أنني امرأة خائنة لا تجد رجلاً يردعها أو يلمها. لكنني الآن أعلم أنه فعل ذلك تحت تأثير المخدر فقط، وأن تلك ليست أفكاره.

تعتلي حلقي غصة كادت توقف أنفاسي وانا اقاوم فكرة أن يكون مديح هو الضحية في النهاية، وان المجرم الحقيقي هو ذلك المخدر الذي يتاجر به أشرف. وان ما يضمر لي مديح في نفسه شيء مخالف لذلك تماما، ولكن..

أعود وأقول ولم لا يكون ذلك ما هو في ضميره، وقد جعلته المخدرات يخرج به فقط، لكن ما استوقفتني حقا هو أنني فطنت إلى كل ما حدث لي وطال بيتي كان السبب به هو زوجي، فهو من يتاجر بذلك الصنف الجديد بديلا عن "صاحي البرغوئي"، ولقد سمعت الحاج رأفت الآن وهو يقول إن الفتى قد ابتلع من تلك العقاقير. أعني هذا أن "أشرف" هو من تسبب فيما حدث لنفسه بنفسه. لقد طال العقار الذي يبيعه بيته وعرضه وجسده قبل أن ينال من أي بيت آخر. لكنني فطنت أيضا إلى أن تلك الحراسة التي عينتها الشرطة على باب حجرة زوجي لأنه المجني عليه في تلك القضية، وبما أن الأمر أصبح في يدي النائب العام فإن كل الأمور سوف تمشي صحيحة، وستتخذ الشرطة جميع الإجراءات القانونية. هذا يعني أن سؤا لهم عني كان لأخذ أقواله وليس للقبض عليّ مع "أشرف" في قضية المخدرات، ولذلك فلقد اطمأننت وعدت لكي أتهجه نحو البيت الأصفر دون انزعاج، وأنا أحمل على كتفي هالة التي كانت تراقب كل شيء في الشارع وهي تضع إبهامها داخل فمها وتتجرعه.

أعبر ذلك الشارع الواسع الذي يسكن به البرغوئي، وأمر من أمام ورشة السمكري، وأتهجه نحو اليسار عند الشارع الذي يقابل الملف الضيق، ومنه إلى الشارع المقابل لمنزلي ولكني لم أكد أن ألتف إليه حتى وجدت أم سعيد بوجهي مباشرة؛ حتى كدت أصدم بها. فأقول لها في مزاح حزين في محاولة لنفض كل أفكار السابفة ورسم بعض من الفرحة بنجاة أشرف:

ماذا بك يا امرأة؟

- لا شيء.. لا شيء
- ماذا إذن؟ أنت لا تنظرين أمامك حتى؟
- تتردد قليلاً قبل أن تقول أم سعيد:
- بدون أن تغضبي مني إن هذا واجب يا بنيتي في الأول أو في الآخر.
- ماذا هناك يا امرأة؟
- لقد ذهبت إلى الولد مديح، أخذت معي "مندو" وذهبتنا للاطمئنان عليه، فجميع الناس غاضبون منه، وأنت تعلمين أن والدته كانت صديقتي.. أنا حتى ذاهبة إليها لكي تأتي لتجد له حلاً.. فلن أتركه طائحا هكذا في الحارة.
- لماذا تخبريني أنا بذلك يا أم سعيد؟
- ما رأيته يا أختي.. ما رأيته لا يجعلني ألتزم على جسدي حتى الآن.
- ماذا رأيت يا أم سعيد؟
- عندما كنا عنده وجدته يتحدث إلى شيء ليس موجودا، في البداية تصورت أنني من يتهيأ هذا وأن ما يحدث شيء آخر، ولكن بعد قليل بدأ يتحدث إلى أحدهم بصوت عالٍ وواضح، وعندما سألته قال لي إنه يتحدث إلى "سرور" العريجي. على الرغم من أن "سرور" قد أبلغني في صباح أمس أنه ذاهب إلى بلدهم فقد وصلت إليه رسالة من أخيه يطلبه، فقال إنه سيستغل تلك الفترة المليئة بالأمطار والتي يكون خلالها عمله في رقود ويذهب، ويعود بعد يومين. إلا أنني تصورت أنه ربما قد عاد وأنه بداخل الشرفة وأنا لا أراه. لكنه بعد قليل تحدث إلى شخص آخر، وعندما سألته عمن يكون هذا الشخص قال لي إنه سيد الحانوتي.
- أندھش قائلة في تعجب:
- سيد الحانوتي؟! لقد مات سيد الحانوتي منذ ثلاثة أعوام على الأقل.

- هل رأيتِ يا أختي لماذا لا أستطيع أن ألملم بعضي.. إنه يتحدث مع الأموات.. ذلك الشاب ملبوس، لقد لبسته العفاريت لا كلام آخر.
- عفاريت ماذا يا امرأة؟ صلّ على النبي في قلبك.
- والنبي يا أختي عفاريت.. إنه يتحدث إلى الأموات كما أتحدث أنا إليك الآن.
- ربما يهياً لك يا أم سعيد.
- اسألي "مندو".
- قالتها وهي تلتفت نحو البيت الأصفر وتضيف:
- إنه واقف هناك.. ها هو.
- ثم بعلو صوتها تنادي:
- "مندو"، يا "مندو".
- يحضر "مندو" إليها مطرق الرأس وما أن يصل حتى يقول:
- صحيح ما تقول أم سعيد.. كل ما قالته لك صحيح يا ست أم هالة.
- وما أدراك عما سوف تسألك أم سعيد؟
- إنها المرة العاشرة التي تسألني وتشهني على الأمر بها.. تقريبا قالت الخبر لربع سكان الحارة واحتاجت شهادتي لتأكده لنصف من قالت لهم.
- وهل حدث حقاً ما تقول يا "مندو"؟
- حدث يا ست أم هالة.. لقد حدث.
- لم يكذب يتم عبارته حتى سمعت صوت سعيد آتٍ من أول الشارع.. إن سعيد على الرغم من أنه كبير في العمر وقد تخطى العشرين بثلاث أو أربع سنوات، إلا أنه يظهر في بعض الأوقات بشكل الأبله. ويعطي انطباعاً أولياً لمن يراه للمرة الأولى أن لديه إعاقة ما. لكنه في الحقيقة ليس به ما يعيبه على الإطلاق.. على العكس إنه لا

يفعل شيئاً سوى لعب الدومينو على القهوة، ولكنه لم يدخن أو يشرب أي نوع من المخدر من قبل.

يقول سعيد بعلو صوته:

- أم يا أما الحقي يا أم.

ينتبه جميع الناس إلى سعيد الذي يركض بتجاههم وكأن الجن يتبعه. وما أن يحضر حتى يقول:

- لقد اتصل أحدهم بالتليفون الآن.. يقولون إن عم "سرور" قد مات في حادث بالأمس.. وهو في طريقه إلى بلدته.

أنظر إلى أم سعيد، وأنظر إلى "مندو" ثم إلى الاثنين معاً، ومن ثم أسمع أم سعيد تقول: بسم الله الرحمن الرحيم.. يجعل كلامنا خفيف عليهم.. ألم أقل لكم إنه يتحدث إلى الأموات.

يقول سعيد لاهثاً:

- علينا أن نخبر حمادة ولده.

- إن حمادة في السجن.. كيف سنخبره؟

يقولها "مندو" في دهشة ومن ثم يضرب كفيه ببعض قائلاً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. الرجل كان معنا منذ يومين يضحك وكرع بالأرجلة وكأنه سيحيى ألف عام بصحة جيدة.

- هذا حال الدنيا

تقولها أم سعيد وكم انتبهت إلى شيء جال بخاطرها:

- من مات فقد مات وارتاح، الدور والباقي على الأحياء.. إنه يتحدث إلى الأموات.. ها أنتم تشاهدون بأنفسكم. كنتم تتعللون بأن "سرور" حي.. أصبح الآن جميعنا يعلم أن "سرور" ميت منذ ليلة أمس.

ما تقوله المرأة حقيقيٌ.. حتى إنني لم أكن لأعلق على كلامها وألقي به في سلة
الجهل إلا متعللة في ذلك بأن "سرور" حي، وها قد أصبح الآن ميتا، ومنذ وقت
كافٍ لأن يصبح عفريتاً يتحدث إلى مديح.. هل هذا من تأثير الحبوب المخدرة
أيضا؟

مديح

أترك المقهى عائداً إلى منزلي، وما أن أمر بالطريق المليء بالطين حتى أتذكر كلمات الحاج سعيد، وتتردد داخل عقلي غير مصدق. ماذا فعلت؟ كيف فعلت ذلك بنفسني؟ لقد أصبحت سيرتي على كل لسان. لم أكن لأقدم على أمر كهذا أبداً، إذا كنت بعقلي وبكامل تفكيري، إنني أعلم نفسي جيداً، مؤكداً أنني لم أكن بعقلي وقتها.

من أمامي أجد "أيمن بيك" يمر بحذر كي يقترب مني، ولم تكن خطواتي أنا بها أي من أنواع الحذر، في تلك الطرق المليئة بالطين والبلل، أعبّر دون أن أنظر أمامي أو على ماذا سوف أضع قدمي، جميع الناس يتعدون من حولي وكأني وحش أو عفريت، ولم أكن قد فعلت لأي منهم شيئاً من قبل. إن منهم من كان صديقاً لي في المدرسة، ومن هو جار لي. جميعهم يمرون وكأنهم يتلاشون رؤيتي، ويختبئ كمن يخشى أن أنادي عليه فيضطر إلى التوقف، ماذا حدث للناس من أجل كل هذا؟ هل ما فعلته بكل تلك البشاعة؟ إنهم يعيشونه طوال الوقت، إنهم دائماً ما يتعرضون إلى حوادث مماثلة طوال الوقت. أفكر في كل هذا في أثناء اصطدام جسدي بيد "أيمن بيك" الذي كان يستوقفني بيديه، وهو يقول:

- مرحبا مديح.
- أهلا يا "أيمن بيك".
- إلى أين أنت ذاهب؟
- إلى المنزل.. أشعر ببعض التعب
- هل لنا أن نتحدث قليلاً أولاً.

إنه يسحبني بصنعة لطافة، هذا ما يريد على الأرجح، لقد علم بالمكتوب في الجريدة إن لم يكن قد علمه من رؤسائه بالطبع، في أثناء إعطائه الأمر بالقبض عليّ، يريد أن يأخذني إلى النقطة برضاي، ودون مشقة القبض على أيضا، ليس عليّ أن أبادر بفعل شيء، عليّ فقط أن أحاول التهرب منه فأقول بهدوء:

- لنؤجلها لوقت لاحق يا "أيمن بيك" فأنا كما قلت لك في السابق أشعر ببعض التعب وأريد أن أرتاح.

- أنا لن أعطلك كثيرا.. لا تقلق.

- لست قلقًا على الإطلاق.. أنا فقط كما أخبرتك.. متعب قليلا.

- لن أكثر عليك.

لم يكن هناك مفر أمامي سوى الذهاب معه إلى النقطة. لن أستبق بسوء النية، لربما لم يكن في نية الرجل الأذية لي. فلم أرد بفعل خاطئ على أنه يمكن أن أؤجله إلى حيث يصبحون في النقطة، فلن يفرق في شيء إن فعلت هذا هنا أم هناك. ستكون النتيجة واحدة، ما يجعلني أستطيع الفرار هنا.. يجعلني أستطيع الفرار من النقطة.

بضع أمتار بين السور الصغير والمبنى الداخلي للنقطة، استخدموها كأحواض لبعض الأشجار الشائعة، وحشائش وورد بسيطة. من بينهم ممر أبيض من حجر قديم، أعبر من خلاله مع "أيمن بيك" نحو أربع درجات للسُّلم الأمامي لمبنى النقطة، الذي لم يكن بداخله سوى مكتب كبير وبجواره قفص حديدي للمتهمين. شاهدتهم بمجرد أن دلفت معه إلى الداخل.

في أثناء عبور "أيمن" إلى المقعد الداخلي للمكتب، قال لي وهو يشير لي نحو المقعد المقابل له لكي أجلس:

- تفضل

- أتمنى ألا يطول الجلوس.

- لقد وعدتك بالا أظيل عليك.
- وأنت دائماً عند وعدك.
- هل تتذكر المرة الأولى التي التقينا بها يا مديح؟
- بالطبع يا بيبك.
- كنت أنت مع ابن خالك، وهو صديق لي حتى الآن.. عندما عرفني عليك، وحدثني عن ظروفك قلت من داخلي هذا الشاب يشبهني كثيراً.
- هذا يشرفني يا بيبك.
- لكنك هذه الأيام تخيب آمالي.
- أنا يا بيبك؟!
- نعم يا مديح أنت.
- ماذا فعلت؟
- أنا وكما وعدتك لا أريد الإطالة عليك.. كنت عائداً الآن عندما التقينا من القسم.
- قالها ومد يده يجلب علبة السجائر من جيبه ويضعها فوق المكتب، ويحيط بي ارتباك غريب جعلني أشعر كما لو كانت هامتي تتصبب عرقاً، وقد فطنت من كلمات الأيمن أن عودتي من القسم لا تحمل شيئاً سوى أمر بالقبض عليّ. فترقبته وهو يأخذ سيجارة ويشعلها، ويزفر دخانها وهو يضع عود الثقاب المطفأ بمطفأة سجائر. بجوارها نفس الجريدة التي كانت بيد سعيد؛ فتتضح علامات الارتباك أكثر عليّ في حين يقول "أيمن" بهدوء:
- هناك عقار جديد دخل السوق اليومين الماضيين. يباع على أنه مخدر، ولكنه عقار خطير جداً، وله أعراض كلها سلبية، وطويل المفعول.. يدوم مفعوله لأربعة أيام على الأقل.
- أتتفلس الصعداء، ليس للأمر علاقة بما كنت أفكر به فأظفر مسيطراً على رباطة
- جاشي قائلاً:

- هل لي دخل بهذا؟
- بالطبع لك دخل يا مديح.. اصبر قليلا.
- تفضل.
- عندما كان الباحث يشرح لنا الأعراض، تذكرت أنني وجدت بعض تلك الأعراض عليك أنت. نعم، كضيق عينيك الآن بالضبط، وشعورك الدائم بأنك لا تريد أن تتوقف.. فإن كنت ترتاح فلا تريد أن يزعجك شيء، وإن كنت تبذل مجهودًا فلا تريد أن يوقفك عنه شيء، دائمًا ما يبحث جسدك عن التهادي في الفعل الذي تقوم به.. أيا كان ما هو.
- أنا؟!
- نعم.. أهمها أيضًا هي عدم النوم على مدار تلك الليالي الأربعة.
- لكن أنا لم أنم منذ ليلتين فقط.
- ولن تنام ليلتين قادمتين.
- وما أدراك؟
- لأن أعراض ذلك المخدر ظاهرة عليك. ويعني هذا أنك قد تعاطيته.
- لا أرى أية أعراض..
- اسمعني يا مديح.. اسمعني جيدًا.
- يقولها ثم ينهض من خلف مكتبه وينفث دخان سيجارته وهو يقول مسيطرا على هدوئه:
- هذا العقار خطير جدا، ليس مخدرًا عاديًا كتلك التي تعرفها، هو ليس حشيشًا أو بانجو، ولا حتى من فصيلة البرشام الذي يتعاطاه الشباب. إنه شيء أخطر. أخطر كثيرًا، ولم يكن قد جرب بعد على الإنسان، واشترى أحد رجال الأعمال حقوقه كاملة من مخترعه في الصين، واستطاع إدخال كمية لا بأس بها إلى البلاد بصورة شرعية على

أنه دواء، وعطل جميع الأوراق التي يمكن أن تدرج ذلك الدواء داخل جداول المحظورات.. الشيء الجيد في الأمر، هو أن تلك الكمية هي الكمية الوحيدة التي صنعت من ذلك العقار، وإلى الآن لا تستطيع وزارة الصحة أن تجد مصدر العقار، أو حتى حالة ممن جرب عليهم العقار حتى تتهم صاحبه وتمنع تداول العقار فيدرج تحت جداول المحظورات المصرية ومنها إلى أن تحظره دوليا. استطاع الرجل أن يمحو جميع السجلات الرسمية، لا أحد يعلم كيف دخل هذا العقار وكيف تم تداوله.

- حتى الآن أنا لا أفهم ما علاقتي أنا بالأمر يا "أيمن بيك"؟
- كل ما أريده منك يا مديح، أن كنت قد تعاطيت شيء بالأمس أو أول أمس أن تخبرني من أعطاه لك، وسوف تأتي معي لكي نقوم بعمل بعض التحاليل، وستكون بذلك قد خدمت وطنك خدمة العمر.

خدمت؟! ووطنك؟! ما تلك الكلمات السهلة التي تضحك على عقول السذج، حتى وإن كنت قد أخذت عقارا فلماذا أخبر هذا الرجل عن أعطاه لي، هل أنا أعمل مع الحكومة، في النهاية أكون جاسوسا على أهل منطقتي لصالح الشرطة. إن هذا لن يكون أبدا بالطبع.. ذلك الرجل خفّ عقله تماما. ثم أظفر وأنا أنفض قائلا:

- لماذا لم تسألني منذ البداية يا "أيمن بيك" وكنا انتهينا.. أنت تريد أن تعرف إن كنت قد تعاطيت شيئا.. لا يا سيدي أنا لم أتعاط شيئا منذ أسبوع مضى.. هل أنت مرتاح الآن؟
- أتمنى أن تكون صادقا يا مديح.

- ثلاثة بالله العظيم صادق يا سعادة البيك.

- حسنا.. تقدر تتفضل لو تحب.

- أشكرك يا بيك.. أشكرك.

أقولها وأتجه نحو باب الخروج مباشرة، وأنا لا أعطي بالآ لكل ما قاله الأمين "أيمن"، وكل ما أفكر به هو كيف دخلت إلى النقطة وخرجت منها بهذه السهولة.

ليس عليّ أن أضيع الفرصة بسذاجة، إنني أعلم أنني أصبحت مطلوبًا، وإن لم يكن "أيمن" يعلم من قبل فالآن سوف يعلم، إن لم يكن من رؤسائه فسوف يكون من بعض من شاهدوني خارجا الآن من النقطة وقد قرأوا الجريدة مسبقا، أو علي الأقل عندما يفتح تلك الجريدة التي كانت أمامه. لذلك فأنا لم أتردد ولو لدقيقة واحدة عندما لمحت تلك الحارة الصغيرة على اليسار، والتي ما أن دلفت إليها حتى أخذت أعدو منها إلى غيرها حتى وجدت نفسي داخل منطقة المقابر أخيرا.

قال لي "سرور" ذات مرة أن الشرطة تعلم جميع خبايا تلك المقابر، وأنهم يدهسون كل شبر من أرضها، ونصحني ألا أتوجه إليها من قبل. لكني الآن لم أجد أمامي سواها. تلك المقابر فقط هي من تستطيع أن تحتويني بداخلها بعيدا عن العيون. لتلك الليلة فقط.. فلقد تأكدت الآن من أن ما يحول في رأسي منذ أن أصبحت لا أستطيع النوم بسبب تلك الحبوب التي أخذتها من "مندو"، وأن مفعول تلك الحبوب سوف يبطل معي مع انتهاء يوم غد. ربما حينما يزول مفعول المخدر من رأسي وأستطيع التفكير بشكل طبيعي، ستكون لي بعض الآراء التي تصلح ما أفسدته أنا عندما أصبحت بهذه الحالة. للحظة ظننت أن تفكيرني هذا هو عين المنطق. وفي لحظة أخرى ظننت أن ما أقوله هو عين الجنون، وأن المخدر هو ما يجعلني أقول هذا، وأنني من دون مخدر لم أكن لأقدم على فكرة مثل تلك مطلقا. وكيف تحدثت أنا عن نفسي وكأنني شخصين، وكيف سمحت لنفسي أن أفصلني عني دون أن انتبه أنا لذلك. كثرت الأفكار واختلطت داخل عقلي حتى كادت أن تدفعني لأن أحرّ ساقطا في الأرض لولا أن أحدهم قد أراح يده فوق كتفي فنبهني مرة أخرى. وصوت يقول:

ماذا هناك يا سي مديح؟ هل أنت ضائع في الطريق؟

إنه صوت "سرور"، وعندما يضحك يختلط بصوته صوت سيد الحانوتي،
أحاول جاهدا رسم ابتسامة على وجهي ولكن نصف وجهي فقط من أطاعني،
وكدت أن أفقد السيطرة على جسدي بالكامل لولا أنها أسنداني إلى جدار مقبرة
بالجوار. بعد أن تلاشت نصف ابتسامتي قلت بوهن:
ما الذي أتى بكما إلى هنا.

- سيد يا سيدي.

قالها "سرور" وهو يضحك كعادته:

- كان مصرا أن يجلس معي في صوان من التي تعرفها تلك.. التي نسهر بها سويا،
فاضطجعت به إلى هناك.. هو من لمحك من عند بادئ الطريق. فأتينا إليك مسرعين.

أعلم تلك السهرات جيدا، تكون في بعض المقابر، عبارة عن خيمة من القماش
بها بعض المقاعد والطاولات، وبها من الرقص والمغنى ما يكون بالأفراح والملاهي
الليلية، لكنه أكثر بؤسا، وغموضا وبغضا، مجموعة أخرى من الأشقياء قد تواروا
خلف ظهر الزمن هاربين من مصير الهلاك المحتوم، إما من الجوع أو من المجتمع، لم
يرحب بهم سوى الأموات ولم تستضيفهم سوى المقابر، حتى أصبحوا رجسا يحط
بالمقابر ويدنس طهرها. قبل أن يقول سيد:

- لم نمكث هناك كثيرا، لا يزال الوقت مبكرا.. كانت هذه الحجة التي قمنا من أجلها،
ولكن لتدبير ربك شيء ثانٍ.. لقد قمنا من أجل أن نلحق بك هنا.

ثم يضيف وكأنه يصف لي حلما:

- لكم وددت إحدى تلك السهرات في المساء، ولكن معك أنت يا سي مديح.. سمعت
أنهن يقدرنك كثيرا هناك يا عم الناس.

- نعم يقدرنني كثيرا.. مؤكداً أن "سرور" قد أخبرك.

كلماتي الواهنة جعلت سيد ينظر تجاه "سرور" ويقول:

- لنجد لك مكان ترتاح به.. ما الذي حدث؟
- لقد أخذت أجري من باب النقطة إلى هنا دون أن أتوقف.. وفجأة شعرت أنني أكاد أفقد الوعي.
- لا.. ألف سلامة عليك يا سيد الناس.
- تسلم يا سيد.. سوف ألتقط أنفاسي وأكون جيدا بعدها.
- لدي لك مكان للاختباء لن تجد مثله قط.
- يقولها "سرور" وهو يقبل أطراف أنامله. فأنتبه له على الفور، مع أنني لم أنسَ بعد المرة الأخيرة التي اختار لي فيها "سرور" موقع اختبائي. ها أنا ذا أبحث بعدها عن مكان أبعد للاختباء.. بعد قليل لن تصلح لي مصر بالكامل لكي أختبئ بها. إنها كارثة ولكني لا أستطيع أن أقدر حجمها، عقلي يخبرني أنها كارثة، ولكني لا أجد المقياس الدقيق بين مشاعري لكي أقدر به إلى أي مدى عليّ القلق.
- لم يكن عليّ هذه المرة أن أفعل شيئا سوى أن أتبع "سرور" إلى تلك المقبرة التي قال لي "سرور" عنها، الذي أشار بيده نحوها وهو يقول:
- تلك المقبرة
- هذه؟!!
- نعم.
- كانت عبارة عن سور كبير ارتفاعه يقارب الثلاث أمتار من الأحجار الجيرية القديمة والتي أصبحت هشة. لكن لا يستطيع الإنسان حساب عرضها بالعين المجردة، لقد كانت المسافة بين الزاوية التي أقف أنا بها، ونهاية السور مسافة طويلة جدا، وفي أثناء ما كنت أحاول حساب المسافة قال "سرور":
- هذه المقبرة لها هيبة كبيرة في قلوب العباد، إن بها مدافن جماعية لحوادث جماعية كسقوط طائرة أو اشتعال منطقة أو غرق عبّارة. يقول الناس عنها أهوالا، ويقولون أهوال أكثر

عما يشاهدونه بها في أثناء الليل.. صدقني يا مديح، حتى أفراد الشرطة يخشون تلك المقبرة.. ففي النهاية هم بشر أيضا.

- وطالما أن البشر يخافونها يا عم "سرور" فلماذا تريدني أنا أن أقتحمها، أليست أنا أيضا من البشر؟

- أنت تحتاج إلى ذلك أما باقي البشر فلا.

- أنت قلبك ميت يا كبير.

يقولها سيد وهو يربت كتفي.

- ليس إلى هذه الدرجة يا غبي.

- أنا لا أجد الأمر مخيفا إلى هذه الدرجة.. إن كنت مكانك لحمدت ربنا أنني وجدت مكانًا من الأساس.. واختبأت وأنا أضع في حلقي بلغة قديمة.

- كلام "سرور" سليم هذه المرة يا سي مديح.. أنا اتفق معه.

يقولها سيد وهو يومئ برأسه في اقتناع.

فأبدأ تسلق سور المقبرة وأنا لا أدري أن أم سعيد قد نشرت في جميع أنحاء المنطقة أنني أتحدث إلى الأموات، وأن العفاريت قد لبستني، وأنها من تتحكم بي الآن، ومن أخذ يقول إنني مخاوٍ للجن ولست ملبوسًا منهم، ومن أخذ يقول إنني ممسوس، وكثرت المسميات.. كل على حسب طريقته. ومن ضمن هؤلاء الذي وصل لهم الخبر، كانا أخوين عائدين من عملهما توقفًا بجوار سور المقبرة لتدخين سيجارة وتحدثوا بالأمر فسمعتهم، وعلمت انهم شاهدوني، أو شاهدا خيالي في الليل وهم يعبرون إلى الضفة الثانية من الطريق. حتي في هذا الظلام استطعت أن أشاهد خوفهم على انهم من هؤلاء الأولاد ذوي القلوب الميتة التي تسير في المقابر في عز الظلام والليل، كما كان يقال عنهم في المنطقة. وكان أحدهم قد ألقى من يديه كيسًا بلاستيكيًا يحمل بداخله ملابس عمله من كثرة الدهشة التي ارتسمت على وجهه

وأخيه وهو ينظر إلى وأنا أنزلق من فوق ذلك السور إلى الداخل مرة اخرى. ثم أخذنا
ما تبقا من طريقهما عدواً بأقدام عارية. وقد أصبح لديهم الآن قصة يكملون بها قصة
أم سعيد، ويوضحونها للناس على طريقتهما.

سماح

مع الساعة السابعة نظرت من النافذة بعدما سمعت صوت سيارة قوية، وتبعته عدة سيارات أخرى. إن لم أكن أخطأت السمع. من النافذة أجد ثلاثة من سيارات الجيب المموهة بألوان الجيش، وقد كتب عليها _الشرطة العسكرية_. يهبط منها عسكري طويل القامة لديه شارة حمراء عند ذراعه، ظاهرة جدا من ذلك اللون الكاكي الفاتح الذي يرتديه العسكري، يدور في المنطقة بنظرات حادة من أسفل الكاب القماشى، ويقف مع كل من يلتقي به قليلا، في يده صورة، وعلى ما يبدو أنها صورة لمديح، ويسأل عنه في جميع الأماكن، وبعد ما يقارب الساعة انتهى البحث ولم يسفر عن شيء. بعض الأكاذيب من السكان، وشهادة زور من بعضهم لمجرد حب الظهور، وفي النهاية ليس هناك أثر لمديح في بحثهم. وأصبح عليهم الانسحاب بأيدي فارغة.

لكن الحقيقة، والتي كانت تتحدث عنها المنطقة بالكامل والتي أعلمها أنا جيدا، هي أن مديح يختبئ في مقابر الصدقة، عند الطريق العام. وهذا المكان الذي لا يقوى على دخوله حتى من انتزعت قلوبهم من داخل أحشائهم. إنه حقا يتحدث إلى الأموات وبينه وبينهم اتصال كما تقول أم سعيد. لكن تلك الحقيقة لن يخبر بها الشرطة أحد، هذا على حد معرفتي بتلك المنطقة جيدا. إنهم عندما يتعلق الأمر بالشرطة يبتعدون تماما، ويقولون قولهم المعتاد "هل أنا ناقصني، ما بي يكفي ويفيض.. لا يزال ينقصني أن أدخل في "س" و"ج". بالطبع لا ينقصني." ولا يستجيب لأسئلتهم حتى لا يدخل نفسه في أمور لا تعنيه قد تعطله ولو ساعة واحدة فيقول لنفسه كانت أولى أن أنام بها، أو أجلسها مع الأبناء.

من واقع خبرتي في تلك الحارة والحواري المحيطة، فأنا أعلم أن مديح سوف يقبض عليه في النهاية، ولكن دون مساعدة السكان.. إلا إذا شعروا بأن شهادتهم سوف تؤدي به إلى الحبس لا محالة.. وقتها يستقون بالشرطة ويقول كل منهم عما بداخله، مجاملة للضابط فلان، أو الأمين علان.

أما الآن فهؤلاء الرجال المحترمين من الجيش سوف يعودون مرة أخرى خاليي الوفاض، وعليهم أن يرسلوا قوة كبيرة حتى يخشى السكان الصمت، وتجروا على الحديث. أتمنى لو أخبرهم أنا ولكنني أصبحت خصما لا يؤخذ بشهادتي. عليّ أنا أيضا أن أفكر قليلا في نفسي وفيما يتوجب عليّ فعله أنا أيضا.. إن عليّ العودة مرة أخرى للاطمئنان على حال زوجي، والتي من المؤكد أنه قد جدّ جديداً في الساعات الأخيرة في حالته. في المقابل أنا يجب أن آخذ حق زوجي بنفسي، وعليّ أن أدلي بكل ما أعرفه في تلك القضية وأتقدم به كبلاغ للنائب العام في محضر رسمي.

نظرت نحو هالة الراقدة فوق صدري فوجدت أنها قد أكملت رضاعتها وراحت في النوم، ومن ثم تحركت نحو الفراش لأضعها هناك ومن بعد أسرع في ارتداء ملابسني، وقبل أن أخرج أتجه نحو الوابور وأخذ بعض الأواني والصحون معي في كيس بلاستيكي، وبها بعض طعام قد أعدته مسبقا لـ"أشرف" عندما عدت إلى المنزل بعد ذلك اليوم العجيب الذي أعيشه، والذي جعلني أرثدي رداءً أسود اللون بالكامل حتى ذلك الوشاح الذي أتلفه به فوق هامتي كان لونه أسود، وقد انطفأ نور وجهي أمام المرأة وأصبح قاتم اللون، واحمرت جفون عيني من كثرة البكاء ولمعت رموشي الطويلة فوقها في حزن. فبدا وكأني في مأثم.

ثم لفحت ابنتي فوق كتفي وهبطت نحو الأسفل، وما أن أخرجت جسدي من الباب الخارجي حتى وجدت أمامي أحد الجنود يرتدي زي الشرطة ويعطي لي ظهره ممسكا بسلاحه بين يديه الاثنين، فتفاجأت في البداية ومن ثم أكملت أخطو فوق

درجات السلم، وهنا لمحت آخرين على امتداد اتجاهي الحارة، وبين كل جندي وآخر مسافة لا تتخطى الثلاثة أمتار. لقد شاهدت مثل هذا المشهد من قبل عندما كنت صغيرة، وقد حضرت الشرطة إلى المنطقة للقبض على أحد تجار المخدرات المشهورين في ذلك الوقت بالمنطقة، ولقد كانت ليلة لها العجب أيضا، حيث دوت في المنطقة أصوات سيارات الشرطة والإسعاف، وبعض مدرعات الجيش، وكل هذا من أجل القبض على هذا الرجل الذي كنت أناديه باسم عم "محمد السكران"، وكان يشتري لي الحلوة والعلكة من عند البقالة الخارجية بشارعنا. لم يكن سوى ذلك الرجل الطيب الذي لم أتوقع أبدا أن تغضب منه الشرطة لدرجة أن تحضر جميع رجالها من أجل القبض عليه، وسمعت وقتها أنه خطر جدا، وأشياء أخرى لم أكن أعلم أنها موجودة عند عم "محمد" ذلك الرجل الطيب البسيط صاحب الابتسامة الدائمة في وجهي.

هذه المرة أيضا قد حضروا من أجل أحد أحبه، وأكن له معزة خاصة لم أكنها حتى لزوجي والد ابنتي، وهو مديح.. ذلك الشاب الجميل الذي أحببته على الرغم من أن عمري أكبر من عمره بثلاث سنوات كاملة، والذي حلمت به، والذي تهجم عليّ أيضا ونعتني بأسوأ الصفات التي يمكن لرجل أن يراها في المرأة التي أمامه. لقد كسر قلبي وألهب صدري تجاهه بنار من الحقد والكراهية التي ليس لها حدود الآن. منذ اللحظة، ليس لي عدو سواه.

أهم لأتخطى درجة السلم الأخيرة وأصبح بمستوى الشارع ولكن صوت خشن وعالٍ استوقفني قائلا:

عودي إلى شقتك يا امرأة.. هيا دون حتى كلمة.

لم يكد يكمل عبارته حتى كنت فوق السلم الداخلي من الدار، وأتسلق السلم حاملة بيدي كيس الطعام وفي اليد الأخرى ابنتي، دون أن أدري كيف وصلت إلى

هنا، وأنا أنزل فوق الدرجات؛ التي لا تزال مبتلة بفعل المطر. وصلت غرفتي ألهث من هول الفاجعة، فأستند بظهري إلى الباب قليلا لالتقاط أنفاسي، ثم فتحته وألقيت بنفسي وابنتي فوق الفراش.

لم يمض سوى بضع دقائق حتى سمعت من الخارج صوتاً مهذباً يقول:

- السيدة أم هالة.. أنا الضابط "جمال الحوني".

- تفضل يا "جمال بيك".

قلتها وأنا أنتفض من فوق الفراش نحو الباب لأفتح له، فإذا به شاب أنيق، في زيه الرسمي ولديه علامة صلاة في هامته البيضاء ويحديق إليّ مبتسماً بعيونه البنيتين الحسنائين، ويطلب مني برفق:

- هل لي أن أتحدث معك لبضعة دقائق.

- هذا شرف لي يا "جمال بيك".. تفضل.

أقولها وأنا أفتح الباب على مصراعيه أمامه، وأتركه بعد أن يعبر مفتوحاً كما هو ثم أجلس فوق الأريكة التي بجوار الجدار الذي يحوي الباب والخزينة، وأقول:

- تحت أمرك.

- لن أطيل عليك يا أم هالة.. لقد أتيت لأتحدث معك حول الحادث الذي حدث صباحاً حينما اعتدى عليك المدعو.

ثم ينظر إلى بعض الأوراق في يديه ويقرأ لي الاسم من خلالها قائلاً:

- مديح مدحت مداح.

- حدث يا سعادة البيك.. كل ما سمعت به قد حدث.

ثم أجهشت بالبكاء بغتة وأنا أقص له الحكاية منذ أن لمحت مديح في الحمام وحتى تلك اللحظة التي نادى هو علي بها.

كانت ليلة أخرى لم تنم بها الحارة حتى الصباح، وكان ذلك من جراء عمليات البحث عن مديح، والتي استمرت حتى انتصف الليل دون أن تؤتي بشمارها، ولم يعثر أحد على مديح، ومما استغربته في الأمر أيضا أن أم سعيد قد أخبرتني، وأنا لا أعرف كيف استطاعت تلك العجوز أن تمر بين الجنود دون أن يزقق بها أحدهم، أو يصيح بها آخر. قالت لي: "إنهم أخبروا الشرطة بمكان مديح، وكما قال لهم الشبان أنه مختبئ في مقبرة الصدقة، ولكنهم فتشوها دون أن يجدوا منه شيئا، ولا أثر.. معجون من مياه العفاريت، لقد استطاع أن يختبئ وقتما أراد ويختفي وقتما شاء.. سحريا أختي سحر". لم تكن كلمات أم سعيد لتجد صداها لدي إلا في ذلك الوقت، والذي أصبحت أرى به العجب دون أن أسمع عنه مسبقا. لقد شهد "مندو" أمامي بأنه شاهده يتحدث إلى الأموات، وأم سعيد، وتلك المصادفة الغريبة أن الرجل الذي تذكر أم سعيد اسمه على أنه كان يتحدث معه يصبح ميتا هو الآخر ولم نكن نحن نعلم، هل حقا يستطيع أن يختفي من الشرطة بطريقة العفاريت والجن. بالرغم من عدم منطقية الأمر، إلا أنه ما كنت أشعر به حقا وأتساءل عنه بمنتهى الجدية، إحساس صادق بداخلي بأن هذا الشاب غريب، وليس طبيعياً كباقي البشر.

في ذلك الوقت الذي ظللت فيه أبحث عن طريقة للذهاب بها إلى زوجي، والاطمئنان عليه.. لم أكن أدري على الإطلاق أن "أشرف" قد استفاق من تلك الغيبوبة، وفتح عينيه.

أشرف

داخل قاعة الإنعاش بمستشفى أحمد ماهر العام أستفيق، أمام لافتة كبيرة وضعت أعلى زجاج شفاف يحيط بالغرفة بالكامل كما الجدران، وقد كتب عليها اسم المستشفى بنوع من الأوراق اللاصقة، وعلى الباب لافتة أخرى صغيرة كتب عليها القسم الذي أتواجد به. داخل تلك الحجرة البيضاء المليئة بالأجهزة إلى جوارى من الجانبين، ومجموعة متشابكة من الأسلاك تربطني بتلك الأجهزة بشكل مفاجئ، حتى إن عيني قد أخذت تتسع وتبرق في ذهول وأنا أحرق في تلك الحجرة المعزولة عما خارجها بزجاج عليه ستائر بيضاء. وما زاد من دهشتي هو رؤيتي لذلك الجندي بزيه الأسود الذي يحرس غرفتي من الخارج. أنظر باتجاه أريكة صغيرة تظهر من خلف الزجاج فأجد عليها إخوتي الثلاثة. لم أكن لأصدق أن ما كنت أحلم به قد تحقق قبل حتى أن أكمل الحلم، فلم يكن في بالي شيء آخر أنشغل به، وأحاول إيجاد الطريقة المناسبة له، سوى استدعاء إخوتي الثلاثة. أفضل التريث في إصدار أية ردة فعل. يزداد تركيزي حضوراً مع الوقت، وتستعيد ذاكرتي معظم الأحداث في سرعة. هذه المرة عليّ أن أفكر، بالطبع عليّ أن أفكر، كما لو لم أفعل من قبل، فهذه المرة تختلف. عليّ أن أسأل لماذا؟ لماذا أنا دون عن جميع خلق الله الذي يحدث له هذا، وأنا الإنسان الأكثر ابتعاداً عن الناس ومشكلاتهم على وجه الكرة الأرضية. إنني أخشى أن أظهر بين الناس كثيراً حتى لا أحتك بمشكلاتهم، وأتأشى كثرة الصحاب، وأحاول قدر الإمكان أن أجعل عالمي بالكامل داخل تلك الحجرة التي أعيش بها أنا وسماح وابنتي هالة.. "سماح"؟ ماذا تقول عني الآن؟ بماذا سأفسر لابنتي صمتي عما حدث وعدم قدرتي على أخذ حق والدتها عندما تكبر وتساءلني؟ لماذا خصني القدر

بمثل هذه المعضلة؟ واختارني أنا دون عن غيري ليضعني في هذا الموقف الذي لا مفر منه على الإطلاق!

كما تعلمت دائما من والدتي ألا أؤذي أحداً، أو أثقل على أحد، علمتني كيف لا أرفع يدي على أحد، أو أطلق العنان لقوتي فأصيب أحداً. كنت حينما أخرج للعب مع الصغار في طفولتي، ويضايقني أحدهم، فأفعل كما يفعل جميع الصغار وأضربه. كان أهله يأتون ليشكونني عند أمي، كنت أشاهد الأمر يحدث بين الصغار طوال الوقت، دون أن يشكي أهل أحدهم لأهل الآخر. أما أنا فلم تمر مرة واحدة بدون شكوى، وكانت والدتي بمجرد أن تتعرف على إصابات الطفل الآخر حتى تنهال عليّ بالضرب وهي تصفني بالثور. ليس هذا الوصف فقط الذي اعتدت منها عليه، بل كان هناك أيضا صفة الأبله، والتي كانت تنعني بها حينما أحاول عناقها كما يفعل أشقائي، وقد كانت تبادلهم العناق بأكثر منهم. أما أنا فكانت تنعني أولا بتلك الصفة ومن بعد تعانقني أيضا وتطيل عناقني، حتى إنني كنت أنام أحيانا، ولكنها في أوقات أخرى كانت تتحول إلى وحش له شكل آخر عما أعرفه حينما أضرب أحد أشقائي ولو على سبيل المزاح. كانت وقتها تضربني أكثر مما كانت تفعل عندما أضرب أحد أطفال الشارع كثيرا، وتسبني وتصفني بأبشع الأوصاف، وكانت أمّا مثابرة حقا، فقد ظلت على هذا حتى علمتني كيف أتحمّل ضربات الآخرين دون أن أبادلهم إياها. أو حتى أدافع عن نفسي، لقد أصبحت تلك هي مهمة أشقائي وليست مهمتي أنا.. علمتني كيف لا أغضب منها، وكيف أظل أحبها، وكيف أظل صامتا، وخائفا. ولكن أعتقد أن هذا يجب أن ينتهي الآن.

أنا لن أصمت هذه المرة.. لن يمر الأمر كما اعتادوا أن يمر. كان هذا هو قرارني النهائي والذي لن أفكر حتى مرة أخرى إن كان صحيحا أم لا. ليس لدي أي استعداد لكي أعطي الفرصة إلى نفسي لكي تتراجع عن ذلك القرار مهما حدث،

حتى وإن كلفني هذا السجن لما تبقى من حياتي القادمة، أو كلفني حياتي كلها. لم تترك لي الحياة خيارا آخر. ثم أترث قليلا لكي أعقل تلك الفكرة التي بدأت تتكون داخل عقلي، ومن ثم نهضت من فوق الفراش لأزِيل من فوق جسدي كل ما يربط بيني وبين تلك الأجهزة، وأتجه نحو الزجاج في خفة وأتسلل. عندما أفق أمام الزجاج لا أتحدث وأنتظر دون أن أهمس بأي صوت حتى لا ألفت الانتباه، وأظل واقفا لأكثر من عشرين دقيقة دون حراك، حتى استفاق شقيقي "محمد" فوق الأريكة التي يتشاركها مع أخويه، وبعيون مغلقة وحدقة حمراء أخذ يدور بعينيه في المكان لكي يعي أين هو، ومن ثم استقرت عينه على الزجاج الذي أفق خلفه تماما.

أخذت أشير له بالصمت عن طريق وضع سباتي فوق شفتي، ومن نظرات أخي تبين لي أنه قد فهمني. فأشرت له بأن يأتي إليّ سرا. ثم عدت مسرعا إلى فراشي وأخذت أحاول إعادة الأسلاك مرة أخرى إلى جسدي ولكني لم أعرف فتركتها. ثم سمعت صوت أخي وهو يهمس وشاهدته من الباب الزجاجي يقف مع الحارس. لم تمض سوى ثوانٍ وكان "محمد" يدلف إلى الغرفة وهو يصيح ببعض كلمات الشكر إلى الحارس وكأنهم أصدقاء منذ الطفولة. لطالما كان الشقيق الأكثر ذكاء بيننا.

أشير له لكي يقترب مني، وأهمس له:

- هل عرفتم أين هذا الولد؟
- لم يغيب عن عيننا منذ أن علمنا بما حدث.
- أين هو الآن؟
- أين هو تحديدا فأنا لا أعلم، ولكن المعلومة الأخيرة التي أحضرها لي الولد "موزة" الذي يعمل لديّ هي أنه مختبئ داخل مقبرة الصدقة، عند الطريق العام.
- وهل "موزة" يتبعه إلى الآن؟
- بالطبع.. إنه لم يغيب عن ناظري منذ حدث ما حدث.

"بالطبع" ترددت الكلمة في عقلي وأشدد على تلك المعلومة، وهي أنني أصبحت أعلم أين هو مديح. يتبقى لي أن أعرف كيف سأخرج من تلك الحجرة، وهذا الحارس يقف خلف بابها. وكانت الإجابة الأولى التي تلقيتها من عقلي هي أنه هكذا أم هكذا فأنا سوف أدخل السجن لا محالة. لماذا لا أضرب الجندي بالمرة، وأهرب؟ ففي النهاية أنا أمضي لارتكاب جريمة قتل، ولن يضرني في شيء إن أضافوا إليّ تلك الجريمة، الاعتداء على مجند في أثناء تأدية وظيفته. لكن ربما ضرب هذا الجندي يعرقل مسيرتي لإيجاد مديح. فأنا إن لم ينتبه لي أحد وأنا أخرج، وإن لم تأخذ الشرطة خبراً لأكبر وقت ممكن. فلن يكون لدي الوقت الكافي للوصول إلى مديح. إن شقيقي قد أرسل من يتبعه، ولكنه لا يتلقى منه المعلومات سوى كل بضع ساعات. هذا يجعل الأمور عائمة قليلاً وغير مستقرة. مؤكد أن الشرطة ستصل إليّ قبل أن أصل أنا إلى مديح.

الشرطي..

الحل بالكامل يكمن في الشرطي..

يجب أن أذهب دون أن يراني الشرطي، وهنا تهب إلى عقلي الفكرة الأجل.. لماذا لا يراني الشرطي، لكن الأهم هو أن يقول أنه لم يشاهدني. المهم أن يقول إنني لم أخرج من باب الغرفة مطلقاً، والأفضل هو أن يقول إنني لم أستفق من غيبوبتي على الإطلاق، فأسأل شقيقي:

- هل أخبرت الجندي أنني أفقت؟
- لا، قلت له إنني سوف أطمئن عليك من بعيد.
- عندما رشوته لكي تمر من الباب أكان سهلاً أم صعباً؟
- لا يا رجل.. لقد كان لدينا كما الملبين.

- اسمعني جيدا.. سوف نقوم بفعل أمر لم يخطر على بال أحدنا من قبل، ولكنه هو الأمر الأسلم، الذي يسلم رقبة شقيقك من الموت.
- رقبتي يا أخي.
- يقولها محمد وهو يضرب عنقه بيده.
- سوف تحاول رشوة ذلك الحارس لكي يتركني أخرج من هنا، وأعود مرة أخرى، وأن يشهد أنني لم أخرج ولم أدخل.. تفاوض معه إلى أن تصل إلى خمسة آلاف جنيه.. فأنا لا أبالي بكم يأخذ.
- تتسع عينا "محمد" في دهشة:
- خمسة آلاف جنيه؟! من أين لك بمبلغ مثل هذا يا أخي؟
- افعل كما أقول لك، ليس هناك وقت للأسئلة الآن.
- سوف أحاول.
- هل تظن أنه سيقبل؟
- على ما شاهدته منه عندما طلبت رؤيتك؟ أظنه سيقبل.
- إذن فلتحاول معه على الفور.
- هم "محمد" لأن ينهض لكنني أستوقفه مرة أخرى عندما جالت في عقلي فكرة أخرى. أقول:
- انتظري يا "محمد".
- ماذا هناك؟
- عليك أولاً أن تفعل شيئاً هاماً أيضاً.
- ما هو؟
- سوف تصبح الآن طالبا طبيياً، وعندما تحضر الممرضات سوف تقول إنني أفقت لثوانٍ قطعت تلك الوصلات من فوق جسدي، ليس هناك أطباء الآن، وستعيد الممرضة

المسئولة عن الطابق الوصلات إلى مكانها، وربما لا تنتبه إلى أنني قد أفقت، إذا حدث هذا سيكون جيدا جدا، ولا تخبر أحدا إنني قد استفتت على الإطلاق حتى أشقائك.. أريدك أن تشاهد الممرضة كيف ستعيد تلك الأجهزة إلى جسدي وتتعلم منها هذا جيدا.. لا أريدك أن تنسى حتى حركة تقوم بها.. هل تفهمني يا "محمد"؟

- كما تريد.

- هيا يمكنك الآن أن تطلب المساعدة.

- أقول لك.. لا تقل إنني أفقت، فقط قل إنني تقلبت قليلا فسقطت من فوق الفراش، وتقطعت الأسلاك عن جسدي، وبهذا سوف يعيدون الأجهزة دون أن يستدعون الطبيب، لأن الوقت الحالي لا يكون هناك عدد وافر من الأطباء. والمتواجدون سيكونون في الاستقبال. وهذا يضمن نجاحنا لأقصى درجة.. لكن الأهم أن تتعلم كيف سيعيدون تلك الأسلاك بالضبط، كي تعيدها مرة أخرى لي إذا استطعت الخروج والعودة في سلام.

سماح

ظللت راقدة فوق نافذتي حتى الثانية صباحاً، لا أفهم ما هذا الحظر المفروض على الحارة بالكامل من أجل عملية بحث عن هارب، أو عن مجرم. لم آخذ إجابة عن أسئلتي سوى بعد نصف ساعة كاملة، وسمعت بعض الضباط يتحدثون وتدخل بعض السيارات إلى الحارة فأنهض لأعود مرة أخرى إلى النافذة وأجد أن الشرطة تنسحب من المنطقة. داخل سيارتهم ذات الصندوق المرتفع، وتتجه صوب المقابر لكي تلتف حول حارتنا متجهة إلى الطريق العام. فليس لهم طريق بديل عن هذا بتلك السيارات الكبيرة.

هل عليّ أن أذهب إلى "أشرف" الآن.. يجب أن أفعل، ولكن لن أجد حتى وسيلة مواصلات لتوصلني إلى المستشفى الآن. ربما عليّ انتظار الفجر. عند بداية حركة المواصلات سوف أتحرك، وسوف أذهب إلى زوجي مع مطلع النهار لأطمئن على حاله، ولذلك فأنا لن أنام وسأظل على حافة النافذة أنتظر.. فأغفو.

أنتفض عندما يمر من أمام النافذة عم حسنين الحلواني، داعياً الناس إلى الصلاة، وأخذ ثواب من أيقظه للصلاة، قبل أن يأخذ ثواب الصلاة نفسها. صوته القوي يسبق صوت الأذان بنصف ساعة كاملة. ورحل بعد أن أيقظ كل من في الحارة تقريباً، قبل أن تعود إلى هدوئها مرة أخرى عندما اختفى عند الملف الضيق. من الشارع المقابل ألمح من بعيد ظلاً لرجلين، يقتربان بعيداً عن أضواء ذلك المربع المضيء المعلق فوق المنزل القديم في الشارع المقابل لنافذتي. ظلال تتحرك في تسلسل وهمس وريية. أستقيم بوجهي لكي أستوضح الملامح، ومع اقتراب تلك الأجسام أجد أن أحدهم هو "أشرف" .. زوجي.

تكاد الفرحة أن تخلع قلبي عندما شاهدته وهو يتحرك سالما فوق قدميه، وليس به أية إصابات، لقد عاد "أشرف" إليّ من الموت، وهانت عليّ كل المشكلات. لا أدري لماذا؟ لماذا أشعر تجاه أشرف بهذا الشعور.. إنه مجرد رجل تقدم لخطبتي فوافقت، وبعدها وافقت سألت نفسي ألف مرة لماذا فعلت؟ ولم أتلّق الإجابة، ولم أكن أفهم لماذا لم أتزوج من رجل آخر، رجل أعجبني، ولماذا بعدما تزوجته وعلمت ما الزواج، ورأيت تلك الحياة، ورفضتها من كل قلبي، فلم تكن هي أفضل حياة، ولم يكن أشرف هو أفضل رجل، ولكن أيضا أنا لم أكن أفضل سيدة. نعم.. بالطبع أنا لست أفضل سيدة، ومثلي كثيرون، ترددت أصواتهن من حولي كثيرا، وهن يصرخن استغاثة من رجل وبخهن أو ضربهن.. لا أفهم لماذا تأتي علينا تلك اللحظة ونحن نتحلى بكثير من الصبر، لماذا تنام إحدانا بجوار زوجها وهي لا تحبه، بل ربما بعضهن يَكْنُ بجوار رجال لا يعرفوهن. يكتشفن كل ليلة رذيلة جديدة تستحق الصبر عليها ويصبرن.. لماذا يصبرن؟ لماذا ينظرن في عيون رجالهن في اليوم التالي وكأنهن يتطلعن بوجه حسين فهمي؟ لماذا تستمر الحياة بدون ردة فعل تتخطى العتب، أو الرضا دون عتب. كل هذه الطاعة، وكل هذا الانصياع من أجل ماذا؟ أهذا من أجل الثلاث وجبات اليومية، أم من أجل ماذا؟ مجرد سنة الحياة.. الحياة التي لم أفهمها أبدا. الحياة التي تجعل كل فتاة تأخذ موقعها في الصف، وتعيش الطبقة التي اختارتها لها دون اعتراض.

أتحرك نحو الباب في سرعة وأفتحه على مصراعيه ومن ثم أركض نحو الأسفل، وأتجه إلى مدخل البيت فأجد "أشرف" يحتضني ويهمس لي وهو يضع سبابته فوق شفتيه بأن أصمت. ويكتم أنفاسي بيده وهو يقول هامسا: لن تحدث بالأعلى.

- أصعد أمام "أشرف" و "محمد" شقيقه إلى الغرفة، وأغلق النافذة بعد أن أشار لي محمد بذلك. أجلس أعلى الأريكة، وأقول:
- كيف خرجت.. حمدا لله على سلامتك أولا؟
- أنا لم أخرج.
- كيف هذا؟!
- كما سمعت بالضبط. أنا لم أخرج، وأنت لم تشاهديني. أحضري لي النقود من أعلى الخزانة.
- لن أفعل شيئا قبل أن أفهم ما يحدث.
- لا تكون رأسك صلبة وافعلي ما أقول الآن.. فليس هناك وقت.
- لن أفعل، وإن لم تقل لي كل شيء بالتفصيل سوف أقول إنك هنا لكل الدنيا.
- ينهض "أشرف" عندما لمح نبرة صوتي ترتفع، وأمسك فمي بيده وهو يقول:
- ماذا بك يا امرأة لقد جئت لأخذ حقنا.. هل تريدني أن أترك حقك؟
- لا.. لا أريد ذلك، وإن لم تأخذني حقي لن أبقى على ذمتك ولو دقيقة.
- لا أعرف لماذا أقول له هذا، إنني أعرف جيدا أي منذ وهلة فقط لم أكن أتمنى شيئا من الدنيا سوى أن أشاهده واقفا على قدميه أمامي، لماذا الآن أدفعه نحو الهلاك مرة أخرى بيدي، أهي طبيعة النساء.. أم أنه ما يجب أن يكون، وأنا من تظهر قوة من أجل أن ترى العدالة، وما أستحقه من كرامة بين الناس. ربما هي كلمات والدي، عن كيف يجب أن أكون قوية.
- يقول "أشرف" في استسلام:
- إن محمود راقد بدلا عني في المستشفى الآن، ولا يجب أن يعلم أحد أنني خرجت منها.
- ولماذا كل هذا؟

- حتى إذا وجدت ذلك الكلب وقتلته تكون لدي حجة غياب أمام النيابة، ولا أتهم في قتله.

ينقبض قلبي فأبحث عن شيء يوقفه:

- وذلك الحارس على باب الغرفة بالمستشفى؟

- تلك النقود من أجل ذلك الحارس.

- وهل أنت ممتلئ اليد منه.

- لا تقلقي، أنا أثق بالمال أكثر من ثقتي في أي إنسان، صحيح أنه لم يقبل سوى بسبعة آلاف جنيه كاملة، ولكن ليست خسارة به. بعد العملية الكبيرة سأعوض الأموال، سيقوم بها "محمد" غدا بديلا عني، ولكن كرامتي لن تعوضها له أموال الدنيا كلها. لكنني أيضا استطعت أن أجعل الاتفاق على نصفين، أحدهما قبل والآخر بعد، وطالما أنه طامع في باقي المبلغ فلن يغير كلمته لي أبدا، وإلا لذهب هو الآخر في داهية قبل مني.

في استسلام أقول:

- يبدو أنك رتبت كل الأمور.

- لا تقلقي.. سيكون كل شيء بخير.

أصبح "أشرف" الذي لم يكن يفكر حتى في نوعية الطعام الذي يأكله يفكر ويخطط، وينفذ أيضا بمفرده، ما كل هذا التحول في شخصية الرجل.. هل صنع منه الموقف رجلا جديدا؟ فأسأله حتى أريح ضميري:

- "أشرف".. يمكننا أن ننسى الموضوع، ونعيش بعيدا عن المتاعب.. يمكننا حتى أن نغادر المنطقة بالكامل ونسكن مكانا آخر.

- لم يعد هذا بمقدورنا لقد فات الأوان. الأمر ليس اختيارا الآن.. الأمر أصبح حتميا.. أنا لم أفرضه، على العكس.. لقد ظلت طوال حياتي بعيدا عن كل المتاعب من أجلك

ومن أجل ابتكك، وحاولت قدر الإمكان ألا أجلب إليكم سوى كل سعادة وطمأنينة، ولكن الدنيا لم ترد هذا مني، فهي لم تعطني المال إلا عندما وضعت يدي في أيدي تجار المخدرات، إنهم أصحاب الأموال الحقيقية، ولم تجعلني أعيش في سلام وأن أنعم بزوجة جميلة، وظلت هي وكل من حولي يستكثرون هذا عليّ، ولكم سمعت إهائتي بأذني مرات ومرات، وأتغاضى عنها وأمثل أنني لم أسمع، ولا أجيب، كل هذا من أجلكم.. أما الآن فلا. انتهى هذا الأمر إلى الأبد.. سوف أجعل جميع الناس ينحنون ويبعدون أعينهم خوفا حينما يروني، سأجعل من ذكر اسمي رعبا في داخلهم، وسأجعلهم يحملونني فوق أعناقهم ورءوسهم رغما عنهم. لا يستحق مني هذا العالم سوى هذا، وإما أن أفعل هذا أو أموت وأرتاح وأريح من حولي من همي.

ما يقوله "أشرف" صعب الاستيعاب وتسارع الأمور أقوى من أن يترك لي فرصة لكي أقرر ما الصواب وما الخطأ، كل ما أعرفه أن بداخلي إحساس شبيه بما يشعر به "أشرف"، بأنني قد فاضت بي الدنيا، وزهدت تلك المعاملة، وعليّ أن أضع حدا لذلك.

مديح

ينغصني قلبي قليلا، وتصدر أمعائي بعض الأصوات، وعصارة معدتي تضغط عليّ حينما شعرت بأن هناك تقلب عجيب في المعدة، وأن ما بداخلها أخذ يفيض باتجاه الأعلى في تسارع وقوة حتى بلغ الحلق، فأخذت ألفظ ما بجوفي في تقزز وألم مجتمعين عند الحلق، كلما حاولت التخلص من هذا الشهيق ذي الرائحة الكريهة بزفير قوي، وقتها تقع عيني على شيء أكثر تقززا فأشهب مرة أخرى، ويزيد فوران معدتي وتنضح بما فيها. مع هذا فأنا لم أفقد عقلي حينما رأيت هذا المشهد، حينما دلفت إلى مقبرة الصدقة، وشاهدت تلك الفجوات الكثيرة المفتوحة في الأرض التي تفرز رائحة كريهة وغير محتملة. أرى أن المشهد أكثر قوة مما كنت أتوقع، لقد كانت داخل تلك الفجوات أكوام مكومة من العظام التي يرجع أصلها إلى الإنسان. وكأنها عدة مقابر جماعية، ألقى بها ما يفوق احتمال كل فجواتها. فظهرت من فتحاتها تلك "الجوالات" التي وضعت بها العظام وقد اهترأت وتقطعت، وظهرت من أسفل نسيجها العظام _ الهيكل العظمي بجميع أجزائه _ بشكل خيف ومهيب. من المؤكد أن تلك العظام قد حضرت مجمعة بهذا الشكل، ربما عن طريق تلك الحوادث الشنيعة التي تجعل من الإنسان مجرد أشلاء، ولكن تلك أشلاء جماعية. لا يقوى على رؤيتها القلب.

لم أستطع احتمال هذا المشهد، حتى وان كنت مغيبا كما أصبحت أعلم الآن، وخاصة بعدما تركني "سرور" وسيد. مقتنعين أنني سوف أبقى هنا إلى الأبد. لكنني قررت أن أغادر ذلك المشهد المريع الذي لا يمكن أن يحتمله بشر أيا كان، بعض

الفتحات الصغيرة تظهر ما تحتها من جثث داخل أكفان ذائبة مع الرمال الناعمة التي تملأ هواء المقبرة. تظهر رطبتها في أنفي. فأتجه نحو السور وأتسلق، وحينما صعدت نحو الأعلى وجد كثيرًا من سيارات الشرطة ذات الصندوق المرتفع تدخل إلى المنطقة من الخلف وسط المقابر المحيطة بالمكان بالكامل، وفهمت من ذلك أن لدخولهم مغزى واحد فقط، وهو البحث عني.

لذلك قررت الابتعاد قدر الإمكان، واخترت الطريق العام كطريق للهرب، وهذا لأن أحدا لن يخطر بباله أنني أتخذ الطريق العمومي كمهرب لي، والسبب الثاني هو أن الطريق العمومي على كثرة وجود السيارات به، إلا أن بعض الأماكن التي تحيط بها المقابر من كل مكان به؛ تكون خالية تماما من المارة، وكأنها صحراء جرداء. لذلك فأنا إن استطعت أن أسير خلف أعمدة الإنارة، لكيلا تلقي بضوئها عليّ وتتضح ملاحبي فإنني بذلك سأستطيع عبور مسافة لا بأس بها من خلاله، وربما استطعت أن أصل إلى المنطقة الجارة لنا من هذا الاتجاه.

قابلتني كثير من العقبات في أثناء محاولتي تخطي الطريق العام إلى منطقة المقابر المجاورة، وتذكرت تلك الصورة الهلامية التي تحتل رأسي عندما نظرت من أعلى السور ورأيت سيارات الشرطة، وعاتب نفسي أنني استخدمت الطريق لمسافة قصيرة فقط، وقد وجدت عددًا وافرًا من الجند يمشطون المكان في كل اتجاه، ويذهبون ويعودون، وظللت أنا أحاول الهرب منهم طوال الليل، يقتربون فأبتعد وابتعدون فأقترب حتى تحطت الساعة الثانية والنصف، ولم يعد لهم وجود في المنطقة على الإطلاق، ووجدت نفسي وقد أصبحت داخل مقابر المنطقة المجاورة لمنطقتنا. مكان لم تطأه قدمي من قبل.

فنحن على الرغم من أن المقابر تحيط بمنطقتنا من كل اتجاه، وأعرف أنا معظم تلك الطرق التي تمر داخل المقابر لكونها منطقتي، إلا أنني من الصعب أن أجد من

يعرف مقابر المناطق المحيطة لهم، سوى عدد محدود، ولا أدري الأسباب التي جعلتهم يعرفون ذلك. فمعظم سكان المنطقة يرتبطون بالأماكن المحيطة بهم عن طريق المواصلات العامة، أو على الأقل عن طريق الطريق العام إذا كان أحدهم يملك سيارة، وهذا لبعد المسافة بين المقابر وبين كل المناطق المحيطة بهم، ولهذا فإن جميعهم يصلون إلى المكان الذي يريدونه خارج المنطقة عن طريق المواصلات وليس عن طريق السير على الأقدام بين الشوارع الجانبية. وأيا كان طلبهم الذي يقضونه من خلال ذهابهم، فإنهم يقضونه ويعودون دون أن يتجولوا هناك وبالأخص في المقابر. لذلك فأنا للمرة الأولى أشاهد ذلك الشارع الذي أمر من خلاله، وأتعرّف عليه.

لا يوجد على امتداد الشارع بالكامل من أوله حتى آخره، وقد بدا لي أن امتداده قد تخطى الكيلو متر؛ سوى اثنين من أعمدة الإنارة فقط، والتي تظهر عند نهاية الطريق ولا أشاهدها من مكاني هذا. ما تبقى أمامي من الشارع مظلم وقاتم، ورائحة الموت تعبق المكان القديم. صوت عواء الكلاب من جميع الاتجاهات لا يتوقف. صوت متقطع يأتي من بعيد، فيجيب عليه كلب آخر من مكان آخر، وهكذا.

بعض المقابر الفاخرة التي بنيت في عهد البيك والباشوات تظهر بجواري على فترات فتلتقط عيني اسم فلان بك أو علان باشا بجوار كلمة "مدفن عائلة" بصعوبة بالغة في وسط ذلك الظلام، والذي اعتادت عليه عيني تدريجيا، ومع ذلك فلقد اضطرت إلى أن أتوقف في بعض الأوقات حتى أستوضح تلك الأسماء التي قرأتها جميعا، ونسيتها جميعا أيضا بمجرد أن مررت من أمامها. أشعر أن هذا بسبب الملل الذي أعيش بداخله من بداية الليل، الذي لا يمضي.

لقد نصحني "سرور" قبل أن أتركه مباشرة؛ بأن أبقى هاربا قدر المستطاع، حتى أستفيق من مفعول ذلك المخدر الذي أصبح واضحا جدا عليّ. ومن هنا اقترح

عليّ أن أبقى ليوم آخر أو يومين بعيدا عن العيون، وعندما أسترّد عقلي سأعرف كيف أتصرف بالتأكد. لهذا فلن يضرني أبدا أن أسير قليلا على قدمي لليلة أخرى، وربما وجدت مقبرة صالحة لأن أرقد بها إذا لزم الأمر لذلك، وعندما يعود لي عقلي.. سوف أتحلّص من كل ذلك إن شاء الله.

يلوح لي من بعيد وقد أصبحت تلك الأعمدة المضيئة أقرب وواضحة المعالم. إن هناك شيئا قد تكوم على نفسه أسفل أحد الأعمدة، فأتخذ حذري مع كل خطوة أقرب بها منه، وفكرت في أن أدلف إلى طريق جانبي ظَهَرَ على يساري، ولكني أراجع عن ذلك حينما وجدته زقاقًا صغيرًا ويبدو أن نهايته سُدَّتْ بأحد المقابر. فعدت لأقرب حتى اتضح لي أن ذلك الشيء ليس سوى رجل.. حينما أقرب أكثر وجدته رجلاً كبير السن، يضع فوق رأسه قبعة بيضاء من تلك التي يرتديها المشايخ في المساجد. ويرتدي جلبابًا لونه بني فاتح به كثير من الحروق بسبب الفحم الذي يستخدمه مثله من كبار السن في شرب الشيشة. كأن الرجل هبط من فوق فراشه إلى الشارع مباشرة، دون النظر إلى نفسه في المرآة.

عندما يسمع خطواتي ينظر الرجل لي دون أن يرفع رسه من فوق ساعده الذي أسند إلى عمود الإنارة. فأقرب منه أكثر وألمح فوق عين الرجل نظرات تفحص تزداد كلما اقتربت وكأنه لا يستطيع رؤية الأشياء البعيدة، وهذا أيضا طبيعي لمن هو في مثل عمر ذلك الشيخ.

أقرب من الشيخ وأنا أقول:

- هل تحتاج إلى شيء يا حاج؟
- وهل لا تحتاج أنت؟
- أقصد شيئا أساعدك به.
- حتى أنت تبدو لي محتاجًا للمساعدة.

- هذا حقيقي.
- إذن فأنا أيضا أحتاج لمساعدة. كما بحث لي بسرك.. أبوح لك بسري.
- أضحك:
- لكن لماذا رجل بمثل عمرك في هذا الوقت من الليل يجلس في هذا المكان، وبهذا الشكل.
- أما عن المكان فأنا لا أخشاه.. أنا نشأت بين تلك الجدران، ولعبت بين أحضان الأموات. أما عما أتى بي إلى هنا فهذه حكاية طويلة. أما عن الشكل، فالشكل دائما خداع يا بني فلا تجعله يخدعك أبدا، فمن أمامك هذا قد ذاق من الدنيا ما لم يصل إليه أكابر الناس.
- هذا ظاهرا عليك يا والدي.. لا تغضب مني لقد قلتها بعفوية، وغرضي الوحيد هو مساعدتك.
- تساعدي؟! في ماذا أم في ماذا؟!
- فيما تحتاج.
- لا أحتاج إلى شيء إلا وسألت الله وانتظرت أن يجيب فقط.. حتى الآن، هل تعلم أنني قد تمنيت أن أقابلك الآن فقابلتك؟
- تقابلني أنا؟
- وكأنه جاهز بالإجابة من قبل:
- لا، ليس أنت تحديدًا.. أقصد أنني تمنيت من الله أن يرسل لي من أتحدث إليه ويتحدث إلي.. فلقد كنت على هذا الوضع منذ ساعات، منذ ساعات وأنا وحدي.
- أتمجّه للجلوس بجواره فوق ذلك الرصيف الذي يبرز منه عمود الإنارة وأنا أقول:
- لم تعد الآن وحدك.

- اسمي محبوب.
- اسمي مديح.
- هل تعلم يا مديح أنني قد تزوجت ثلاثة نساء.
- يبدو عليك ممن يحبون النساء يا عم محبوب.
- لا يا ولدي، أنا لم أتزوجهم من أجل الحب أو حتى الأسرة وما إلى ذلك. المشكلة هي أنني قد عشقت الدنيا وارتبطت بها.
- وما العيب في ذلك؟
- هناك عيب يا ولدي.
- ما هو؟
- أنك تصبح في بعض الأوقات أكثر خوفاً، أكثر حرصاً على حياتك.. أكثر إصراراً على الحياة، وعندما بدأت الحياة العملية، وجدت أن الله يبارك لي في رزقي كلما كان أحدهم مرتبطاً به معي. ولذلك فكنت أخرج منه كثير بصفة مستمرة وثابتة، حتى أصبح من أعطيهم يتكلمون على تلك الأموال أن تأتي لهم في ذلك الموعد بالضبط، ووجدت أن الله لم يخذلني معهم ولو مرة.. وهنا اعتقدت أنني أستطيع أن آخذ أكثر طالما أنني آخذ وأعطي، ولذلك تزوجت المرة الأولى اعتقاداً مني بأن حياتي ستطول عندما أنجب أبناء وأعطي لهم من روحي، وعندما ضاق بي الحال لم أستسلم لضائقتها، بل تزوجت بالمرأة الثانية. كانت الأولى في ذلك الوقت قد أنجبت لي ثلاثة أبناء. وأنجبت لي المرأة الأخرى بنتين. وعندما فرجت من عند الله مرة أخرى مع الزوجة الثانية، اعتقدت أنه كلما زادت مسؤولياتي في الدنيا ودام عملي فلن يقطعه الله من الأرض، ولذلك أثقلت على نفسي بيت ثالث. فأصبح عندي أربع أولاد من الأولى وبتتان من الثانية وثلاثة أبناء وفتاة من الثالثة.

يزدرد محبوب لعبابه وهو ينظر نحو الأرض في شروود وهو يضيف:

- وسط مشقة الحياة تعبت، وكاد الحمل يقسم ظهري، ومع ذلك كان رزق ربك كبيراً،
إن كنت وزعته على امرأة واحدة لكانت تسكن الآن في قصر، وعندما أفقت في أحد
السنوات وجدت أنني شقيت وتعبت بقدر أربعة رجال، وأني صرفت على هؤلاء
النسوة وأبنائهن ثروة طائلة تقدر بالملايين، ولكن أنا لم آخذ منه سوى رزقي فقط. حتى
وإن كنت أربح مليون جنيه، فكان يذهب كل جنيه منه إلى مكانه وإن كان ليس
مقسوماً لي سوى بمائة جنيه واحدة، كنت أجدها هي ما تبقى في النهاية، وعلمت أنني
قد شقيت وتعبت للآخرين، ولكنني لم أندم. ونظرت حولي فوجدتهم كبروا،
وابتعدوا عني.. كما تعلم تلاهي الحياة.. كل منهم أصبح له منزله وعائلته.

يصمت الشيخ قليلاً، ثم، وكأنه يترجى، يقول لي:

- هل لنا أن نمشي معاً قليلاً.

أجيبه على الفور:

- بالطبع.

نهض الرجل ونفض بعض الأتربة من فوق جلبابه وأخذ يسير أمامي وأنا
أتبعه. حتى استطرد الشيخ قائلاً:

- لقد أنساني تعب الحياة وثقلها الطلب الرئيس الذي طلبته من الله، وهو أن أرتكز على
بعض حتى يطول عمري بطول عمرهم، وحينما أفقت في النهاية وجدت أن ذلك قد
حدث، فها أنا أمامك الآن عشت حتى رأيت آخر زوجة لي وهي عجوز، ورأيت من
جميع أبنائي أحفادا. ومن كثرة ما نسيت ذلك الطلب كنت أتمنى من الله أن يأخذني،
ومن كثرة هموم الدنيا أطلبها مرات ومرات، ولكنها لا تأتي. حتى إنني ظننت أن الله لم
يعد يلبي لي طلباً. لكنني منذ أيام فهمت لماذا مد الله في عمري لكل هذا، مع أنني قد
سألته كثيراً. قلت له: يا رب، لقد أطلت في عمري حتى أصبح كل من حولي لا
يحتاجني في شيء، ولم أعد أنا بحاجة للدينيا في شيء. لكنه مع ذلك لم يأخذني.

- ساحني يا عماء. على الرغم أن ما تقوله ليس منطقيا بالنسبة لي فأنا لا أراك كبيرا إلى هذه الدرجة.
- أنا أبلغ من العمر ثمانية وتسعين سنة.
- لقد كانت حقا مفاجأة بالنسبة لي. إن الرجل لا يظهر أكبر من الستين سنة فقط.
- لكن لماذا سيكذب الرجل، ثم أتذكر ما كان يقوله الشيخ فقلت:
- وما السبب الذي عرفته يا سيدي؟
- السبب هو أن هناك من لا يزال يحتاجني.
- بفتنة أسأله:
- أحد أبنائك؟
- أعزهم على قلبي.
- هل في الأبناء من هو أعز من الآخر.
- دائما ما يميل قلب الأب في البداية نحو الطفل المنجذب له أكثر، ومن ثم يميل تجاه أكثرهم نجاحا لجعله فخورا، أما في النهاية فلا يميل سوى لمن كان أضعفهم، وأكثرهم حاجة إليه.
- وهذا هو أكثرهم حاجة إليك.. لذلك فأنت تميل له أكثر.
- بالضبط.
- وما مشكلته؟
- في الحقيقة أنا من وضعته في تلك المشكلة.
- أنت؟
- نعم أنا، لقد كنت أجد به طاعة كبيرة تجاه أي شيء أقوله له، ولقد أخذت أغذّيه بأصلح النصائح حتى كبر وهو شاب طيب، ومكافح ويسير بجوار الحائط، ولكن إخوته لم يتركوه بحاله. لقد جاروا على حقوقه، واستغلوه، وفي النهاية طردوني من

منزلي، وقالوا لي ألا أعود بعد الآن مرة أخرى حينما حاولت الدفاع عنه، فلقد كان ذلك الشاب هو المعين والسند لي. والجشع والحقْد والتنمر قد أعمى عيون إخوته.

هل طردوك؟

ليس بالمعنى الحرفي يا ولدي، ولكنني لم أطق أن أشاهد ما يفعلوه بولدي، وأنا قليل الحيلة. فذهبت عنهم، وليتني أستطيع أن آخذه معي. لقد حبسوه داخل.. داخل.. داخل نفسه قبل أي مكان آخر.

أنا أعيدك إلى دارك الآن غصب عن جميع أبنائك.

لا أستطيع. أنا يا ولدي لن أدخل إلى بيتي وكرامة ولدي أسفل أقدام إخوته، إنهم يدهسون بنعالهم رقبتهم، وأنا لا أستطيع فعل شيء له. ثم إن أعدتني أنت فماذا أفعل بعدما تمضي، وماذا يكون مصيري بين أيديهم دونك؟

هل تركتهم يفعلون كل هذا بك وبولدك؟

وهل تعترض العقوبة يا ولدي حينما يأكلها صغارها؟!

وكيف يمكنني مساعدتك يا حاج؟ أستطيع أن أخلص ولدك من بين أيدي إخوته إن طلبت هذا مني، وإن كان هو يستطيع حمايتك.

لكي أطلب منك شيئاً.. فعليك أولاً أن تطلب مني شيئاً.

أنا لا أحتاج لشيء.

ثم نظرت إلى هيئتي ولمحت كل ما أحمله من أتربة وغبار، وعلمت أن الرجل متمسك دائماً بمبادئه، فلن يطيعني إلا إن طلبت أنا منه طلباً أولاً، وبما أن الرجل قد فطر قلبي فأنا مصر على مساعدته، ومن ثم أضيف:

ربما أحتاج إلى ملابس نظيفة فقط.

إذن فدعني أساعدك في أن تجلب تلك الملابس النظيفة، وأنت تساعدني لأخلص ولدي.

- اتفقنا.
- نحن الآن على مشارف منطقتك.
- وما أدراك أنها منطقتي؟
- لم أدخل منطقتك منذ زمن طويل، ولكنني ذهبت إلى هناك منذ ساعات، ولقد سمعت عنك ما لم أسمعه على مدار عمري الطويل في تلك الساعات القليلة.
- وماذا سمعت؟
- سمعت أنك تتحدث إلى الأموات، وأنت تسكن معهم في المقابر، وأنت تضرب أربعة رجال أشداء، وتقتل شاباً وسط عيون جميع الناس.. لقد سمعت عنك كثيراً، ولقد عرفت أنه أنت عندما أخبرتني باسمك.. لقد كسرت العائلة الأكبر في المنطقة وحدك.
- أتصور أنني سعيد بعد أن عرفت ذلك، ولكن لا تؤاخذني، فأنا لست متأكداً.. فعلى ما فهمته من الأحداث الماضية أنني في حالة غياب عن العقل، وأني لست على طبيعتي بسبب بعض العقاقير الخاطئة التي لجأت لها لتسكن ألي. فلا تؤاخذني إن سألتك هل أبدو لك إنساناً سوياً؟
- على ما يبدو أنني قد تذكرت تورم ضرسي فأخذت أضع يدي فوقه فوجدته لا يزال متورماً بشكل أكبر مما كان، لكنني أيضاً لا أزال لا أشعر بالألم. لكن الشيخ قاطع أفكاره قائلاً:
- إذا كنت تريد يمكننا أن نرتاح قليلاً، وسوف أبدأ فيما بعد بمراقبة الطرق وأذلك حينما تكون أماناً.. بالمناسبة، أنا أجدك إنساناً سوياً جداً.
- أومئ للرجل وأنا غير واعي أكان فعلاً عليّ أن أرتاح أم أن أكمل مسيرتي. عليّ أن أراقب الطريق جيداً، وأن أعرف إن كانت لا تزال هناك عيون للشرطة أم لا. وقد كان حديثي على حق، فأنا لم أكن أدري أن الشرطة قد انصرفت من المنطقة بالفعل لكنها لم تنصرف عن فكرة إيجادي.. وبأي ثمن.

أيمن

صعدت درجات سلم مديرية الأمن خلف الضباط مراد صديق طفولتي الذي ساعده أهله لكي يلحق بكلية الشرطة على عكسي أنا، لم أجد من يساعدني، ولكن مراد كان نعم السند لي على مدار أيام خدمتي الطويلة، ولطالما ساعدني، وحتى إنه هو أحد الأسباب الرئيسة التي ساعدتني لأكون مأمور نقطة الارتكاز الصغيرة تلك، وأبعدني عن الأقسام وهم الأقسام، وتحكم هؤلاء الضباط بي كل دقيقة، بالطبع لن أنتهي من تحكمهم بي للأبد، فلا أزال مرتبطا بالقسم، وكلما أذهب إلى هناك أنال المعاملة التي كان يفترض بي أن أناها باستمرار.. لولا تدخلات مراد، حتى إنه قد أعانني على هذه القضية التي على ما يبدو أنها ستكون وعرة. فأقول لمراد: لا أعلم كيف أشكرك يا مراد!

على أنهم يقولون دائما إن أمناء الشرطة هم المسيطرون على القطاع وهم الكل في الكل.. أأست أمين شرطة أنت أيضا يا أخي؟!

وهل هذا الكلام يصدق؟!

أعتقد أنني أصدق منه كثيرا.

إذن فهذا خطأك أنت.

خطئي أنا؟!

نعم، إذا كنت أنا أقوم بشيء فاسد، فأنت رئيسي ومن واجبك أن تمنعني.

وهل تعتقد أنني أجد الفرصة لذلك ولا أفعل؟ أن الابالسة أنفسهم يتعلمون منكم المكر والحيلة.

بالتأكيد تجد الفرصة إلى ذلك ولا تفعل شيئا.

كيف هذا؟ هل أشجعهم أنا على الفساد؟

- لا أقصد هذا، ولا أقصدك بشخصك كمراد بالطبع.. أنا أقصد أي رئيس تجاه مرءوسيه. فالفساد يا صديقي يأتي دائما من فوق قمة الهرم لا من قاعدتها، وإن أردت حربه أيضا فيجب أن تحاربه من أعلى قمة الهرم وليس من قاعدته.. أمين الشرطة مجرد قاعدة فقط.

أبتسم وأقول:

- لكن لا تنكر أن منهم عددا كبيرا وربما هو الأكبر من خيرة الناس.
- بالعكس هذا ما كنت أحاول أن أقوله لك.. أنت ستجد في كل قسم، رجل واحد معروف عنه الفساد، يتوارى خلفه الباقي، ولا يستطيع أحدهم إسقاطه، أو الإيقاع به. لا أعرف ما الصفات التي يتمتع بها حتى أصبح هكذا، ولا أعلم إن كانت في جينيه المكوّن، أم هي مكتسبة من خبرات الحياة.

- ليس هناك من يولد فاسداً.

- ربما يوما ما يأتي من يصلح هذا الفساد من أعلى قمة الهرم كما تقول.

- لا تنس أننا في مديرية الأمن.. ربي اجعل كلامنا خفيفاً عليهم.

يضحك مراد دون أن يعلق. ولقد كان مراد هو من أخبرني بكل تفاصيل تلك القضية، التي تتحدث عن العقاقير. وعندما شككت في مديح، وفي سلوكه، ذهبت إليه على الفور لكي أخبره، ولهذا فلقد أصدرت المديرية قراراً باعتقال الشاب على وجه السرعة، قبل أن يستفيق من تلك الجرعة التي أخذها. ولهذا فإن الدنيا منقلبة عليه إلى الآن، ونزلت له تلك الحملة الكبيرة جدا التي لم ترَ مثلها المنطقة من قبل. كل اهتمامهم كان منصبا على إيجاد ذلك الشاب قبل أن يطلع النهار، ولكنهم فشلوا في فعل ذلك، ومع كل ساعة تمضي يضعف أملهم في استطاعة إثبات شيء. ومنذ أن انسحبت القوات وأنا ومراد لا نتوقف عن محاولة استخراج أمر باعتقال مديح وإخراج قوة معنا لتمشيط المنطقة مرة أخرى، حتى وإن لم تكن قوة كبيرة كتلك التي

نزلت على المنطقة منذ ساعات، ولكن على الأقل قوة مكونة من ثلاث أو أربع سيارات فقط، وسوف أستدعي من أعرفهم من سكان المنطقة الذين يعرفون شوارعها وحارتها جيدا داخل العمار وداخل المقابر. سأستعين بكل من يستطيع أن يصلني بذلك الشاب، ولن أترك وسيلة لن أستخدمها حتى أفعل، وبذلك الإصرار تركت القسم ومنه إلى النائب العام ثم إلى المديرية، ومن المديرية استصدرت أمراً لأعيده مرة أخرى إلى النائب العام لتصديقه، ومن ثم أعود إلى القسم لتنفيذه. عليّ أن أفعل كل ذلك قبل أن يشرق فجر اليوم الجديد.

استصدرت كل الأوراق اللازمة، واستخرجت ذلك الأمر واجب النفاذ مع اقتراب فجر اليوم الجديد. ولكن مراد قد أخبرني أن بهذا الشكل كان الأمر سريعاً وبسيطاً، وحمد الله على أن الأمور لم تتعقد منهم. ولم يتبقّ لنا الآن سوى أن نخرج معا على القسم لأخذ تلك القوة ومداهمة الحارة مرة أخرى. وهذا يعني أن اصطدامنا بمديح صار وشيكا.

مديح

كان محجوب يتقدمني في كل شارع ندلف إليه، وبعد أن يعبره بالكامل يشير لي بأنه آمنٌ، فأعبر خلفه وأنا مطمئن أن لا أحد يراني. حتى إذا وصلنا إلى الطريق الطويل الذي يسبق العمار بشارع فقط، وعند نهايته سوف نلتف من حول المسجد الكبير لندخل المنطقة ونترك المقابر، وعندما نصبح عند منزل سرور العرجي، سوف نلتف مرة أخرى من المقابر باتجاه آخر حتى نصل إلى بيتي دون أن يرانا أحد. عندما كان الطريق في الشارع الطويل صعبًا على أن يجوله الشيخ وحده، فأخذت أسير بجواره، وقال:

- لقد اقتربنا من منزلك.
- نعم اقتربنا كثيرًا، وهذا لا يجعلني مرتاحًا.
- كنت أظن أنك تريد أن تبدل ثيابك، حتى إنه لم يكن لديك طلب آخر لتطلبه.
- لم أطلب هذا الطلب لأنني لا أتمنى شيئًا آخر أيها الشيخ.. بل لأن هذا الطلب هو ما تستطيع أنت تنفيذه، أكثر منه طلبًا أريده أنا.. فالحكمة تقول إذا أردت أن تطاع فَمُر بالمستطاع.
- فاخترت لي ما أستطيع أن أفعله؟
- بالضبط.
- أرجو أن أكون طلبت منك أنا أيضًا ما تستطيع أنت أن تفعله.
- لا تخش شيئًا.. اتركها لله.. هل أبناءك أكثر شرا وقوة من أبناء البرغوثي..
- هل تعلم أن تلك الدنيا التي كانت منقلبة منذ قليل رأسا على عقب من أجلك المتسبب فيها هم أبناء البرغوثي؟

- لا، بالطبع أنا لا أعلم.
- إنه أحد معارف الحاج "سامح البرغوثي" .. أحد معارفه الثقال، هو من أوصى بذلك .. إنهم لم يهملوك كما كنت تعتقد، ومع ذلك فإن أبنائي ربما أقوى أو أكثر شراً من أبناء البرغوثي .. فأنا لا أعلم، فأنا لم أختبرهم جميعاً بعد، على أنني اختبرت معظمهم.
- أضحك، وقد أصبح الجامع الكبير أماناً، وأخذنا نلتف من حوله والشيخ يقول:
- لقد تهاونت في حق نفسي كثيراً يا مديح يا ولدي، ولكن شيئاً واحداً لم أتهاون به أبداً.
- ما هو؟
- كرامتي وكرامة أبنائي.
- هذا شيء مهم.

- يشير لي بسبابته وهو يحدق في بعيون متسعة ويقول منذراً:
- بل الأهم .. الأهم يا ولدي، على مدار ثمانية وتسعين عاماً، لم أسع أبداً إلى مشكلة، أو أ تدخل فيما لا يعني، ولكن حينما كانت تأتي لي مصيبة كبيرة والمتسبب بها أبنائي، كنت أقف ولو في وجه العالم أجمع، ولا أترك طفلاً من أطفالي يبيت الليل وهو يشعر أن كرامته ليست مصانة، ومحاطة بكثير من الأمان أيضاً.
- كان أبي على عكسك تماماً يا سيدي .. فأبي لم يهتم ولو يوماً واحداً لكي يراني أو يصحبنى لمكان ما، لقد كان يبخلاً عني حتى بالنصيحة. حتي انه لم يكن يسعى لمعرفة أن كنت أنام من الأساس أم لا، وليس لي عرف أن كنت أنام أمنا مصون الكرامة أم لا.
- عفوا .. واعذرني أنني أ تدخل، ولكن هل لي أن أعرف قصتك يا مديح يا ولدي؟
- بالطبع، ولكن أنا لا يمكنني أن أجزم لك إن كنت سوف أقصها عليك بالشكل الصحيح أم لا، فأنا وكما قلت لك من قبل تحت تأثير مخدر مفعوله طويل الأمد.

- يسعدني أن أسمعها منك في هذا الطريق الطويل، سواء كانت الحقيقة أم هذيان المخدر. وإلا فماذا سنفعل طوال الطريق؟
- حسنا سوف أقصها عليك.. لكنك لن تجد بها شيئا يسرك.
- أزدرد لعابي ومن ثم أقول شارعا في رواية قصتي على الشيخ:
- أنا باختصار، تركني أبي وأنا في عمر التاسعة، كانت وقتها والدتي شديدة الغضب لأنه قد تزوج من امرأة أخرى.
- ألم تحاول أن تتحدث إليه.. حتى في ظل هذا الغضب؟ ربما كانت نزوة أو غلطة وعليه إصلاحها.
- لا.. لا أعتقد أنها فعلت. كنت آنذاك مرتبطا بها كثيرا.
- وهل أصبحت على شيء خلاف ذلك.
- لقد أصبحت على النقيض تماما.
- كيف؟
- إنني أكرهها أكثر ما أكره الشيطان نفسه الآن.
- هل هناك من يكره والدته؟
- نعم يا عمها يوجد.. إنه أنا.
- على ما يبدو أنها قد أخطأت في حقك كثيرا.
- أكثر مما تتوقع.
- قص عليّ وأحكم بنفسني.
- عندما كنت صغيرا أفنعتني أنني رجليها.. حتى إنني تركت دراستي من أجل العمل لدى الناس حتى أكفي حياتها هي وإخوتي، وحينما أغضبها هذا أكملت دراستي دون أترك العمل. لم يكن الذنب ذنبي أن أجري لم يكن يكفي، فقد كنت أفعل ما عليّ وأعمل.

- ووالدك؟
- لم نعرف عنه شيئا.
- حسنا.. أكمل.
- ظلت أعمل وأدرس حتى كبرت وأصبحت في عمر الثامنة عشرة، وقتها وجدتها تحدثنا عن أنها وجدت طريقا للوصول إلى والدي، وأنها سوف ترسلنا له لكي يرانا. وحيث إنها لن تستطيع مقابله فسيكون معنا وسيط. منذ تلك اللحظة وأخذ عقلي يتلاعب بي، وتدخله بعض الأفكار التي سرعان ما وجدت أنها صحيحة.. إن والدي كانت قد قررت أن تتزوج بعدما فقدت الأمل في عودة أبي.
- ولماذا لم تتركهم له منذ صغركم وكانت تزوجت وهي في عمر صغير.
- النساء يا عمه.. النساء.
- لا تقل لي أن العند هو من أوصلها إلى هذا.
- إنه هو.. لقد ظلت محتفظة بنا على ما أتصور على أننا وسيلة ضغط تضغط بنا عليه، وأنا من كان يتصور أنها أحببتنا حتى لم تستطع الاستغناء عنا في حياتها.
- ربما أنت مخطئ في حكمك هذا.
- بماذا تفسر أن تتركه دون أن تسأله في نفقتنا حتى.. لمجرد أن يظل بعيدا متشوقا إلى أبنائه، هذا بالطبع ما أقنعهما به بعض المقربين من أهلها. أما الواقع، فقد كان مخالفا تماما، لقد ذهب الرجل وعاش حياته متناسيا أن له زوجة أو أبناء من الأساس. وسارت الحياة.. ثم بعد تسعة أعوام تأخذ له أبناءه وتقول له ها هم أبنائك. بالطبع كان الوضع غريبا على الرجل.
- أسيطر على انفعالي وأنا أضيف موضحا:
- بالطبع.. إنه حتى لا يعرفنا.
- يضحك الشيخ ويقول:

- لا أدري حقيقة ما شعر به والدك وقتها، ولكنه إحساس لا أتمنى أن أشعر به.
- ومن يريد ذلك. المهم.. لم تمضي سوى سنة واحدة وتزوجت المرأة.. تزوجت بعدما جعلتني أحتمل ما لا يحتمله الرجال، ولقد قاومت.. قاومت بكل جهدي حتى أ منع ذلك ولكني لم أستطع. في النهاية تزوجت من بائع الخضار.
- وماذا فعلت؟
- هربت.
- إلى أين؟
- إلى الجيش.
- وهل نفعلك الهرب؟
- لا ينفع الهرب أبدا، ولكنه أحيانا يكسبنا بعض الوقت.
- كنا قد اقتربنا من منزلي، وأصبحنا على مشارف الوسعية، أمام بيت "سرور" القديم عند مدخل المقابر. فاستوقفني الشيخ وقال:
- سوف أرى أنا الطريق أولا.. لقد اقتربنا من الخطر.
- حسنا.. سوف أنتظر أنا هنا.
- أتطلع نحو السماء التي قد تحوّل لونها إلى الأرجواني، وبدأت خيوط الصباح تتجمع في السماء، حتى إنني قد استخلصت أن الساعة تقارب السادسة. في هذه الليلة الشتوية الباردة، والتي لا تريد الشمس أن تسطع في سائها بعد. وربما لن تريد أبدا.
- يشير إليّ الشيخ من بعيد بأن الطريق أمان. فأشعر في السير خلف الشيخ حتى أصبح في الوسعية، ونظرت في كل مكان من حولي ووجدت أنه صامت متيسّر.
- فدلقت إلى الحارة وأنا أتطلع إلى شرفة "سباح" والتي وجدت مطفأة الأنوار وليس بها حياة. يمتد بصري ليتفحص حارتي الصغيرة ومنزلي، ولكن بغتة يظهر أمامي

ذلك الشخص الذي يرتقبني منذ أيام. أخيرا يصبح أمامي وعلى مسافة قصيرة، فلم أعطِ للفتى فرصة للهرب وأخذت في العدو فورا.

ما أن شاهدني الفتى وأنا أعدو نحوه حتى انطلق يركض بأقصى ما لديه، واتجه نحو المقابر بأقصى سرعة له، ولكنني لن أدعه يهرب من يدي هذه المرة. فأخذت أركض خلفه حتى إذا وصلنا إلى المكان الذي يضع به الحاج طارق سيارته على حافة المساكن وسط المقابر، وأخذ الفتى يلتف من حولها وهو يحاول الهرب مني ويكاد أن يبيكي وهو يقول لي:

- ماذا تريد مني؟

- بل ماذا تريد أنت مني؟ لماذا تراقبني وتربص بي؟

يندهش الفتى ويقول:

- أنا؟! أنا لم أتعرض لك مطلقا.. أنا آتي من أجل العمل ليس أكثر.

أتعجب:

- عمل؟! أي عمل؟

- إنني أعمل لدى الحاج طارق صاحب هذه السيارة، مؤكدا أنك تعرفه.

- ولماذا تأتي في هذه الساعة المبكرة.

- إننا نعمل في موقع بعيد منذ أسبوع على طريق السويس. ولذلك فإننا نخرج كل يوم

مبكرا عن المعتاد بساعتين.

أقف متسمرًا في مكاني، وأنا أقول لنفسي إن الفتى ربما يكون صادقا، بل إن النسبة الأعلى تكاد تكون لصالح أنه محق. لكنني مع ذلك لا أثق في قدرة عقلي على الحكم الآن. إنني أعتقد منذ أيام أنه يراقبني. وكدت أن أطارده مرة أخرى لولا أن طارق ظهر ومعه أبنائه عند مدخل الحارة وطارق يقول:

- هل هناك شيء يا مديح يا ولدي؟ هل ضايقتك صبحي في شيء؟

- لا أبدا يا عم طارق.. كله تمام، أنا فقط كنت أعتقد أنه غريب ليس إلا. لكنه قال لي أنه يعمل معك.

- بالطبع يا ولدي يعمل معي وإلا فلماذا سيأتي في تلك الساعة المبكرة.

أعود بخيبة أمل جديدة، وأنا الذي يتهم هذا الفتى بأنه يتجسس عليّ منذ أيام، وكنت أظن أن جهة عليا هي من أرسلته خلفي. اتضح لي أنه يعمل عند طارق وأبنائه، وها أنا أعود إلى الحارة فأتذكر أنني قد تركت الشيخ واقفا أمام منزلي، فأسترجع ما قد حضرت من أجله وأتذكر كل شيء دفعة واحدة فأعدو إلى داخل البيت في سرعة قبل أن يراني أحد. ويقول الشيخ لي في أثناء اتخاذي أول درجة صعودا من السلم:

- معك خمس دقائق فقط.. لا تنس.

- لا تخف.. قبل أن يمروا سأكون قد حضرت.

أقولها وأنا أصعد نحو الأعلى في سرعة وفي خفة إلى أن وصلت إلى شقتي، وتعجبت كثيرا حينما وجدت الباب غير مغلق بالكامل، وترك مسندا على رتاج الباب. فدفعته برفق ودلفت إلى الداخل لأجد "سرور" نائما على الأريكة، ومع إنني غضبت جدا لأنه قد اقتحم شقتي دون إذني، ودلف إليها وتمدد أيضا. إلا أنني في غاية السعادة لأني وجدته، فلقد كنت أريد أن أنادي عليه وأنا أمام منزله، أو أن أبحث عنه بالمحل، ولم أتوقع مطلقا أن أجده قد ترك كل تلك الأماكن وأتى إلى هنا.. والآن ناديت عليه:

- "سرور"؟

لم يجب "سرور" سوى بعد أن ناديت لأربع مرات متتالية صحبت كل منها رتبة أو اثنتين على رسغه. أفاق "سرور"، وقال:

- كيف أتيت إلى هنا؟

- بمساعدة رجل كبير.. اتضح لي أنه أجده منك.
 - ألم نتفق على أنك لن تأمن شر أحد.
 - وما الشر الذي يعود عليّ من خلف رجل كبير كهذا؟
 - يقولها مديح وهو يبدل ثيابه بالداخل أمام المرأة.
 - أنا لا أعلم ما الذي ممكن أن نلقاه من جراء شيخ، ولكن هناك عديد من الأشياء تحدث ويتسبب بها الشيوخ كما الصغار.. كالحوادث مثلا.. أنت تسمع كثيرا عن حوادث يفتعلها الكبار وتتسبب في موتهم وموت الصغار أيضا معهم. لا أقول إنهم قوم يؤذون بطبعهم، ولكنني فقط أحذرك من أن هناك عدة أشياء يستطيع فعلها الشيوخ.
 - أتفهم شعورك هذا جيدا يا "سرور"، ولكن هل لي أن أعرف لماذا أنت هنا؟
 - بالطبع يمكنك ذلك.. أنا هنا فقط لكي أعرف لك كل جديد وأخبرك به عندما نلتقي غدا.. فقررت أن أبقى في موقع الحدث.. إنهم يقولون ذلك.
 - مفهوم.. لكن أنا عليّ أن أعود الآن إلى الشيخ.. اطمئن جيدا على الشقة عندما تغادر.
 - حسنا سوف أفعل.
- أتركه وأعود نحو الأسفل للقاء الشيخ مرة أخرى الذي ما إن لمحني حتى استوقفني عند الباب ولم يدعني أخرج، وأخذ ينظر يمينا ويسارا حتى يتأكد أن طريقي مؤمن، ومن ثم أشار لي بأن أهبط.
- ما أن هبطت حتى شعرت بشيء يلتف حول كتفي في سرعة وأخذ ينزاح إلى الأسفل سرعة خارقة، فنظرت إلى ما يحدث على وجه السرعة، فإذا به حبل ملفوف حول ساعدي، وأمسك بكل طرف منه رجل، ثم أخذ الرجلان بسرعة في الدوران من حولي قبل أن أفهم حتى ماذا يفعلون، حتى عقدوا عليّ الحبل أكثر وأكثر، ومهما حاولت استجماع قواي لكي أحرك يدي لا أستطيع حتى إنني صرخت، ولكن طعنة صغيرة فوق كتفي من نصل صغير جعلتني أصمت، ولا أتحدث مرة أخرى، حيث

شعرت أن أجزاء كبيرة من جسدي قد أصبحت خارج سيطرة عقلي، وأصبحت قواي لا تستطيع حملي، فخرت قواي في الأرض راكعا وأنا أنظر نحو الشيخ طالبا منه تفسيراً لهذا، ومن ثم أنظر باتجاه كتفي الذي كانت تنضح منه الدماء وكأنها خرطوم عرقة القهوجي.

فيقول لي الشيخ على الفور:

- هؤلاء هم أبنائي، وهذا هو أعزهم لدي، لقد حدثتك عنه.
أنهى كلماته وهو يضع يده فوق كتف الشخص الذي يظهر من خلفي وكان ينتزع النصل الصغير من ظهري.. إنه "أشرف". فيستطرد الشيخ:
- هذا هو الابن الذي ربيته وزرعت بداخله الطيبة حتى إنني أشفقت عليه ذات يوم منها.

ثم يوجه كلماته إليّ وهو ينظر لـ "أشرف" وقد أظهرت ملامحه صرامة انتشر على إثرها كثير من التجاعيد بهامته وهو يستطرد قائلاً:
- منذ قليل عندما تحدثنا، سألتني سؤالاً، إن كان أبنائي أقوى من أبناء البرغوثي؟ وأجبتك بأنني اختبرت أكثرهم، ولم أختبرهم جميعاً، فلتعلم أن هذا أيضاً هو الابن الذي لم أختبر قوته بعد، على أني اختبرت جميع أبنائي من قبل، وأعلم جيداً أنهم إن أرادوا أن يكونوا أقوى من أبناء البرغوثي سيكونون، وها أنا الآن أختبر ابني الأخير، الذي لم أختبره من قبل.. أسيثور إلى شرفه ويكون رجلاً؟ أم سيكون مجرد جبان كما كان طوال حياته.

ينظر إليّ "أشرف" في تحدّ وقد وسعت عيناه في حين قلت للشيخ:

- لكن إخوته لم يعادوه كما قلت.

- لم أكن أقصد أشقاءه عندما قلت لك إخوته.. كنت أقصد إخوته من بني البشر، الذين تركته أنت لهم دون ظهر، وبلا كرامة، لقد انتهكت عرضه ورجولته، وكما قلت لك من قبل.. في تلك اللحظات أنا لا أنام ولدي ابن يشعر أن كرامته مهانة.
- أنت من دبر لكل هذا على الرغم من أنني أمنت لك؟
- طلبت منك ألا تفعل.
- متى هذا؟
- في أول لقائنا.. قلت لك ألا تنخدع بالمظاهر فإنها في معظم الأوقات خادعة.
- لماذا لم تقل لي شيئاً أوضح من ذلك.. كأنك والد "أشرف" مثلاً.
- أعلم أنك تمزح.. المزاح جيد قبل الموت، ولكنني سوف أجيبك مع هذا.. أنت تعلم لماذا؟
- أسأل بوهن وتعب:
- أنت من دبر كل ذلك؟
- في الحقيقة لا.. "أشرف" هو من دبر لكل شيء، وهو من أرسل لي لكي أستدرجك إلى هنا حتى يحضر هو من المستشفى.
- ولماذا لم تقتلني هناك.. حيث التقينا؟
- لا.. لا يجب أن تموت هناك، بل يجب أن تموت هنا، ويجب أن يشاهد هذا شخص أو اثنين، ويعرفون أن ابني هو من قتلك من أجل شرفه وعرضه. لكن ليس أكثر من شخصين.. حتى لا تثبت الجريمة على ولدي. سوف أكتفي فقط بالاشتباه.
- خائن.
- الخائن هو أبوك.. الذي تركك واستكثر عليك النصيحة، أما أنا فلم أستكثر على ابني حتى حياتي.. حتى أنني شهدت على أقسى فعلة يشهد عليها أب وهو يرى ولده

يفعلها، لقد جعلتني شاهدا على جريمة قتل يرتكبها ابني، دون أن أعارضه أو أن أقول له لا.. لكنني حتى الآن لم أراه يقتلك بعد.

لم يكد يكمل كلمته حتى طعنني "أشرف" طعنة أخرى، وهذه المرة كانت أسفل الرقبة، وهمس في أذني قائلاً:

لقد اخترت لك نصلاً صغيراً حتى لا تتصفى دماؤك بسرعة، وأشاهدك لأطول وقت وأنت تموت.

ثم نزع نصله من رقبتني وهو يسمع صوت تأوهي ويستمتع به في سادية. ومن ثم أغلقت عيني، وصمت عقلي أخيراً عن التفكير، واتجهت نحو الثبات أخيراً.. ثبات طويل.

أيمن

لم أكن أعلم أن في هذه الليلة سيكون جميع الناس بهذا الثبات، حتى إن حامد بائع الجرائد عند المحطة العمومية قد أغلق محله. المحطة لا تحمل أحدًا لا جالسًا ولا واقفًا. لا تحمل أحدًا على الإطلاق على غير عاداتها، وقد اعتدت بتلك المحطة أن تحوي العاطلين الذين يكرهون استيقاظ النهار ويستيقظون مساء ليحتلوا النواصي حتى الصباح. لم تكن تأتي لي المشكلات بالنقطة سوى من هؤلاء ومن أفعال هؤلاء. لكن حتى هؤلاء قد خلت منهم المحطة، فدرت بالسيارة وإلى جوارى مراد، وتبعنا ثلاث سيارات آخرتين. محملين جميعًا بالجنود حتى تلك التي أقودها. أعبّر من شارع النقطة إلى الوسعاية الخارجية، وأجد المقهى الكبير خاويًا، وليس به أحد. تزيد دهشتي ولكني لا أجد أية إجابة أستشف منها ما حدث. أهبط على قدمي تاركا السيارة، ويتبعني مراد. نتجه نحو الشارع المقابل للوسعاية والذي يقود إلى الملف الضيق المقابل للبيت الأصفر. يظهر أمامي بغتة وعند نهاية الطريق الولد "عجينة". ممسكا برأسه ويعدو بكل قوته، وحينما يشاهدني آتيا يتوقف، ومن ثم يعود أدراجه ليركض نحو الجانب الآخر مسرعا.

أعبّر الملف الضيق، وأتجه صوب البيت الأصفر على الفور، وألتف من أسفله إلى الحارة الضيقة التي يقع بها بيت مديح فأجده مفترشا للأرض أمام باب المنزل، وقد قيد بحبل حول ساعديه، وينزف من عدة أماكن. فأخرجت على الفور جهاز اللاسلكي وأصدرت له بعض الكلمات التي تطلب المساعدة وسيارة إسعاف مع العنوان تفصيليًا. ومن ثم وأنا أعيد الجهاز إلى مكانه ألح أم سعيد وهي تتراجع إلى الوراء في شرفتها. فأنهض من مكاني بجوار جثمان مديح لأنظر نحو الأعلى

وأتفحص نافذتها جيدا وأحدد مدخل المنزل من بعد لكي أعرف عنوانها فيما بعد.
ربما خلف وقفتها تلك حكاية يجب أن أسمعها وحدي أولا.

أعود إلى الجثمان مرة أخرى، وقد بدأ الشارع يمتلئ من حولي بالمتفرجين من كل مكان، وأخذت الأقاويل تتزايد والقصص تؤلف، قبل حتى أن تعرف الشرطة من الفاعل.. ثم تذكرت على الفور "عجينة"، الذي لمحتة وهو يعدو بكل قوته وكان مجروحا في وجهه.. نعم، لقد كان ممسكا هامته بيده لأنه جريح في وجهه، لقد اشتبك معه "عجينة" وقد أدى اشتباكهم إلى موت مديح، وهرب "عجينة"، فصحت في بعض الجنود الذين يقفون عند مدخل الحارة الضيقة:

أريد "عجينة".. اطلبوا ابن الكلب ولو كان في بطن أمه مرة أخرى.

يتحرك الجند في سرعة لتنفيذ المهمة والبحث عن "عجينة".

لم تمض سوى ساعة ونصف، حتى كانت الإسعاف قد حملت جثمان مديح، وقد كان حيا لا يزال. لكنه عندما وصل المستشفى قد مات، وكانت الشرطة قد رفعت كل الأدلة والبصمات من مكان الجريمة، وأخذت الجثة طريقها إلى المشرحة العامة لكي يصدر عنها تقريراً من الطب الشرعي.

أيمن

إن الحياة بالنسبة لأي رجل في الكون هي عبارة عن صندوق صغير، ربما من الخشب مصنوع، أو من صفيح أو حديد، لن يفرق كثيرا نوع المادة التي يصنع منها. لكنه يتواجد داخل كل حجرة خاصة برجل، إذا كان أعزب، أو داخل حجرة نومه أو أسفل فراشه إذا كان متزوجا. ذلك الصندوق يحمل بقايا من ذلك الرجل لكل وقت وحين، قداحة قديمة، أو رسالة هامة من صديق. أو هدية عزيزة على قلبه، أو شيء قد تعطل ورفض هو أن يستغني عنه. إنها تلك العلبة التي يضع بها كل رجل ذكرياته. ربما في أحد أدراج الكمود، أو في أحد أواني المطبخ. المهم أنها موجودة، وعندما كان التفتيش في منزل مديح لا يزال في ذروته، لم أبحث سوى عن هذا الصندوق.. الصندوق الذي يحمل بقايا رجل كان يعيش هنا..

وَقُتِلَ منذ ساعات..

أجد ما يشبه صفيحة لشيكولاتة قديمة، كانت علبة تشبه الصندوق، وكانت مرتفعة وقليلة العرض. فتحت غطاءها فوجدت ورقة مطوية أعلاها. كتب عليها اسم طبيب أسنان شهير، وبعض الوصفات العلاجية. التاريخ قريب، ربما ستكون ورقة هامة، أضعتها في جيب الجاكت الأميري.

أأخذ طريقي في رؤية ما بعد ذلك فأجد صورة لوالدته وهي تحمله عندما كان طفلا صغيرا. كانت شابة أكثر، ولها جمال خاص، كانت ترتدي فستانا له زخرفة قماشية عند الكتفين، ويظهر من أسفلها عند كل كتف ذراعيها المتناسقين بلونها الأبيض الأخاذ، وتسريحة شعر مدرجة نحو الأجناب، وشعر أسود ناعم مسدل على كتفها، وذلك الطفل يحمل ابتسامة مشرقة وضحكة تنير الصورة وتضيئها. أين ذهبت تلك البراءة؟ لماذا انقلب حال الشاب بهذا الشكل؟ في هذا الموضوع لغز كبير.

بخلاف أنني على ثقة بأن مديح قد أخذ تلك الحبوب المخدرة، إلا أن ما سمعته عما تسبب فيه تلك الأدوية من أعراض وأثار جانبية لا ترتقي لأفعال مديح على الإطلاق.. إنه أخطر حالة بين كل من سمعت بهم. من بين كل من سمعت عنهم على الأقل.. في هذا الأمر شيء.

أسفل تلك الصورة كانت هناك صورة أخرى تجمع بينه وبين شقيقته التي تصغره وشقيقه الصغير، والذي كان يظهر رضيعا بجوارهما. بعض من تلك الصور ربما صورها له والده، إنه الذكرى غير المتواجدة في الصورة، فقد كتب على ظهر الصورة العيد الأول من ميلاد سالم شقيق مديح الأصغر.

بعد ذلك هناك قداحة عليها حرف الأم باللغة الإنجليزية، ربما أهدتها إليه صديقة، ولكنه أسفل تلك القداحة صورة كبيرة لوالده، في إحدى الملاهي الليلية، على ما يبدو أنه كان ساهرا هناك والتقطت له تلك الصورة، وكانت أمامه طاولة تحوي زجاجتين من الجعة وعلبة سجائر مارلبورو أحمر وتلك القداحة أمامه بجوار علبة السجائر، فأعلم أنها لوالده، ولذلك قد أحفظ بها. خلف تلك الصورة كتب من حفل الفنانة "عايدة الشاعر" فندق سميراميس القاهرة. لقد كان والده واصلا على هذا القدر، ويحضر حفلات ذات تكلفة عالية جدا لا يحتملها سوى طبقة معينة من الناس.

أسفل تلك الصورة خطاب، كان قد أرسله والده إلى والدته عندما كانا في مرحلة الخطوبة، وعلى ما يبدو أن الحاج مداح كانت لديه موهبة شعرية فذة لم يطورها. فلقد كان يكتب لها بأعذب الكلمات وأجمل المعاني، فترى أين ذهب كل هذا الحب وانتهى بها الأمر إلى هذا الانفصال الذي أدى إلى خسائر باهظة في المنطقة كلها اليوم؟

بعد ذلك هناك خاتم كبير له فص أسود اللون من العقيق، وإطار من الفضة. رسم عليه سيفان من الجوانب ونخيل، وهو شعار المملكة العربية السعودية. يبدو أن أحدهم قد أحضره معه من الحج، ووجد بجواره ورقة مكتوب بها: "من الأراضي المقدسة، ومن أول حجة لشقيقك "مندو" أرسل إليك هذا الخاتم".

اندهشت، أنا لا أعرف أن "مندو" قد ذهب إلى الحج سابقا. عليّ أن أبحث في هذا الأمر أيضا. ربما يقودني إلى شيء لم أكن أعرفه. بعض الأوراق الأخرى التي كانت عليها رسومات بخط اليد، لبعض الفنانين والمشاهير، وقد رسمهم بالقلم الرصاص وعلى ما يبدو أنه كان موهوبا جدا في الرسم، وفيما بعد وجدت ورقة كتب عليها هي الأخرى شعرا، في فتاة تدعى "سماح"، وما أعذبه لقد كتبه مديح بنفسه، ما أجمل خطه، وما أجمل كلماته. لم أكن أتصور أن هناك رجلاً يمكن أن يجب بمثل هذه الطريقة، وتصل به مشاعره لقول تلك الكلمات. كانت كلماته عميقة جدا ودقيقة جدا وبها من الخيال ما يفوق كل الحدود.

ثم أجد رخصة قيادة، ومفتاحاً قديماً وبعض أشياء أخرى ليست معلومة الهيئة، وكأنها شيء ناقص من جهاز كاسيت، أو زر مخلوع من جهاز راديو، بكرة من الخيط الأبيض، وقد شُكت بها من الأعلى إبرة حياكة.

ذكريات بسيطة ولكن بها الكثير من المعاني الدفينة، كادت معها تنزرف دمعة من عيني وأنا أنهض حاملا العلبة بيدي بعد أن أعد جميع ما فيها إلى مكانه، وأخذها معي لتكون من ضمن أحرار القضية.. مع بعض اللوحات المرسومة بالقلم الرصاص.

كان عليّ أن أقوم بهذا الأمر قبل أي شيء آخر، وهو الذهاب إلى عيادة الطبيب الذي زاره مديح قبل أن تنقلب حاله بساعات قليلة، ربما أفادني ذلك في معرفة شيء. ذلك الفتى كان مثل البدر المنور، زينة شباب تلك المنطقة بالحق، وفجأة أصبح إنساناً

آخر، وانتهى به الأمر إلى ما حدث له في آخر كم ليلة من عمره. حتى إن السيرة التي تركها تحتاج إلى تجميل وتحسين، وإلا كانت حياته كلها لا تساوي شيئاً عند أحد، وحتى ذكره إن لم تكن بالسوء فلم تكن بالخير. أحاول مساعدة الشاب الذي كنت أعلم جيداً أن بداخله طيبة ليست بإنسان آخر. تكريماً لذكراه سوف أحاول ربما أن أصل لشيء يجمل حتى تلك الصورة قليلاً، من اغتصاب امرأة إلى القتل أمام داره بعد افتعال عشرات المشكلات.

تلك الحالة من الغياب عن العقل التي لم تحدث لإنسان عرفوه داخل منطقتهم من أي نوع مخدر آخر على مدار حياتهم. علي أن أحاول، وما فيه الخير سوف يقدمه لي الله. أوقفت سيارتي التي تحمل أرقام الوزارة أمام عمارة قديمة من عمائر الحلمية الفخمة، واتجهت نحو عيادة الطبيب على الفور. عليّ عبد الحميد الورداني.

عندما التقيت بالطبيب عرضت عليه صورة مديح لكي يتعرف عليه، وعندما تعرف عليه الطبيب جلست معه، وطال بيننا الحديث.

ترك الطبيب العيادة وهو يسلم عليّ أمام مدخل العمارة متجهاً إلى سيارته بعدما قد ضاع اليوم بالكامل في الحديث عن ذلك الفتى وما حدث له، ولقد تركني الطبيب وتوجه إلى منزله. في حين تحركت على الفور باتجاه مديرية الأمن لإرفاق طلب تشريع خاص بتقرير خاص عن العقار الجاري البحث عنه وقد أرفق اسمه في دائرة البحث ورقمه، وأخذت أسعى لإنهاء إجراءات هذا الطلب حتى انتهت منه، ومن ثم تقدمت به إلى النائب العام حتى يصدر أمره للطب الشرعي.



سماح

النيابة العامة. صباح الليلة الرابعة.

إنه مكان قاسٍ، لا تستريح أبدا بداخله؛ عندما تكون مجرمًا. هكذا همست في ضميري. لقد توغل إليّ إحساس رهيب بالخوف أن خطت قدمي إلى هذا المكان، وكنت أقف أمام وكيل النائب العام وكأنه والدي الذي قبض عليّ بفعل يستحق عقوبة الموت. أشعر أنه سوف يخرج من جانبه سكينًا في أية لحظة ليدبحني، كما ذبحوا مديح. وأتحدث إليه وأنا أشعر بثقل غريب فوق بطني كما ولو كنت على وشك الولادة. غريب هو الخوف.

أسقط بين الجمع مغشية عليّ بعد نوبة بكاء عارمة وأنا أدلي بأقوالي أمام النائب العام، وعلى أن والدي كان يعلم بأنني سوف أتأثر عند تلك النقطة، وذلك لأنه كان شاهدا على "أشرف" وهو يلقني تلك الكلمات التي تفوهت بها جميعها. كل ما أخبرته للسيد وكيل النائب العام. لكنه شعر أن ما أفعله خارج تماما عما قد اتفقنا عليه، وأنني كنت أبكي بحرقة حقيقية، وأن كلماتي عن الصدمة هو شعوري الحقيقي، ولقد كان محققا، فقد كنت أشعر بكل ما يجول بخاطره وألمحه في عينيه. وبعد أن إذن له السيد المستشار، أسند الوالد ابنته كما كان يحمل حفيدته أيضا. لكي ألقى بجسدي فوق الأريكة التي تحتل الزاوية اليمنى من مكتب سيادته. لقد حضر والدي بناء على طلبي أنا، وكما فهمني "أشرف"، لكي أقول للسيد وكيل النائب العام إن زوجي في غيبوبة في المستشفى وإنني لا أملك بعد زوجي أحداً، ليجري معي سوى ذلك الرجل الكبير والدي، وبهذا لن أظل في كثير من التحقيقات، ولن

يجعلوني أنتظر كثيرا، ولكن ما أعرفه بداخلي وهو الأهم من كل هذا هو أنني أثبتت في داخل المحضر الرسمي في تمام الساعة السابعة والنصف صباحا أن زوجي في المستشفى العام، وفي حالة غيبوبة. لقد قلت كل شيء كما أرداني أن أقوله، وفعلت كل ما طلب مني أن أفعل، ولكنني حقا لم أتمالك نفسي في الثواني الأخيرة عندما تخيلت شكل مديح وارثسم وجهه أمامي وهو غارق في دمائه وملقى فوق التراب بلا حراك. فأخذت أفرك عيني بشكل قوي وقد امتلأت أصابعي بالدموع، وعندما رفعت يدي من فوق عيني وأخذت الرؤية تعود أمامي بشكل تدريجي لمحت بعين دامعة، امرأة تجلس أمام المكتب، وفي يدها تلملم ملاءة ملفوفة حول وسطها، وأتعرف على ملامحها عندما ركبت الغيوم من عدسة عيني بأنها أم سعيد. تبكي هي الأخرى وتعدد في بعض الأوقات وهي تدلي بشهادتها، والتي لم أجد بها أي شيء مفيد، على أنني ومن داخلي أعرف أن أم سعيد قد شاهدت كل شيء من الأعلى هي وزوجها.. شاهدت تلك الطعنة الأولى التي طعنها "أشرف" مديح بعد أن كتفه أخويه، ولقد شاهدت الطعنة الثانية بعد أن قال له كل منهم ما بداخله من كراهية وحقد، ثم الضربة الأخيرة التي أصابت عنقه وذبحته. وعلى إثرها سقط أرضا بلا حراك. لقد شاهدت أم سعيد كل شيء ولكنها لن تقول شيئا، إنها معلقة مع "أشرف" بالمصير نفسه. لذلك فهي لم تشاهده هذا اليوم مطلقا، إن "أشرف" بالنسبة لها في غيبوبة بالمستشفى، ومن تسبب له بها هو القتل نفسه. ليس هو الجاني ولا يمكن أن يكون هو. كما أخذت أم سعيد تذكر كم كان الفتى مضطربا في الأيام الأخيرة، وكيف كان خطيرا. كما قصت أم سعيد في شهادتها تلك الواقعة التي حدثت لي في أثناء صعودي لمنزل أم سعيد، وتلك الطريقة التي ظهرت عليها عندما وصلت لشقتها، عندما كان مديح هابطا من عندها. وأخذت تصف هيئتي عندما صعدت إليها بعد عدة صرخات أطلقتها باسمها من جراء الفاجعة التي حدثت لها

على السلم، لم أقص عليها ما حدث، ولكنها استنتجت أن مديحًا قد تحرش بي بطريقة ما، إنها امرأة سوّ. ويمضي بها عقلها إلى استنتاج كل ما هو سوّ مثلها. ثم تنطلق أم سعيد نحو الخارج بعد أن أكملت شهادتها.

كما حضر عرفة صاحب المقهى الكبير الوسعاية، وأدلى بشهادته وما شاهده من اضطراب في شخصية مديح، وكيف كان عدوانيا، ومدى التصرف الأهوج الذي قام به ضد "محمد" السمكري زبون مقهاه دون أن يفعل الرجل أيّ شيء، وكيف تطور الأمر ليطول "عجينة". ولقد دقق في ذلك الوقت السيد المستشار بموضوع "عجينة" هذا ببعض الأسئلة، ومن ثم أكمل استجواب الشاهد فيما يعرفه.

ثم حضر طارق، ولم تكن شهادته مختلفة كثيرا عما سبق وشهد به عرفة، أو "صاحي"، أو حتى الحاج رأفت.

تدخل والدة مديح فيما بعد، امرأة منهرة، كثيفة الدمع حزينة الملامح. الكآبة تعم جميع هيئتها. تلك المرأة التي لطالما عرفتها على أنها امرأة قوية ذات كبرياء، مختلفة في بعض الأوقات، ولم أكن أدري لماذا؟ فلم تكن من عائلة كبيرة، ولم يكن أهلها من ذوي المال أو النفوذ. لكن كانت لديها دائما نزعة كبرياء ترتقي لأن تكون غرورا. ها هي الآن كما لو كانت طريحة فراش من الأحزان، لا تقوى على تحريك أقدامها وهي تخطو من أمامي إلى نحو المكتب، حتى إن السيد المستشار بنفسه، وهو الذي يشعرني أنا وكأنني على أعتاب الجنة والنار بكلمة واحدة منه، قد نهض بنفسه من فوق مقعده ليأخذ يدها ويجلسها، لقد كانت حالتها صعبة، وتترك بالقلب غصة لن يشعر بها سوى أمّ مثلها، ومثلي. ولكن من داخلي أجد كثيرا من اللوم الذي ألقيه على كتف تلك السيدة، فلم تكن مهتمة بابنها، ولم تكن قريبة منه، ولم تشعر بكم الحب الذي أحبه لها.. كنت أيضا ألوم عليها بشكل أكبر في التوقيت الذي اختارته للزواج، فهي لم تتزوج عندما كان ابنها طفلاً فيتخطى الأمور ويعبرها، أو عندما يصبح رجلا

فيصبح مسئولاً وواعياً وصاحب خبرة. لكنها اختارت السن الذي يقتل الشاب ويجعله ينكسر. أنا لا أدري لماذا يحدث هذا عند الشباب في الحقيقة، فأنا في النهاية امرأة، ولكنني أيضاً أتفهمه. وأستوعب أنه يحدث بالطبع، بالأخص عندما يكون هناك معارضة شديدة من هذا الابن. ليته كانت بجواره.. ليته اعتنت به.. ربما كان الآن حيٌّ يرزق. في حال أفضل كثيراً من حاله. لقد كان صغيراً جداً على ما حدث له، وجمالاً جداً على ما ناله من عذاب وتشوه. ليته لم تصرخ، ولكن الندم لا ينفع الآن. خاصة بعد أن شاهدت أن معظم كلمات المرأة هي عبارة عن لوم لنفسها وندم، وعلى ما ألوم عليها به بالضبط. أسمعها تقول إنها السبب، "هي من تركته". "كسرت نفسه يا حبيبي". وما إلى ذلك من كلمات النواح واللوم التي لن تعيد لها ابنها ولو للحظة، ولن يعود بها الزمن حتى تصلح ما حطمته. وانتهيت بعد مداولات داخل عقلي أن مديح هو من وضعنا جميعاً في هذا الموقف الآن. حتى أم سعيد التي أعلم تماماً أن أشرف قد هدهدها بفضح أمر شراكتها سوياً في تجارة المخدر إذا تحدثت بشيء، وأعلم أن المرأة لن تضحي بنفسها من أجل مديح.. إن هذا أمر طبيعي، وتلك المرأة أيضاً، سوف تكمل حياتها بعد شهر أو اثنين بجوار زوجها الخضري، وهي لا تبالي بذلك الفتى الذي ضاع في مهب الريح.. حتى أنا أيضاً عليّ أن أتعلم منهن وأن أسعى لتأمين زوجي قدر الإمكان، فإن كون ابنتها ابنة رجل بسيط أفضل كثيراً من كلمة يتيمة الأب.

فيما بعد، تعدد الشهود من سكان المنطقة، منهم البعيد ومنهم القريب، وتكررت أمام المستشار كلمة "يتحدث مع الموتى" كثيراً، وأيضاً تكررت أمامه كلمة يسكن مع الموتى، ولقد لاحظت أن المستشار انتبه جداً لتلك الكلمات في كل مرة كان يسمعها بها، وكأنها معضلة عليه أن يتفادها قبل أن يقع في فخ الشعوذة والدجل ويتبع كلماتهم لطريق الخزعبلات.

إلى أن اقتحم "أيمن بيك" المكتب، وفي يده "عجينة"، وقال بعد طلب الإذن من المستشار:

هذا هو المشتبه به الأساسي يا فندم، لقد كان في مسرح الجريمة، ويعتلي هامته هذا الجرح من جراء الاشتباك.. كما أنه قد اشتبك في عركة مع المجني عليه منذ يومين فقط، وقد تسبب في جرحه وكدمة كبيرة بوجهه.

ينهض المستشار ويقول وهو يشير بيديه:

جميعكم إلى الخارج.

نهضت وقتها وأنا أنظر نحو "عجينة"، لقد كان هو المشهد الأخير من حادثة القتل الذي أذكره ويعاد كل لحظة أمام عيني مرة أخرى.

كنت وقتها أنظر من النافذة، أسمع همهماتهم وسباب أفواههم لمديح. وفي المرة الأخيرة هم ليقف على قدميه ويجلب "أشرف" إليه ولكن "أشرف" باغته بضربة عرضية من نصل خنجر حاد في يده الأخرى فنحر رقبتة نحرا. فترنج جسده قليلا قبل أن يرتطم بالأرض. وضربت صدري بيدي، وكادت أم سعيد أن تصرخ من شرفتها، ولكن "أشرف" وقف يدور فوق جثة مديح وهو ينظر نحو جميع النوافذ بالأعلى، وكأنه يتمنى أن يحشر أحدهم أنفه بالأمر. فأخذ زوجها يكتم أنفاسها بيده حتى تصمت تماما عن الحديث أو ينطلق من حلقها أي صوت.

في تلك الأثناء وعند التفافة الطريق المقابلة للمنزل الأصفر، ظهر "عجينة"، وقد كان يسير بين جدران الطريق متسللا، على ما يبدو أن أحدهم أرسله، أو أخبره وهو قد جاء من نفسه. ربما يريد أن يضرب مديحا مرة ثالثة بعد أن يتهالك في العركة، إن كان يظن أنها عركة، لا يعلم أن مديحا سيكون مذبوحا. لكنني علمت بعد ذلك أن "عجينة" قد أتى ليتربص بمن ربح العركة أيا كان هو. حينما شاهدته وهو

يختبئ خلف جدار ممسكا حجرا ويود ضرب "أشرف" به وهو يعبر خارج الحارة الضيقة. لكنني صحت قبل أن يفعل:
"أشرف" احترس.

تفادى "أشرف" ضربة الحجر من "عجينة" وضربه بنصل الخنجر في هامته ومن ثم لكمه بقوة ثور في فكه، فخر على ركبته حينما رأى الدماء وأغشي عليه لدقيقة أو اثنتين من قوة اللكمة. عندما همّ لترك المكان وأخذ يركض مبتعدا، كانت سيارة الشرطة تعبر الالتفاف الضيق عند مدخل الحارة، وبداخلها "أيمن بيك" و"مراد بيك" صديقه، وخلفهم ثلاثة من سيارات الشرطة. فتأرجح "عجينة" قليلا وهو يحاول التوقف ثم الدوران، وأخذ الطريق المقابل الذي يؤدي إلى بيت البرغوثي. ولقد سمعت "أيمن بيك" بأذني وهو يهبط من السيارة قائلا بعلو صوته بعدما رأى جثمان مديح:

القوا القبض على ابن الكلب هذا.. ساعة ويكون أمامي مرة أخرى.

لكنني كنت قد رأيت "عجينة" أيضا وقد اختفى، وشاهدت أيضا أربعا من الجند يعدون إلى الاتجاه الذي اتخذه لتنفيذ مأموريتهم. ثم يكمل هو ومراد بك طريقهم سيرا على الأقدام، حتى إذا ملح جثمان مديح الملقى أمام منزله فهرع يركض نحوه. وسمعت أيضا "أيمن بك" وهو يتحدث عبر جهازه طالبا الإسعاف، وطالبا معها العمل الجنائي، ثم نهض على الفور وأحاط الشارع بالكامل بشرط أصفر، ومنع جميع الناس من المرور إلى الحارة الضيقة. وقد سمعته يشدد جدا على المعمل الجنائي بأسرع وقت.

وما تفهمته من حديث "أيمن" إلى مراد أن "أيمن" لن يصمت على ما حدث، ولن يمر. وسمعته يقول إن ذلك الشاب كان مثل الورد وهو مجرد ضحية. وإن المتسبب الحقيقي بموته يسري داخل دمائه، وكان يشدد على صديقه جدا أنهم عليهم

إيقافه.. حتى إنني سألت نفسي وقتها كيف يقفون شيئاً يسري في دماء قتيل؟
أسيدخلون إلى شريانه أم سينفذون منه عن طريق حقنة عضلية؟ إنها مجرد أقوال
شرطية تضفي عليهم الأهمية فقط فيتحدث الناس عن عملهم الشاق. لا يزال عقلي
رافضاً تصديق ما حدث، ويحاول شيء داخلي أن يجعلني قوية، ومتماسكة عن طريق
التهكم على بعض ما أشاهده حولي أو ما تسمعه أذني.

لم أرَ ما حدث بعد ذلك فقد كنت قد تلقيت استدعاء من النائب العام على
الفور، ولقد شكلت النيابة لجنة تحقيق على الفور. فقد أصبح مديح في ذلك الوقت
حديث الساعة بسبب قضية الاغتصاب التي نشرها له أبناء البرغوثي بالجرنال. فإذا
بذلك المنشور يجعل من موت مديح سؤال المجتمع الذي يبحث جميع الناس عن
إجابة له. فعملت النيابة منذ إخبارها بالحادث وبدأت المباحث في جمع الأدلة،
وشكل السيد المستشار تحقيقاً مزدوجاً بين تحقيق مع المشتبهين والشهود بالنيابة
وأخرى للمعاينة الميدانية، ومتابعة ما ترصده المباحث أولاً فأول، بعد أقل من
ساعتين على موت مديح فقط.

مع نهاية اليوم، وقبل أن أرحل، كان وكيل النائب العام قد أمر بحبس
"عجينة" أربعة أيام على ذمة التحقيق. كما أمر سيادته بالإفراج عن السيد "أشرف
محبوب"، بعد أن تبين للنيابة أنه كان في مكان آخر وقت وقوع الحادث، وهي الأدلة
نفسها التي أكدت وجود إخوته إلى جواره بالمستشفى الذي كان يعاني بداخلها من
حالة غياب تام عن الوعي. ويتم الإفراج عنه من القسم التابع له ما لم يكن على ذمة
قضايا أخرى.

كتمت فرحتي بسبب سماعي الكلمة الأخيرة، والتي تعني أن "أشرف" سيظل
سجيناً بالمستشفى حتى يستطيع الذهاب إلى القسم للكشف عن سجله، والإفراج
عنه من هناك. بعدما كان النائب العام قد أصدر قراراً في بداية تحقيقه بالتحفظ عليه

داخل المستشفى. لكنني عدت لأبتسم مرة أخرى، فما هي إلا ساعات ويستطيع "أشرف" أن يتحرك نحو القسم، والليلة سوف يبيت في منزله. لكن ما لم أتوقعه هو: إن "أيمن" قد نفذ تهديده، وإنه لم يترك الأمر كما قال، وإنه اتجه بتقرير المعمل الجنائي بعد أن بحث عن "عجينة" ووجده إلى النائب العام، وتقدم بالتقرير الذي يوضح نوع المخدر، ومدى آثاره الجانبية على الإنسان، وما إلى ذلك، كما تبين للسيد المستشار أن العقار الموضح في التقرير لم تصرح به أية جهة من الجهات بعد، وأن تداوله يعد جريمة لا تقل عن جريمة قتل الشاب نفسها، واتخذت القضية مسارًا آخر. جعل "أشرف" حينما يصل إلى القسم يتم التحفظ عليه على ذمة قضية إتهام، بعدما شهد أحد زبائن المقهى الكبير في الوسعاية بأنه رأى "حوده"، واسمه الحقيقي محمود الصعيدي؛ وهو يعطي بعض الحبوب لمندو الذي أعطاها بدوره لمديح، وحينما تم التحقيق مع "موزة"، في أثناء ما كانت "سماح" بالمستشفى مع "أشرف"، وقع "موزة" بلسانه ببعض الكلمات التي استخدمها النائب العام ضده ليؤح بكل شيء، وعندما حضر "أشرف" باح لهم بعلاقته مع "ضاحي البرغوثي". ولم يمضِ الوقت بعد حتى أصبح ذلك الرجل الكبير الذي كان يعاملونه وكأنه إله من الأصنام، والذي لم يكن سوى أحد رجال الأعمال الكبار المرشحين لمجلس الشعب عن المنطقة ليس إلا. كانت تلك هالة زائفة تحيط بالرجل في كذب. لم أحبها على أية حال. إن الرجل أقل من أن ينقذ نفسه مما هو فيه. وتحولت الأمور إلى طريق آخر، طريق لا يقول إن أحدًا منهم سوف يعود كما كان ليلة أمس على الإطلاق.

ظلت الحارة مستيقظة لليلة الرابعة على التوالي، ولكن هذه المرة كانت بسبب توسع خيوط القضية مع كل ساعة، واستدعاء بعض أهل الحارة مع كل دقيقة وثانية، وحتى الرابعة فجرا. وعلى ما يبدو أن القضية لم تتخذ مسارًا بطيئًا كعادة كل

القضايا. بل تحدت لها جلسة بعد خمسة عشر يوما وبدأت بالعرض على القاضي منذ ذلك الحين، وحتى صدرت الأحكام. التي كانت كالآتي كما فهمتها:

لم يكن "عجينة" قاتلا، ولكنه كان يهوى سرقة انتصار الآخرين، وها هو هذه المرة يسرق ما هو كبير عليه جدا، وهي جريمة قتل. لم يرتكبها كجميع انتصاراته التي لم يحققها بل سرقها، وكان عقابها هو الإعدام شنقا.

كانت أمنيات أبناء البرغوثي دائما هي كسر مديح أمام نفسه وأمام الآخرين، حتى من قبل أن يتعاركوا معه كان أغلبهم يذكره بمدى فقره أو يعايره بوحده وهو يلح لسبب وحدته وهو زواج والدته، وكان أغلبهم يحاول كسر نفسه عن طريق تسديد دين للقهوة بحجة المجاملة وغيرها من المعاملات السيئة التي كادت أن تنتهي بالسجن، ولكنه لم يسجن وهم من سجنوا، وكان السبب الرئيس خلف سجنهم هو ذلك الإعلان الذي قالوا عنه إنه بلاغ للنائب العام. والذي تسبب في شهرة مديح، وتحولت القضية في حينها من قضية قتل لبلطجي عادي إلى قضية رأي عام يريد فيها الجمهور قرارًا. مما أدى إلى كشف جميع الخيوط بسرعة غير مسبوقة. فهم لم يكونوا في الحقيقة سوى مجرد هواة أضاعوا مستقبلهم دون ثمن. فتم سجن "ضاحي" البرغوثي خمسة عشر عاما، ومثلهم للرجل الكبير، الذي لم يكن سوى وجهة فقط لمجموعة أجنبية منهم دبلوماسيين وغير ذلك لم يتم المساس بهم. وتم سجن "أشرف" سبع سنوات، و"مندو" ثلاث. كما تمت مصادرة تراخيص صيدليات شقيقات "مندو"، وحظر مزاولة العمل عليهن مدى الحياة.

بعد تلك الأحكام واجبة النفاذ ذهبت لرؤية قبر مديح سرًا، ودون أن يدري بها حتى أقرب الأقربين، وساعدني في هذا أنني أصريت بعد حبس "أشرف" أن أظل في بيتي وأن أبيع بعض الخضروات في السوق كي أتمكن من إعالة نفسي وإعالة ابنتي، وقد صرف "أشرف" الثمانية آلاف جنيه على جريمته في رشوة الحارس، وما تبقى

منها على مصارييف المحامي ليخرجه من الجريمة الأخرى وهي تجارة الأدوية المخدرة. بعد أن ظلت عيني معلقة بشاهد قبر مديح، وأنا أقرأ له الفاتحة وأتذكر كل ما جال وصال داخل عقلي من ذكريات، سواء أكانت أحلامًا داخل عقلي أم مشاهد حقيقية قد شاهدتها من خلال النافذة أو في الشارع. حتى إذا وجدت صوتًا همس بجوار أذني، صوت وكأنه يقرأ القرآن فنظرت باتجاهه لأجد "أيمن". لم أدر ما أقول أو ما أفعل.

فقال هو بعد أن صافح يديه معا فوق وجهه:

- كنت تحببته أليس كذلك؟
- لا تقل هذا يا بيبك؟
- لماذا يا "سباح"؟ هل تتصورين أن كل امرأة في الدنيا تحب زوجها ولا تحب رجلاً آخر، هل تجددين من لا تزال تحب شخصاً آخر حتى بعد أن أحبطت وتزوجت غيره. ليس هناك شيء كهذا أوكد لك.. أو هكذا أعتقد أنا.
- تستطيع أن تقول.. إنه قد أثر في.
- هو؟ أم ما حدث له؟
- الاثنان.
- لكن هناك كثير مما لا تعرفينه عنه.
- بالطبع.
- لقد طلب مني وكيل النائب العام بعد أن سمع كلمة يتحدث إلى الموتى كثيراً وأشياء من ذلك. أن أتحري الأمر له بنفسي. بما أنني أعرف أهل المنطقة، ولقد ساعدته كثيراً لكي يحل القضية لذلك السبب. في الوقت نفسه شككت أنا في شيء ما وبالفعل قد أوصلني إلى كثير من المعلومات التي كادت أن تحتفي لولا أن لمحت تلك الورقة لدى مديح.

- وماذا وجدت، هل اتضح أنه كان يكلم الموتى حقاً؟
- لا.. الأمر ليس كذلك على الإطلاق. لقد للممت أركان الموضوع من مواضع شتى ومن أشخاص عدة، ولكنني عرفت عنه كل شيء حتى أبسط الأشياء.
- وماذا عرفت؟
- ربما تترتاحين حينما تعلمين، لذلك سوف أقول لك.
- أرجوك.

تنهد "أيمن" ثم قال:

- الأمر كله قد حدث داخل وحدته بالجيش، حين استعجب القائد أحمد وهو رائد في الجيش، بأن مديحاً يتصنع كونه مريضاً، ويتحدث إلى نفسه كثيراً وكان من يتحدث إليه هو شخص اسمه "مندو" في أغلب الأوقات، وقد عزل نفسه عن باقي الجند وغير ذلك من الأشياء التي يجب على القائد الانتباه لها، فإن من الخطر جداً أن تترك سلاحاً لإنسان غير سويٍّ عقلياً، ومن هنا أتى الاعتقاد عند القائد أن مديحاً يحاول الهرب من قضاء الجندية متصنعاً هذا السبب.. كان للرائد أحمد صديق يدعى فتحي الورداني، وكان يعمل طبيباً للأمراض النفسية والعصبية، وحينما قال له القائد قصة مديح اقترح عليه أن يراه. لكن أحمد اعترض بحجة أن الجندي سيتفهم أن أحمد يسعى خلفه، وإن كان يمثل سيزيد من الأمر ويحترس له أكثر، وإن لم يكن لا، فلربما تكون له ردة فعل غاضبة تضع أحمد في موقف لا يريده. فانتهوا إلى أن يجد له صدفة يرسله بها إليه، وما هي إلا يومين حتى وجد أحمد ضرس مديح متورماً، وهنا نصحه بأن يزور الدكتور علي عبد الحميد الورداني، والد فتحي الورداني صديق الرائد. كما قال له أحمد: "إنه قبلها بوقت قليل لقد تعمدت أن أقربه مني قليلاً، وفي ذلك اليوم دعوته ليمكث معي في غرفتي، وسيكون بعض الزملاء متواجدين، وسنسهر قليلاً لنلعب الشطرنج. وعندما حضر أخذت أفصح بعض المواضيع في السياسة قليلاً فتحدثت عن علاوات

الموظفين في هذه السنة، ولتحدث في الفن في بعض الممثلين والممثلات، ولقد استوقفني أنه كان حاضرا جدا في أسئلة سياسية، واقتصادية، وقد كان يتحدث بهم جيدا ومركزا جدا. حتى إن موضوع كشف العلاوات والموظفين قد أخذ منا ما يقرب الساعة."

- لقد شاهدته من النافذة وهو يتحدث في ذلك الموضوع.. أتذكره جيدا، لقد كان جالسا على الرصيف بمفرده قرب الفجر، وكما لو كان يتحدث إلى "سرور"، ولكنني عندما نظرت من فتحة صغيرة في النافذة وجدته بمفرده، كان جالسا على سلم بيت "الكباب جي".

يزدرد لعبه متفهما ويعود إلى أفكاره مرة أخرى بعد سماع تعليقي ليضيف:
- اتفق الدكتور فتحي على أسلوب يتحدث به والده وهو يراقبه وطلب منه الضغط على بعض ردود أفعال مديح حتى يتفحصه وهو يجلس بعيدا دون أن يشعر به مديح، وإن شعر به فيظن أن تواجده ومكانه شيء طبيعي بالنسبة للطبيب، فلا يسأل. ومن ذلك اللقاء أكد الدكتور فتحي للقائد أحمد أن الشاب لديه بوادر مرض يدعى الزهايمر، أو الفصام كما يجب أن يطلق عليه جميع الناس. من هنا أردت أن أشاهد تصوير الفيديو للمقابلة، والتي حرص عليها الدكتور فتحي دون أن أدري لماذا كان مهتما هكذا، حتى إنه هو نفسه قال لي أنه لم يكن يعلم لماذا هو مهتم هكذا، سوى بعد أن مات الشاب، وعلم أن هذه آخر ذكرى مصورة ستكون موجودة له. كان قد أوصى الممرضة ببعض التصرفات معه، وشاهد كيف تلقاها هو، حتى إنني أيضا فهمت من ذلك التصوير كثيرا، فلقد كانت تلك هي اللحظة الأخيرة له قبل أن يفقد عقله، فلقد تبين من أقوال الشهود، ومن أقوال "حوده"، أنه قد تلقى تلك الحبوب بعد عودته من مقابلة الطبيب بحوالي الساعتين.. لقد لفت انتباهي ردة فعله مع تلك الممرضة حينما حاولت أن تندesh من اسمه، لكي يرى الطبيب إن كان الشاب سريع الغضب، ولديه بعض

التحفظات على الآخرين أم لا، ولكن ردة فعله ذهبت بالطبيب إلى شيء آخر تماما. ذهبت به إلى ما يتربى عليه هؤلاء الشباب داخل تلك المجتمعات المغلقة من تعاليم مغلوبة وأعراف ليس لها أساس، فتجد كل شيء شديد الخطورة ظاهرا بينهم أكثر من غيرهم، ولكن لا أحد يراه لانغلاقهم على أنفسهم. تجد الفتنة الطائفية بينهم واضحة جدا، وينفر بعضهم من الآخر وكأنك دعيت أحد أصدقائك على إفطار رمضان واكتشفت أنه مفطر. تلك النظرات المتوعدة، والمشمئزة، والتعامل بتقزز وتكبر دون أن تدري لماذا فعلت ذلك. لكن هذه هي طبيعة تلك المجتمعات، والتي تتعلم الدين على يد الجهلاء داخل الزوايا والطرقات الجانبية، وتنشأ في مدارسهم العادات القبلية، فتدخل المدرسة لتجد أبناء المسيحيين في مكان وأبناء المسلمين في مكان آخر، حتى وإن كان في أوقات الراحة التي تفصل بين الحصص. تلك الجرعات الزائدة والمبالغ فيها بالكرامية والحقد تجاه أي شيء حتى ولو كان النجاس. وهذا بالضبط ما تفهمه مديح من تعبيرات المرأة، والتي كانت مع ذلك مشفقة على حالته، ولكنها تتبع كلمات الطبيب بأن تكون صارمة معه، وأن تعطي له الموعد خطأ، حتى يشاهد الطبيب إن كان مديح يعي بما حوله جيدا أم أنه يدخل في نوبات شرود تنسيه ما يحدث حوله. كان الطبيب ممتازا، حتى إن تقريره كان وافيا للقائد أحمد الذي كان يسعى في إجراءات إعفاء مديح من الخدمة العسكرية. عندما تأكدت من المستوى العالي الذي وجدت عليه الطبيب تشجعت.

يدلل على كلماته ببعض إشارات من يديه وهو يضيف لي:

ذهبت إلى الطبيب بصفة ودية، وقطعت لديه كشفاً في عيادته، وحينما أكملت للطبيب ما تبقى من تصرفات قام بها مديح على مدار الثلاث ليالٍ التي تلي لقاءهما أضاف لي أن مفعول العقار الذي أخذه مديح قد أظهر عليه جميع أعراض المرض من الجرعة الأولى، وأنها قد تسببت في تلك الخيالات التي كان يراها، ولأن الموضوع قد أثار انتباهه، فقلّة

هم من تصادف أمامهم حالة ذهان كتلك، فأخذ يبحث معي عن السبب الذي اختار مديح من أجله "سرور" بالذات ليكون شخصية خيالية يتحدث إليها في أثناء حيرته، وقد تبين لنا أن "سرور" كان هو الصديق القبيح صاحب اللسان الطويل، الذي يقول الحقائق مجردة من أي تجميل أو تقويم. وأنه من كان يدفعه دائماً لكي يسهرُوا إحدى سهرات الخيام العربية التي يتناولون فيها خيوط الحديث في أثناء مشاهدة راقصة حسناء مع دخان النرجيلة والحشيش. ولهذا فقد كان هو الملجأ لكل ما يعرف مديح أنه خطأ ولكن يريد أن يفعله، فكانت الوظيفة الحقيقية لـ "سرور" الوهمي، هو إيجاد المبررات التي تجعله يقدم على هذا العمل دون أن يكون غاضباً. ولأن مريض الفصام دائماً ما يشعر أن له أهمية قصوى تجعل أهم الجهات تتجسس عليه وتطارده، ولأن له مكانة عليا فإنه يجب أن يكون هناك لأفعاله جمهور، وقد كان هذا هو "سيد". من التحريات عن سيد ثبت أنه كان شخصاً حسن الطباع حسن الأخلاق مجاملاً إلى أقصى الحدود، يقدره الناس لكونه يقدرهم ويمتدحهم كثيراً، وشخصية وقورة ومشجعة كتلك لن يجد مثلها مديح كجمهور له.

- وماذا عن موت "سرور"؟

- إنها مجرد صدفة.. إن لم يكن قد مات فلن يكن ذلك ليمنع مديح من رؤيته، والدليل أن هناك من سمعه يتحدث لـ "سرور" دون أن يكون متواجداً قبل أن يرحل "سرور" عن المنطقة.. هناك من سمعه أيضاً وهو يتحدث إلى "مندو" ولم يكن وقتها موجوداً، و"مندو" لا يزال حياً يرزق.

- ربما.. لكن ربما أيضاً يتحدث إلى "مندو" آخر.

- "مندو" آخر؟!

- لمندو الذي تعرفه شقيق توأم مات في الزلزال، وقد كان هو الصديق المقرب لمديح، ولأنه كان توأمًا لمندو هذا الذي نعرفه الآن، فقد كان الناس ينادوهم بالاسم نفسه في

منطقتنا التي لم يهبط إليها "مندو" الحالي إلا بعدما مات شقيقه. مع ذلك فكل من كان يعرف الاثنين يقول إن شتان الفارق بينهم.

- ولما نستبعد أنه يتحدث إلى "مندو" المتواجد الآن؟

- أنت أكيد من روايتك إذن؟

- هذا ما حدث.

- لكن ما سبب ذلك المرض؟

- والدته.. لقد كانت والدته هي أهم سبب يحيا من أجله، وعاش عمره بالكامل يتصور أن والدته قد ضحت بسعادتها من أجله هو وأشقائه، ولكنه اكتشف في النهاية أنها لم تبقَ عليهم سوى لكي تضغط بهم على والدهم حتى يعود إليها فتتشرط عليه وتتعالى عليه، وربما لم تكن لتعود له أيضا بعد كل هذا. ولذلك فلقد ذاق مرار الخداع الذي قبل أن يستفيق منه ففاجأته بأنها سوف تتزوج. وعندما عارض لم تسمع منه، ومن أقوالها المثبتة في محاضر النيابة، أن زوجها لم يكن يستطيع أن يمر من طريق يمر منه ولدها من كثرة ما توعد به مديح من شر. لكنها ومع ذلك في النهاية تزوجت، وتركته وهو شاب يلاقي مصيره بين استهزاء واستخفاف الناس وحقدهم وتنمرهم بالآخرين داخل ذلك المجتمع الموحش. حتي أصدقائه، منهم من قال له: "هل عادت والدتك من شهر العسل أم مازالت" ومنهم من قال: "مرحبا بابن العروسة"، أو: "من قده اليوم أن والدته عروسة" ليُعرض الشاب، وقد كان زينة الشباب في ذلك الوقت لأكبر عدد ممكن من التنمر داخل منطقته. مما يدفعه أن يهرب إلى الجيش، ومن هناك قضى وقته بالكامل في عزلة، قد مهدت الطريق إلى المرض ليسكن عقله، ومع أول جرعة من المخدر ظهرت لديه كامل الأعراض.

ثم ينظر إلي بابتسامة مأكرة ويقول بهدوء:

- أنا أعلم أن زوجك هو من قتل مديح، وأصدق رواية "عجينة".

- لكنك لا تستطيع إثباتها.
- لم أحاول في الحقيقة.
- ولماذا؟
- لأنني مؤمن أن في النهاية تتحقق العدالة حتى وإن كان ظاهرها ظلم. ربما لا يستحق زوجك الإعدام، ويستحقه "عجينة". إنها إرادة القدر والتي دائماً ما تكون عادلة. من تسبب في موت مديح هو مرضه، ومن تسببوا في هذا المرض اجتمعوا جميعاً أمام وكيل النائب العام ولم يكتشفهم، ولهذا فإن إرادة القدر نافذة.
- حقاً إن إرادة القدر دائماً ما تكون عادلة، وليس فوقها إرادة.
- لكنني كنت أريد أن أعرف منك ما حدث، وسيظل بيننا وكأنك لم تبوح به مطلقاً. يناولني ظرفاً كبيراً، ويطلب مني فتحه.
- أفتح الظرف لأجد بعض الرسومات التي طبعت عليها صورة لي مرسومة بقلم رصاص، بعضها لوجهي وبعضها لهيئتي كاملة وأنا أرتدي بعض الملابس التي أملك مثلها، وهناك أيضاً بعضها بدون ملابس من وحي الخيال. ومن ثم خطاب ما أن قرأته حتى أخذت في البكاء والنواح الشديد. لقد علمت من خلاله أن حب مديح لي لم يكن هناك مثيل له على الإطلاق.
- يقول "أيمن":
- في البداية لم أدرك أنه يقصدك أنت باسم "سماح" في خطابات، ولكن فيما بعد اكتشفنا تلك الرسومات، والتي لم يكن لشخص أكثر منك نصيب في رسمه. فعلمت أنه كان يقصدك أنت، ولذلك تفهمت لماذا عندما شعر بالخطر اختار أن يتوارى داخل بيتك أنت، لقد كان يبحث به عن الأمان. لكنه لم يجد سوى القبر، وها أنت الآن تعلمين من المتسببين في مرضه، ربما موت "مندو" في توقيت زواجك نفسه، ولم يتعد ذلك التوقيت عن توقيت زواج والدته.. لقد تخلى عنه جميع الناس. الحياة التي كان يتمني أن

يحياها، والفتاة التي تمني أن يتزوجها، والسيدة التي اختار التضحية بكل شيء من أجلها، والصديق الذي كما قلت أنت انه كان شيئاً مختلف عن كل سكان الحارة، حتي عن شقيقه التوأم.

أقول في محاولة للسيطرة علي نوبة بكاء عارمة، وكأنني لم أكن أسمعه:

- ولكن لماذا لم يخبرني من قبل؟

- ظاهر هذا جلي في خطابه.

- كيف؟

- إنه يحبك بطريقة جعلت منك شيئاً لا يستطيع أن يفتح به عينيه، ولقد اختلق شخصية "سرور" لهذا السبب أيضاً، فلقد كان حبك مسئولية "سرور"، ولقد كان هو من يرسمك، ويكتب لك الأشعار، والخطابات، حتي لا يكون مديح هو من يفعل. حتي إنه لم يحاول ولو مرة أن يصارح نفسه بأنه يحبك، مما جعل كراهيته لزوجك أيضاً تكون مسئولية "سرور" فأخذ يقول الشائعات عن زوجك وكأنه "سرور"، وليس مديح.

- كيف عرفت ذلك؟

رفع لها تلك الأوراق في يدها وهو يقول:

- انظري إلى ذلك الإمضاء.

- بالفعل.

أقولها وأنا أقرأ عند طرف الرسمة والأشعار والخطاب اسم "سرور" بدلاً من مديح، فيقول "أيمن" على الفور:

- لقد تأكدنا أن هذا هو رسمه وأن الخطاب أيضاً بخطه وجميع تلك الأشعار.. لم يكن لـ "سرور" دخل بالأمر.

- لقد حاول أن يغتصبني وتحرش بي بالفعل.

- نعم، هذا من تأثير المخدر، والذي لم يستطع مع السيطرة على نفسه في ذلك الموقف، فعندما رأى جسدك أمامه على حسب روايتك لم يعد هو من يتحكم به، بل ذلك المخدر مع الغريزة. أتمنى أن تصارحيني كما صارحتك.. أنا لا أريد شيئاً سوى معرفة الحقيقة فقط.

تفهمت مقصده، وأنا أعلم أنه رجل صاحب كلمة، هو فقط يريد أن يعرف لنفسه ليس إلا، فأقول:

- في ذلك اليوم، كان شقيق "أشرف" قد أرسل أحد الصبيان ليقنفي أثر مديح ولا يتركه أبداً، وحينما أصبح مديح داخل مقبرة الصدقة، وهي في منطقة قريبة من بيت أهلي، وبيت أهل "أشرف"، فانطلق الصبي إلى حيث بيت حماتي، كي يخبر شقيق أخي عن مكانه، وكان لدى حماتي هاتف بمنزلها، ولكنه تفاجأ هناك بأن حماتي وبعد غياب سنوات قرر أن يأتي ليعرف ما حدث لولده، ويتأكد مما كانت قد أخبرته به حماتي مسبقاً، وكان معه ولده الصغيران، أشقاء "أشرف" من ناحية الأب فقط. لكن الرجل حينما ذهب وأبناؤه إلى تلك المقبرة لم يجده، وقد أضاعه موزة بتركه هناك وحده. وذهب كل منهم لبحث في مكان، واتفقا أن يلتقيا الساعة الخامسة عند منزل "أشرف" إن لم يجدوه، وأن من يجده يحاول أن يعود به للآخرين في الموعد نفسه، ولقد عاد الأبناء في موعدهم دون أن يجدها، ولكن حماتي عاد به بعدها، وتركه يصعد إلى منزله حتى يخبر باقي أبنائه ويدبر معهم ما سيفعلون بعدها، وحينما وجد "أشرف" موجوداً سمح له بأن يأخذ انتقامه بيديه. بعدما كان "أشرف" قد وجد طريقة ليخرج بها من المستشفى دون أن يراه أحد.

- كنت أشعر أن هذا ما حدث.

وأنا كل لحظة أشعر وأرى كل ما حدث.. لقد قتلوه أمام عيني، ولقد تشفيت به، وما قتله سواي. لم أكن أستحق حتى لحظة من تلك اللحظات التي كتب لي فيها تلك الكلمات، أو حتى رسم تلك الخطوط التي كونت وجهي.

أقولها ومن ثم أترك المكان لـ "أيمن" وأذهب في طريقي حتى أعود إلى منزلي وأخذ ابنتي وسبت الخضروات وأهبط إلى السوق بعدما شعرت أنني قد كبرت مائة عام في تلك الساعة التي تركت خلالها "أيمن" وعدت، لأمضي على هذه الحال الأيام ومن ثم الشهور والسنوات، وما هي إلا عامين ومات "مندو" داخل السجن متأثراً بجروح عميقة أحدثها له غريم بالسجن، ليتجدد السؤال مرة أخرى في عقلي، هل حقاً كان يتحدث مديح إلى الأموات. أنا لست أكيدة من هذا الأمر الذي يظل يضغط على عقلي لسنوات ولن يتركني أبداً، ولكن كل ما كنت متيقنة منه هو: تلك الحكاية التي سمعتها من والدي عندما كنت صغيرة، وسألته عن تلك الأموات التي تنزل إلى المقابر ولا تخرج مرة أخرى، أين تذهب، ولماذا لا تعود. وأتذكر جيداً ما قاله لي وقتها، فقد قال: إن جميع البشر سيأتي عليهم يوم يهبطون به إلى ذلك القبر، وإن المكان الذي يذهبون إليه يكون على حسب أعمالهم. ومن ثم قال لي إن الأمر صعب عليّ فهمه في تلك السن، وأن عليه أن يجعله بسيطاً جداً كي أفهمه، ووصفه لي بأنه كما الطريق الذي يأخذ جميع الناس إلى مكان ما، وهناك وفي ذلك المكان سنلتقي جميعاً مرة أخرى. وعندما سألته وقتها وهل إذا ذهبت أنت إلى هناك سنلتقي مرة أخرى؟ فأجابني بالطبع سوف نلتقي، ولكن حاذري أن أكون غاضباً منك وقتها! كان والدي وقتها يضحك مازحاً، لكنني لم أرَ تلك الابتسامة على وجه مديح عندما أتخيله ينتظرنى هناك. لهذا فقد كنت أرى مديحاً دائماً وهو هناك.. ينتظرني عند بداية هذا الطريق، ويتتظر عبور "مندو"، وعبور "أشرف" وجميعهم.. حتى إنه ينتظر عبوري أنا أيضاً، ويكاد قلبي يتوقف وأنا أتصور نفسي ألتقي به مرة أخرى،

وكيف سأكون منكسرة العين خجولة من أفعالي، مع أنني سوف أظل أحمل له مقدار الحب نفسه بالطبع، وحتى في ذلك الوقت، وهو وقت الحقيقة، فأنا لن أستطيع أبدا البوح له، من شدة الخجل مما فعلت، بمدى حبي له. كيف سأبرر له، وكيف سيكون انتقامه؟ لقد قابلت حبه في الحياة بالموت، وأنا التي عاشت طوال عمرها تتصور أنها تحبه فقط، وفي النهاية اتضح أن كل ما كنت أشعر به لا يوفي كلمتين في السطر الأول مما كان يكتبه لي.

لأظل على هذا لسبع سنوات كاملة حتى خرج "أشرف" من السجن ليعمل بائعاً للجمعة في الأفراح، ويزاول مهنة البلطجة أيضاً، فلقد تعلم بالسجن كيف يكون متمرساً بها، وخرج منه صاحب هيبة ويخشاه الناس جميعاً. حيث يخرب أفراحاً بأجر، ويسيطر عليها لكي تتم على خير بأجر آخر. هذا بخلاف بعض ما يفعله بعيداً عن الأفراح من مجالس العرب أو من عراك بعض الغرباء من أجل المال أو الجيرة. ولم أحتمل تلك الحياة وطلبت من "أشرف" الطلاق، فأنا لم أعد أحتمل أن أنظر إلى وجهه، وكلما شاهدته تذكرت تلك الطعنة التي طعن بها مديحاً وأسقطه بها بالحيلة والخيانة. وانفصلت عنه لكي أربي ابنتي عن طريق سبب الخضار إلى أن تصبح عروساً. فلقد ظل نفس السؤال يطاردني علي مدي سنوات: هل كان علي أن أتزوج رجل لا أحبه؟ هل كان علي أن انجب منه الأبناء وبداخلي شعور ولو بسيط إنني لن أكمل حياتي معه.. كما فعلت والدة مديح؟ وكانت الإجابة دائماً بـ "لا" لذلك فقد تمسكت بالطلاق حتي نلت إياه.

ويظل "أشرف" من مخدر إلى مخدر ومن فرح إلى آخر، حتى هلكت صحته وثار ضده بعض شبان البلطجة من الأجيال الجديدة، وعُرض على يديهم لأقوى أنواع الذل.

أيمن

أخترت أن كون هذا هو موضوع بحثي، وأرجو أن أكون قد وفقت، لما ترتب علي تلك الليال الأربع من أشياء اثرت في شكل وتكوين المجتمع الصغير الذي يتكون منه مجتمعنا الكبير. بما كشفتته الأيام والسنين من بعد.

فبعد خمسة عشر عاما عندما عاد "ضاحي" وعطية شقيقه من السجن، كان الحاج رأفت قد استولى على ثروة عائلة البرغوثي بعدما مات شقيقه "سامح" بأقل من عام واحد، وقد حدث هذا بعد نطق الحكم بخمس سنوات فقط عندما اكتشف "سامح" أن رأفت هو من خطط ودبر لسجن ولديه وتهميش دور الآخرين، وكيف دبر للاستيلاء على كل ممتلكاتهم. كما تبين لهم أنه من أوشى بالحبوب، وأنه من افتعل الأمر مع "حوده" مقابل بعض الأموال التي أعطاها له بعد أن أمضى ستة أشهر داخل الحبس. فأصبح "ضاحي" مجرد مستخدم صغير في ملك والده عندما خرج من السجن، وهذا من أجل الدماء فقط كما قال له رأفت. وقد كان من وجهة نظر رأفت انتقاما عادلا لتركهم ولده بالسجن خمسة وعشرين عاما دون أن يتحرك لهم رمش.

أما عن شريكة "أشرف" وممولته. فقد توفي زوج أم سعيد إثر حادث أليم قد أودى بحياته في أثناء عبوره أحد الطرقات السريعة حاملا فوق كتفه أحد أقفاص الفاكهة. ولأن الرجل كان صاحب كثير من المسؤوليات فقد انكسر ظهر أم سعيد سريعا، والتي تستقوي على الحياة الآن عن طريق مسح السلام في العمارات المجاورة، وتستدعيها بعض النسوة لكي تعينهن على غسل السجاد والأشياء الثقيلة التي تحتاج لمساعدة خارجية إذا أراد زوجها أن يريح زوجته.

أصبحت هالة عروسًا، وقد تعلمت من والدتها كيف تثور على الباطل، وكيف لا ترضى بحياة لا ترى نفسها بها، وقد اتخذت كثيرًا من العبر من حياة والدتها في الحارة أو في حياتها مع والدها، ومن خلال ذلك المخزون، فقد تحركت لتثور ضد الظلم في عام ألفين وأحد عشر، نزلت هالة إلى الشوارع لترفض العشوائيات وترفض المخدرات وترفض الجهل، وتلك الأحياء المغلقة على نفسها- ترفض كل فساد تأسس له في التسعينيات، وتحاول أن تنقذ مصير كثيرين قبل أن يُعرضوا لما عُرض له مديح، الذي لم تنس والدتها أن تقص عليها قصته ولو يوم واحد.. نزلت لترفض أن يزعج الميت الحي، وأن يرقد الحي بجوار الميت. عن طريق المقابر التي تحيط بالمساكن حتى في أرقى الأماكن.. نزلت هالة لكي تثور على كل العشوائيات التي كان يتصور البعض أنها حلٌّ لازمة الإسكان بعد أحداث زلزال اثنين وتسعين. وما كانت سوى يؤر ليمدد بها ويتفاقم الصراع الطائفي، ونشر المخدرات، والاعتصاب، وقهر النفوس بالقوة واستخدام العنف بكافة أشكاله القبيحة. ضد المرأة والطفل والضعيف. وأخيرا ضد الشعب. وترك الناس إما للفساد، أو لمن يتصدقون عليهم باسم "الإسلام هو الحل".

نزلت هالة ولكنها لم تكن تتصور أنه حينما يحدث هذا الاعتداء على الميدان ستجد أن والدها "أشرف" البلطجي الذي أصبح الآن مجرد سيرة قديمة وقد خلت، سيكون مع المعتدين، وسوف تشاهده وهو يلقي عليها وعلى من صاحبها من زملاء الميدان زجاجات مشتعلة، وحجارة، ولكنها وجدت عديدًا من مقهى المثقفين معها وعلى رأسهم الحاج سعيد، والحاج ماجد، كما وجدتني أنا أيضا. الرائد "أيمن"، والذي كان مسئولًا وهو صغير عن نقطة الارتكاز الشرطي في منطقته، والذي اجتهد حتى أصبح ضابطا مرموقا بمديرية الأمن التي ساعده جميع رؤسائه بها حتى

أصبح الآن رائدًا في الشرطة. وقد أتى كل من في هذا الميدان مشحون بشكل ينجسه، ومن أشياء تخصه، ولكنها تشابهت كثيرا مع كل من أحاطوا به، إلى أن شاهدت حسنين الحلواني وهو يقتحمه مع أصحابه ومن هم علي شاكلته. وهذه كانت حكاية أربعة ليالٍ لم تنعم فيهم حارتنا بالنوم مطلقا. تركت للحارة أسطورة اسمها مديح؛ الذي يعرف لغة الأموات، ويعرفون لغته..

الذي يعرف طريق المقابر، والذي تعرف المقابر كيف تضايفه.. والذي لم يستطع أكثر سكان المنطقة علما وثقافة إنكار أنه كان يتحدث إلى الأموات، أو حتى إثباته. لقد ظلوا جميعًا يتحدثون عن الأمر بشكل مبهم لا يفهمه حتى من يحفظ أحداثه عن ظهر قلب.

تمت بحمد الله.

إلى من كانت نعم العون لإتمام هذه الرواية

نهال الفراقي

شكراً من القلب .. ولا تكفي.



رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعتنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.